الفصل الحادي والعشرون بعد المئة

الخط العربي

للعلماء الذين اشتغلوا في موضوع نشوء الخط عند البشر ، والقلم الأول الذي تفرعت منه سائر الأقلام ، نظريات في تأريخ الكتابة وظهورها ، وفي المراحل التي مرّت عليها من أول عهد مرت فيه وهو عهد الكتابة الصورية Pictography الى وصولها الى مرحلة الحروف . وهذه النظريات مع أنها مرت بمناقشات وبحوث وتحددت حتى أصبحت معروفة عند علماء الخطوط ، لم تستقر حتى الآن . لأن ما وصل الينا من نماذج كتابية أثرية ، لا يكفي لابداء رأي مقبول أو رأي قاطع في أصل الخط وفي منشئه وفي الأمة التي أوجدته . ولا أعتقد أن في امكان أحد القطع في ذلك ، ما لم يعثر المنقبون في المستقبل على نماذج عادية غير معروفة ، تكون كافية لإبداء رأي علمي في هذا الموضوع .

واختراع الكتابة من الاختراعات الكبرى التي غيرت مجرى البشر،وهو اختراع لا تقل أهميته عن أعظم الاختراعات والاكتشافات والمغامرات التي قام بها الانسان منذ يومه الأول حتى هذا اليوم . ومنها هروب الانسان من أحضان أمه الأرض، وعقوقه بحقها ، والتبطر بها ، وذهابه الى القمر ثم الى ما وراء القمر من عوالم سابحة راقصة في هذا الذي نسميه السماء . ونحن لا نحفل اليوم بموضوع أهمية اختراع الكتابة ، بالنسبة الى تقدم العقل البشري ، ولا يعرف معظم الناس عنه أي شيء ، ولا يحفلون به ، لأنه صار من القديم البائد . وكل قديم بائد يكتب عليه النسيان . وسيأتي يوم ولا شك ينسى فيه الجاءون من بعدنا بمئات وبآلاف

من السنين ، يوم هروب الإنسان من الأرض ، ولا ينظرون إليـــه إلا كما ينظر الانسان الأمي الجاهل الى مبدأ الكتابة أو الى اختراع النار أو اختراع الطباعة أو غير ذلك من المخترعات التي إذا مضى وقت طويل على اختراعهـــا نسيتها ذاكرة البشر ، ونسيت كل أثر تركته في تطور حياة هذا الإنسان المغامر المغرم بالبحث عن المجهول .

ولعلي لا أخطأ إذا قلت إن الإنسان قد فكر في الكتابة منـذ أيامه الأولى أي منذ شعر بنفسه ، وصار يُعبر عمـــا في ذاته ، فكر بها لأنه كان في حاجة الى تسجيل أعماله ومعاملاته وكلامه ، ليتمكن من تذكرها عند الحاجة والى مراجعتها. كما فكر في تسجيل حوادثه وشعوره وتأثره بالمرثيات الجميلة أو المحزنة،وبالخواطر التي كانت تمر عليه ، وبكل إحساسه وعواطفه . وكان كلما تقدم عقله وتوسعت مداركه شعر بحاجتـــه الى تدوين أعماله وأحاسيسه ، فعمد الى الطرق البدائية في التدوين ، ثم طوّرها تدريجياً حتى وصل الى مرتبة الكتابة الصورية ، أي أنـــه استخدم الصور في مقام الألفاظ . بأن يرسم صورة ، فإذا رآها أحد عرفها وسماها باسمها.وعرفت هذه الطريقة بالكتابة الصورية . غير أن هذه الطريقة وإن عبرت بعض التعبير عن مشاعر الكاتب ، إلا أنها كانت عاجزة عن التعبير عن الأمـور الروحية وعن الألفاظ المعنوية ، وعن الأمور الحسابية وغير ذلك . لـذلك لم يقنع بها بل أخذ يشحذ ذهنه لإيجاد طريقة أخرى مختصرة وبسيطة ولها قابلية على رسم المعاني والاحساس،فأوجد من الكتابة الصورية ، اختزالاً نسميه : الكتابة المقطعية. أي انه اختزل الصور ، وجزأها الى مقاطع . وأخذ منها مقاطعها الأولى . فسماها بأسمائها الأصلية . فوصل بذلك الى مرحلة المقاطع . وتمكن بسليقتـه وبذكائه من تحليل الأسماء والألفاظ التي يراد تدوينها الى مقاطع ، وتدوين أي كلمة بمقاطعهـا التي تتألف منها . وقد سهلت هذه المرحلة عليه كتابة الكلمات التي تعبر عن الآراء ومن تسجيل جمل وصفحات فيها ألفـــاظ مادية محسوسة وألفاظ ليست بمسميات لأشياء مادية وإنما هي تعبير عن معان وإحساس . مثل موت وحياة ورأي ومـــا شاكل ذلك . إلا أنه وجد أن هذه الطريقة لا تزال طريقة صعبة عسيرة ، وأن على الإنسان أن يحفظ صور مئات من العلامات التي تعبر عن المقاطع لتدوين رسالة. لذلك فكر في اختزالها أيضاً وفي غربلتها وجزم المقاطع للوصول الى الجذور الأساسية للألفاظ وقد نجح في عمله هذا فتوصل إلى إيجاد الحروف . فبلغ بـذلك النهاية .

وهي المرحلة الحقيقية للكتابة . وبذلك استطاع أن يدوّن كل ما يدور بخلده من آراء بحروف ، يضعها بعضها الى بعض ليولد منها الألفاظ التي تدوّن بعضها الى بعض لتعبر عما يريد الكاتب تدوينه .

وما ذكرته يمثل مجمل رأي العلماء في تطور الكتابة من الرموز والعلامات البدائية الى بلوغها مرحلة الكمال والتمام . وقد أخذوا رأيهم هذا من الصور والنقوش التي عثر عليها في الكهوف وعلى الصخور وفي المقابر في مختلف أنحـاء العالم . ولكن رأيهم هذا يتشعب ويتضارب عندما يتعرض للأصل الذي أوجد الحروف، والمكان الذي صار له شرف ايجاد الكتابة ، وحل المشكلة المستعصية التي دوخت الانسان، مشكلة تدوين ما يدور بخلده بيسر وسهولة . فذهب بعض الباحثين الى ان الكتابة انما ظهرت في العراق ، وذهب بعض آخر الى انها ظهرت في لبنـان ، وذهب بعض الى انها من نبت أرض النيل ، وذهب آخرون الى انها من ثمرات جزيرة (كريت) . ولكل رأي ودليل وحجة تقوم على دراسة الكتابات والنصوص التي عثر عليها في تلك الأرضين .

والذين يرون ان العراق هو وطن الكتابة الأول ، يرون ان الخط انما ظهر بتأثير عبادة النجوم ، وذلك في أرض (كلديا) ، وكان الكهنة قد وضعوا رموزاً للنجوم ، ومن تلك الرموز أخذت الأبجدية الأولى ، وتفرعت الألفباء الساميـة الغربية التي صارت أماً لمجموعة من الأبجديات ، ومن قائلي هذه النظرية والمدافعين عنها المستشرق (هومل)[1] .

وهناك طائفة من العلماء رأت ان الأبجدية الأولى هي وليدة أرض النيل . وأن الذين أوجدوا الأبجدية انما أخذوها منها . وكان المصريون قد استعملوا في بادىء أمرهم الكتابة الصورية ، ثم اختزلوها وأولدوا منها (الكتابة الهيروغليفيـة) . وهي كتابة متطورة متقدمة بالنسبة الى الكتابة الصورية . وقد صارت هذه الكتابة أماً لأقدم الكتابات . إذ تعلمها أهـل (سيناء) وأهل بلاد الشام،ثم اختزلوها وجزموها ، حتى أوجدوا من هذا الجزم الحروف الهجائية[2] .

---

١ Grundriss, I, S. 97, Geschichte Babylonien und Assyrian, S. 50.

٢ Ency. Britanica, Vol. I p. 680, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, S. I, A.H. Gardiner, « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916.

وعثر المنقبون في طور سيناء في (سرابيط الخادم) على كتابة قديمة يعود عهدها الى سنة (١٨٥٠) قبل الميلاد ، دفعت بعض العلماء مثل (مارتن اشبرنكلنك) على القول بأن هذه الكتابة هي وليدة الكتابة الهيروغليفية ، وانها الحلقة المفقودة التي توصل بين الهيروغليفية وبين مرحلة الحروف . وذهب الى ان العمال الذين كانوا يشتغلون في مناجم طور سيناء انما اهتدوا الى التدوين بالحروف من معرفتهم للهيروغليفية . إذ اختزلوا المقاطع ، وأخذوا بالجزء الأول من كل مقطع وسمّوا ذلك الجزء باسم من أسماء الصور بلغتهم ، فتكونت عندهم مجموعة من الحروف كونت الأبجدية الطورسينائية ، بلغ عددها اثنين وعشرين حرفاً ، أصبحت نموذجاً للأبجديات الأخرى التي اعتمدت عليها [١] .

وقد انتشرت هذه الأبجدية من (طور سيناء) الى الشرق فوصلت الى الشأم وجزيرة العرب ، وصارت أصل الأبجديات في هذه الأماكن غير انها لم تستعمل في العراق ، حيث كانت الكتابة المسمارية ، ولا في مصر ، حيث كانت الكتابة (الهيروغليفية) . وقد تغيرت أشكالها باستعمالها الطويل ، وتحرفت بمرور الزمن ، وتبدلت الأسماء التي وضعها كتّاب طور سيناء لحروفهم ، كما تبدلت من حيث الترتيب وبذلك تولدت منها أقلام جديدة [٢] .

ورأى بعض العلماء ان الخط الكنعاني الذي هو من الخطوط القديمة ، قد اشتق من الخط الهيروغليفي ، لوجود شبه بين الحروف الكنعانية وبعض الصور الهيروغليفية . ورأى بعض آخر انه مشتق من الكتابة المسمارية . ورأى آخرون انه اشتق من الأبجدية (الطورسينائية) ، إذ يصعب تصور اشتقاق الخط الكنعاني من الهيروغليفية رأساً لبعد ما بين الكتابتين، وإن كان هناك شبه بين بعض الحروف الكنعانية والصور الهيروغليفية . ومن الخط الكنعاني تولدت بعض الأقلام السامية المتأخرة [٣] .

وذهب باحثون الى أن الفينيقيين هم أول من اخترعوا الأبجدية ، ومن هذه الأبجدية الفينيقية تولدت الأبجديات الأخرى ، وذهب قسم منهم الى أن الفينيقيين، إنما أخذوا أبجديتهم هذه من الهيروغليفية ، بأن شذّبوها وجزموا مقاطعها، وأولدوا

---

١ Martin Sprengling, The Alphabet : its Rise and development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٢ The Universal Jewish Ency. I, p. 198.

٣ The Jewish Quarterly Review, XII, (1950), 83-109, 159-179.

منها الحروف[1] . ونظراً الى وجود هوة كبيرة بين الكتابة الفينيقية وبين الهيروغليفية ، رأى بعض الباحثين ، أن الفينيقيين ، إنما أخذوا خطهم من الخط الطورسينائي ، ثم طوروه وحسّنوه وأوجدوا منه خطهم الذي أولد جملة خطوط .

وطائفة أخرى من العلماء ، رأت أن وطن (الألفباء) الأول هو جزيرة قبرس أو جزيرة كريت ، حيث عثر فيهما على نماذج قديمة للكتابة اتخذوها حجة يستند اليها في هذا الرأي . وقد زعم أصحاب هذه النظرية أن أهل ساحل البحر الأبيض إنما تعلموا الكتابة من أهل (كريت) أو (قبرس) . وذلك باحتكاكهم بهم ، وبهجرة الفلسطينيين Philistines ، من جزيرة (كريت) الى سواحل فلسطين التي عرفت باسمهم (فلسطية) Philistia ، ثم أطلقت على المنطقة التي قيل لها فلسطين كلها . ومن الفلسطينيين أخذ الفينيقيون الأبجدية[2] .

وقد عثر الباحثون على عدد من الكتابات القديمة في جزيرة (كريت) ، تبين من دراسة بعض منها أنها مكتوبة على طريقة الكتابة الهيروغليفية ويرجع عهدها الى ما بين (٢٠٠٠) الى (١٦٠٠) قبل الميلاد . كما عثروا على كتابة صورية يعود عهدها الى حوالى السنة (١٧٠٠) قبل الميلاد . وعثروا على كتابات أخرى حملتهم على القول بأن (كريت) كانت الموطن الأول للكتابة ، ومنها انتقلت الكتابة الى مواضع أخرى من البحر الأبيض[3] . كما بينت ذلك في الفقرة السابقة .

وقد عثر المستشرق (كلود شيفر) M. Claude Schaeffer ، المعروف بتنقيبه عن النصوص (اليغاريتية) Ugarit في شهر (نوفمبر) من عام ١٩٤٩ م على آجرة صغيرة من الصلصال المفخور بالنار حجمها (٥) سنتيمترات في ١٥ ملمتراً في موضع (رأس الشمرة) الواقع على مسافة عشرة أميال من شمال اللاذقية ، ظهر أنها على صغرها وتفاهتها البادية عليها من أهم ما عثر عليه من نصوص . فهذه الآجرة الصغيرة التي لا تلفت اليها الأنظار هي لوح في

---

١ الدراسات الادبية ، الجامعة اللبنانية ، السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م (ص ٤٤ وما بعدها) .
Ency. Brita., I, p. 680, A.H. Gardiner, The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet, in the Journal of Egyptian Archaeology, 1916, M. Dunand, Byblia Grammata, Beyrouth, 1945, p. 71.

٢ Ency. Brit. I, p. 680, Hastings, p. 672, Ency. Bibli., p. 3434.

٣ The Art of Writing, Unseco, p. 8.

غاية من الأهمية كتبت عليه الأبجدية (اليغاريتية) المؤلفة من ثلاثين حرفاً ، وهي على الرغم من صغر حروفها مكتوبة كتابة واضحة بخط قوي جلي . وقد كان العلماء يبحثون عن هذه الأبجدية بكل شوق ، والظاهر ان أحد الطلاب كتبها على هذا اللوح ، ويرجع عهده الى القرن الرابع قبل الميلاد[1] .

وهذه الأبجدية (اليغاريتية) مكتوبة كتابة اسفينية ، ولذلك رأى بعض الذين بحثوا في (اليغاريتية) انها وليدة الكتابة المسمارية . ورأى بعض آخر انها متأثرة بالهيروغليفية من حيث تكوين الحروف الصامتة . وأما من ناحيـة الرسم ، فإنها متأثرة بالكتابة المسمارية . وتتألف من ثلاثين حرفاً ، فهي تتضمن جميع الحروف في الأبجديات السامية الشمالية الغربية المكونة من اثنين وعشرين حرفاً صامتاً . ونجد انها أوردت هذه الحروف على ترتيب الأبجدية الإرمية والعبرانية ، خلا انها وضعت خمسة أحرف أخرى لم ترد في العبرانية بين هـذه المجموعة ، فتكوّن منها سبعة وعشرون حرفاً تضاهي الأبجدية الكنعانية ، ثم أضاف اليهـا كتبة (اليغاريتية) أحرفاً أخرى ، فأصبح مجموف الحروف ثلاثين حرفاً تألفت منها الأبجديـة (اليغاريتية)[2] .

نرى مما تقدم ان آراء علماء الخط تكاد تتفق على ان مخترعي الأبجديات هم أناس يجب أن يكونوا من أهل الشرق الأدنى أو من حوض البحر الأبيض ، من أهـل جزيرة (كريت) أو (قبرس) . وآراؤهم هذه هي بالنسبة الى الأقلام المشهورة التي لا تزال مستعملة وحية معروفة مثل الخطوط المستعملة في اوروبة ، وفي اميركا ، ومثل الخط العربي والعبراني والسرياني وبالنسبة الى أقلام أخرى ماتت ، غير ان العلماء المتخصصين يعرفون عنهـا شيئاً ويقرأون نصوصها مثـل الكتابات المسمارية وأمثالها . إلا ان هناك أقلاماً هي قديمة أيضاً،ولها أهمية كبيرة ،

---

١ راجع وصف هذه الاجرة الصغيرة والابجدية (اليغاريتية) في مجلة المجمع العلمـي العربي بدمشق : حـ٤ مجلد ٢٥ (١٩٥٠ م) ، (٦٢ وما بعدها) ،
The Glascow Herald, Saturday March 4, 1950, Manchester Guardian Weekly, March 23rd, 1950, p. 13, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12.

٢ The Glascow Herald, Saturday March, The 4th., 1950, BOASOR, NUM : 118, April 1950, p. 12, Le Muséon, LIX, (1946), 1-4, p. 95, C.H. Gordon, Ugaritic Grammer, Analecta Orientalia, 20, Roma, 1939, p. 69, Caude F. A. Schaeffer, The Cuniform Texts of Ras Schamra Ugari, London, 1939.

ونصوص وكتابات ، لذلك يجب البحث عنها ، لمعرفة تأريخها ودرجة صلتها بالأقلام التي نتحدث عنها . للوقوف على البواعث التي دفعت أصحابها على ايجادها والمراحل التي مرّت بها . فليس من الصواب إهمال تلك الأقلام وغض النظر عنها باعتبار انها أقلام بعيدة عن أقلامنا ، وهي تمثل ثقافة بعيدة عن ثقافتنا .

كذلك يجب البحث عن الرسوم والرموز والإشارات التي سجلها الإنسان البدائي للتعبير عن نفسه ولتخليد ما كان يدور بخلده . ومقارنة ذلك مع أمثاله في كل أنحاء العالم . فإذا فعلنا ذلك وجمعنا كل الأقلام القديمة مثل أقلام الصين والهند وبقية أقلام أقطار آسية وأقلام إفريقية واميركا ، ودرسناها دراسة علمية . صار في إمكاننا تكوين رأي عام علمي تقريبي عن تأريخ ظهور الخط عند البشر : متى كان ذلك وأقدم من بدأ به ، مع بذل الجهد للبحث عن نماذج جديدة من الخطوط في كل مكان من العالم لنزيد بها على علمنا المتجمع من الكتابات التي وصلت الينا ولا نضيف عليه علماً جديداً وليكون حكماً قريباً من المنطق والعلم .

والرأي عندي أنه لأجل الإحاطة بتأريخ تطور الخط ، لا بد من الاستمرار في البحث عن كتابات أخرى جديدة ومن دراسة مظاهر أشكال الحروف وكيفية ترتيبها وكيفية النطق بها ، أي الإحاطة بأسماء الحروف . فإن هذه الأمور تساعدنا كثيراً على فهم تطور الخط عند البشر وعن صلته بعضه ببعض ومن التوصل الى نتائج علمية قويمة ، لا تقاس بالنتائج التي تبنى على مجرد الظن والتخمين والتصور.

والذي نلاحظه اليوم أن حروف الخطوط السامية المستعملة عند الغربيين ، تكاد تتفق في أسمائها وفي ترتيبها ، ويشير هذا التشابه الى وحدة الأصل ، والى أن الأبجديات المذكورة قد تفرعت كلها من شجرة واحدة ، ونبعت من منبع واحد. فكلها تبتدىء بحرف واحد ، هو (الألف) وكلها تجعل الباء حرفاً ثانياً ، ثم ان في وحدة تسمياتها مع اختلاف اللغات التي تدوّن بها دليلاً كافياً على إثبات أن هذه الأبجديات هي من أصل واحد . وعلى أن الأسماء الحروف علاقة وثيقة بالصور وبالكتابة الصورية للغة الأم التي اخترعت تلك الحروف وأوجدتها من مرحلة المقاطع . وإذا ثبتنا أسماء الحروف،وعرفنا من أين أخذت ، وإذا استطعنا العثور على أقدم نص للأبجدية،يكون في إمكاننا ابداء رأي علمي في منشأ الحروف وفي المكان الذي كان له شرف إيجادها ، أو الأماكن التي ساهمت بصور مستقلة

في إيجاد الحروف . وهذا ما أراه . لأني أعتقد أن الانسان فكّر في أول ما فكر به في إيجاد وسيلة يسجل بها أعماله وأفكاره ، وأن تفكيره هذا لم ينحصر في بقعة واحدة ، بل وجد في كل مكان . حتى في البيئات البدائية ، إذ نجد الشعوب البدائية تتخذ وسائل للتعبير عن آرائها وعن تدوين أفكارها بطرق تتفق مع مستواها العقلي ودرجتها في الثقافة .

والحرف الأول ، وهو الألف ، يعني (ثوراً) ، ولذلك مثل في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل رأس ثور ، وأما الحرف الثاني ، وهو الباء أو Beth ، فإنه يعني (بيتاً) ، وقد صور في الهيروغليفية وفي كتابة طور سيناء بشكل يصور مقدمة بيت . وأما الحرف الثالث ، وهو الجيم ، فإنه (كمل) (كيمل) ، أي الجمل ، وصورته لا ترمز الى الجمل رمزاً تاماً . وأما حرف الدال ، فيقال (دالت) ، ومعناه باب . وأما حرف الهاء ، فإنه من He (هى) بمعنى شباك . وأما الواو ، فهو يشير الى وتد . وأما الزاي ، فإنه من زين بمعنى سلاح . وأما الحاء ، فإنه من (حيث) بمعنى حائط . وأما الياء ، فإنه من (يود) بمعنى يد أو يد مفتوحة . وأخذ حرف الكاف من (كاف) (كف) بمعنى كف اليد ، أو يد مقبوضة . وأما حرف اللام ، فإنه من (لمد) (لامد) ، ومعناه عصا لضرب الثور . وأما الميم ، فإنه من (ميم) بمعنى ماء . وأما النون ، فإنه من نون بمعنى سمكة . وأما حرف السين فهو سامخ ، بمعنى آلة يعتمد عليها كالعصا . وقد أخذ حرف العين من عين ، عين الانسان . وأخذ الفاء من فم (بم) Pe بمعنى فم ، وأخذ حرف الصاد من (صادى) ، بمعنى صياد . وحرف القاف من قوف Kof بمعنى الرأس الى الخلف ، وحرف الراء ، من ريش بمعنى رأس ، وحرف الشين من (شين) (شن) بمعنى سن . وأما التاء ، فمن كلمة (تاو) (تو) بمعنى علامة أو صليب ، وهكذا [1] .

ولمسألة ترتيب الحروف أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية أسماء الحروف . ويظهر ان ترتيب (أبجد هوز حطي ... الخ) ، وهو ترتيب سار عليه العرب أيضاً ، هو ترتيب قديم . وقد عرف عند السريان وعند النبط والعبرانيين ، وعند (بني إرم) ويظن انهم أخذوه من الفينيقيين . وقد سار عليه الكنعانيون أيضاً ، غير انهم

---

١ The Universal Jewish Ency. I, p. 202.

زادوا عليه الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . وقد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي يمثل حرف التاء فيها آخر حروف الأبجدية الحروف التي لم ترد في ترتيب (أبجد هوز) ، وهي موجودة في العربية ويقال لها (الروادف)[1]. أما الترتيب السائر اليوم في كتابة الحروف العربية مبتدئين بالألف ومنتهين بالياء، فهو ترتيب اسلامي ، وقد وضع على ما يخيل إلي لتيسير حفظ أشكال الحروف للطلاب ، لأنه راعى الجمع بين الحروف المتشابهة ، ولم يتجنب مع ذلك الترتيب الأصل المراعى في نظام (أبجد هوز) تجنباً تاماً . وضعه (نصر بن عاصم) في ايام الحجاج .

ومن الفينيقيين الذين كانوا يقطعون البحار والبراري للاتجار مع مختلف الشعوب، انتشرت الكتابة بالحروف الى حوض البحر الأبيض . فقد كان تجّارهم يسجلون ما يبيعون ويشترون ليضبطوا بذلك أعمالهم ، فظن من كان يتعامل معهم من اليونان وغيرهم انهم كانوا يقومون بأعمال سحرية . ولما عرفوا انهم انما يكتبون ذلك لضبط أعمالهم وتجارتهم تعلموا منهم سر الكتابة . ثم سرعان ما أخذوا يكتبون . وبذلك انتشرت الكتابة في اوروبة . ويظهر ان انتقال الخط الى اوروبة كان في القرن العاشر قبل الميلاد[2] . وقد حافظ اليونان القدامى على أشكال الحروف الفينيقية وعلى طريقتهم في التدوين من اليمين الى اليسار . وحافظوا على أسماء الحروف كذلك . ثم وجد اليونان ان الحروف الفينيقية هي حروف صامتة ولا توجد فيها حروف تعبر عن الحركات. فأكملوها بإضافة الحركات اليها. ثم طوروها بالتدريج. وكان في جملة التطورات الابتداء بالكتابة من اليسار نحو اليمين . وعن اليونان أخذ الرومان وغيرهم من الشعوب الأوروبية الكتابة ، وأخذ كل قوم منهم يوجد منها طرقاً جديدة في الخط حتى صارت على نحو ما هي عليه في هذا اليوم .

الخط العربي :

والعرب من الشعوب التي عرفت الكتابة ومارستها قبل الإسلام بزمان طويل كذلك . بل عرفوا الكتابة قبل الميلاد ببضع مئات من السنين . وقد عثر في مواضع

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ The Art of Writing, Unesco, 36.

من جزيرة العرب على كتابات دونت باليونانية وبلغات أخرى . وتبين من دراسة النصوص الجاهلية ، ان العرب كانوا يدونون قبل الاسلام بقلم ظهـــر في اليمن بصورة خاصة ، هو القلم الذي أطلق عليه أهل الأخبار (القلم المسند) أو (قلم حمير) . وهو قلم يباين القلم الذي نكتب به الآن . ثم تبين انهم صاروا يكتبون في الميلاد بقلم آخر ، أسهل وألين في الكتابة من القلم المسند ، أخذوه من القلم النبطي المتأخر وذلك قبيل الاسلام على ما يظهر . كما تبين ان النبط وعرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون أمورهم بالإرمية وبالنبطية ، وذلك لشيوع هذين القلمين بين الناس ، حتى بين من لم يكـــن من (بني إرم) ولا من النبط ، كالعبرانيين الذين كتبوا بقلم إرمي الى جانب القلم العبراني ، ولاختـــلاط العرب الشماليين ببني إرم واحتكاكهم بهم ، مما جعلهم يتأثرون بهم ثقافياً ، فبان هذا الأثر في الكتابات القليلة التي وصلت الينا مدونة بنبطية متأثرة بالعربية .

ويظهر من عثور الباحثين على كتابات مدونة بالمسند في مواضع متعـــددة من جزيرة العرب ، ومنها سواحل الخليج العربي ، بعض منها قديم وبعض منهـــا قريب من الاسلام ، ان قلم المسند ، كان هو القلم العربي الأصيل والأول عند العرب . وقد كتب به كل أهل جزيرة العرب ، غير ان التبشير بالنصرانية الذي دخل جزيرة العرب ، وانتشر في مختلف الأماكن ، أدخـــل معه القلم الإرمي المتأخر ، قلم الكنائس الشرقية ، وأخذ ينشره بين الناس لأنه قلمه المقدس،الذي به كان يكتب رجال الدين . ولما كان هذا القلم أسهل في الكتابة من المسند ، وجد له أشياعاً وأتباعاً بين من دخل في النصرانية وبين الوثنيين أيضاً ، لسهولته في الكتابة،غير انه لم يتمكن مع ذلك من القضاء على المسند إذ بقي الناس يكتبون به . فلما جاء الاسلام ، وكتب كتبة الوحي بقلم أهل مكة لنزول الوحي بينهم . صار قلم مكة هو القلم الرسمي للمسلمين ، وحكم على المسند بالموت عندئذ، فمات ونسيه العرب ، الى أن بعثه المستشرقون ، فأعادوه الى الوجود مرة أخرى،ليترجم لنا الكتابات العادية التي دونت به .

وهناك أقلام عثر عليها المستشرقون في أعالي الحجاز ، تشبه القلم المسند شبهاً كبيراً ، لذلك رأى الباحثون انها من صلب ذلك القلم ومن فروعه للشبه المذكور، ولأنها متأخرة بالنسبة له ، فلا يمكن أن تكون هي الأم . وقد سمي قلم منهـــا بالقلم الثمودي نسبة الى قوم ثمود ، وسمي قلم آخر بالقلم اللحياني ، نسبة الى

(لحيان) . وعرف القلم الثالث بـ (الكتابة الصفوية) ، نسبة الى أرض (الصفاة) الأرض التي عثر بها على أول كتابة مكتوبة بهذا القلم .

وقد عرف علماء العربية القلم المسند ، ومنهم حصل هذا القلم على اسمه . ولكنهم لم يعرفوا من أمره شيئاً يذكر . وكل ما عرفوه عنه أنه خط أهل اليمن القديم ، وأنه خط حمير. وأن قوماً من أهل اليمن بقوا أمداً يكتبون به في الإسلام ويقرأون نصوصه . كما عرفوا القلم الذي دوّن به القرآن الكريم . ودعوه (القلم العربي) او (الخط العربي) حيناً و (الكتاب العربي) أو (الكتابة العربيـــة) حيناً آخر تمييزاً له عن المسند[1] . ولم يشيروا الى أسماء خطوط جاهلية أخرى .

وقد تكلم (الهمداني) ومشايخه من قبله عن المسند ، كما أشار اليه (ابن النديم) ، وذكر أن نماذج منه كانت في خزانة (المأمون) . غير أن علمهم به لم يكن متقناً على ما يظهر من نقولهم عنه . كما تحدثت عن ذلك في أثناء كلامي عن (الهمداني). ولم يكن لهم إدراك عن كيفية تطوره . وقد دعوه بالخط الحميري . وعرّفـوه بأنه خط مخالف لخطنا هذا، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم . قال (أبو حاتم) هو في أيديهم الى اليوم باليمن[2] . هذا ولم أجد في المؤلفات الإسلامية المعروفة في هذا اليوم ما يفيد بأن أحداً من العرب الإسلاميين كان له عـــلم متقن بالعربيات الجنوبية ، أو كان له علم بتأريخ العربية الجنوبية القديم ، وفي الذي ذكروه عن الخط المسند وعن لغات العرب الجنوبيين وتأريخهم تأييد لما أقوله .

والعرب تسمي (الكتاب العربي) أي خطنا : (الجزم) ، وذكروا أنه إنما سمي جزماً لأنه جزم من المسند ، أي قطع منه ، وهو خط حمير في أيام ملكهم[3] ولا أستبعد احتمال كون كلمة (الجزم) تسمية ذلك القلم في الجاهلية ، وأما تفسير

---

١ الفهرست (ص ٦ فما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/١١) ، الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس (ص ٧ وما بعدها) ، تأريخ الخط العربي وآدابه ، تأليف محمد بـــن طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط ، مكة ، ١٩٣٩ م ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، الجهشياري ، الوزراء (١٢،١ وما بعدها) ، السجستاني ، كتـاب المصاحف (٤ وما بعدها الصولي ، أدب الكتاب (٢٨ ــ ٣١) ، القاهرة ١٣٤١ هـ) ، الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١١ وما بعدها) ، العقـد الفـريد (٤/٢٤٠ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (سند) .

٣ اللسان (١٢/٩٧ وما بعدها) ، (جزم) ، تاج العروس (٨/٢٢٨) ، (جزم) .

أهل الأخبـــار لسبب التسمية ، فهو من نوع التفاسير المعروفة المألوفة عن أهل الأخبار ، يضعونها حينما يجابههم شخص يريد معرفة سبب تسمية شيء بالاسم الذي عرف به . ودليل ذلك ما ذكره (البطليوسي) من أن أهل الأنبار كانوا يكتبون المشق ، وأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (خط الجزم) وهو خطهم ، وهو الذي صار خط المصاحف[1] . و (المشق) في تفسير علماء العربية مـدّ حروف الكتابة[2] ومعنى هذا أن خط أهل الأنبار ، كان متصل الحروف ممدودها ، بينما غلب على القلم الحيري ، الشكل التربيعي الجاف ذو الزوايا للحروف . وهـو شكل تكون الكتابة به أبطأ من الكتابة بالقلم المشق . ونظيره هو القلم الكـوفي في الإسلام ، الذي اختص بأنواع معينة من أغراض الكتابة،ومنها الكتابة على الأحجار والخشب. ونظراً لبطء الكتابة به على الغالب لم يستعمل بكثرة في الكتابة .

ولعل سبب اختلاف قلم الأنبار عن قلم أهل الحيرة ، هو في المنبع الذي استقى كل من أهل المدينتين قلمه منه . فقد استعمل نصارى العراق في كتبهم الطقوسية القلم (السطرنجيلي) ، المشتق من القلم التدمري . وكتبوا بـه الأناجيل والكتب المقدسة وأحجار المباني ، مثل الأحجار التي توضع فوق أبواب المعابد كالكنائس أو البيوت أو القبور وما شاكل ذلك . وهو خط ثقيل يحتاج الى بذل وقت في نقشه والى جهـد في حفره على الخشب أو الحجر ، بل وفي الكتابة به أيضاً . واستعملوا قلماً آخر أسرع منه وأسهل وأطوع في الكتابة به من (السطرنجيلي) ، كتبت به الأعمال التجارية والمخابرات والرسائل والكتب ، كتبوا بـه بقلم القصب وبالحبر . فكان منه خط النسخ[3] .

هـذا وقد كتب النبط بقلمين كذلك:قلم قديم ، ثقيل في الكتابة تكثر فيه الخطوط المستقيمة والزوايا والتربيعات فهو على شاكلة (السطرنجيلي) ، والخـط الكوفي . كتبوا به على الأخشاب والحجارة والمعـادن والصخور ، حيث حفروا الكتابة حفراً ، كما استعملوه في ضرب نقودهم . وهو ثقيل في الكتابة لذلك لم يستعمل في الأغراض اليومية كتدوين المعـاملات التجارية والمراسلات وما شاكل

---

١ الاقتضاب (٨٩) .

٢ تاج العروس (٧/٧٠) ، (مشق) .

٣ الابحاث ، السنة ١٩٥٢ م ، الجزء الاول (ص ١٥) .

ذلك من أمور تستدعي السرعة ، بل استخدم الكتاب قلماً آخر لهذه الأغراض ، هو القلم المدوّر الـــذي يشبه النسخ ، والذي نستطيع أن نسميه (المشق) ، قلم أهل الأنبار . وهو قلم متأخر ظهر عندهم بعد القلم الأول[1] .

ونجد أكثر شعوب الشرق الأدنى على هذه العادة في اتخاذ قلم خاص يكتبون به الكتب المقدسة والأحجار التذكارية ،التي توضع فوق أبواب المعابد وفي داخلها أو على القبور للذكرى والتـــأريخ . لذلك يجتهد فيه أن يكون مزوقاً ذا زوايا وتربيعات وزخرف ونقوش ، باعتبار أنه إنما يدوّن للتخليد ولتدوين شيء مقدس ثمين . ومن هـــذه النظرة تولدت طريقة رسم الحروف الأولى لكلمات الجمل أو عنـــوان الفصول بحروف بارزة مغايرة للحروف الأخرى التي تدوّن بها الكلمات التاليـــة . واتخذوا أقلاماً أخرى راعوا فيها السهولة والليونة في الكتابة . لتدوين الكتب الأخرى التي لا صلة لها بالدين ولتدوين الأعمال اليومية . جعلوا حروفهـا مدوّرة أو مقوسة ، ليمكن الكتابة بها بسهولة بدون حاجة الى بذل عناية في رسم خطوطها المستقيمة والمربعة والزوايا التي تكوّن الحروف .

وقد تحدث (الجاحظ) عن الخط ، فقال : « وليس في الأرض أمة بها طرق أو لها مسكة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلا ولهم خط . فأما أصحاب الملك والملكة والسلطان والجباية ، والديانة والعبادة ، فهناك الكتاب المتقن ، والحساب المحكم ، ولا يخرج الخط من الجزم والمسند المنمنم كذا كيف كان ، قال ذلك الهيثم بن عدي وابن الكلبي »[2] . فالخط العربي الجاهلي ، قلمان : جزم ومسند، ولا ثالث لهما . المسند خط العربية الجنوبية وخط من كتب بهذا القلم من بقيـــة أنحاء جزيرة العرب ، والجزم ، خط أهل مكة والمدينة وعرب العراق وغيرهم من العرب الشماليين .

ولما كان عرب العراق قد خالطوا بني إرم وأخذوا من ثقافتهم ، ومنهم من اعتنق دينهم ، فدخل في النصرانية . فلا أستبعد استعمالها قلمـــين ، أو أكثر في الكتابة . قلم رُوعي فيه ما رآه نصارى العراق في (السطرنجيلي) ، والمسمى أيضاً

---

١ الابحاث ، ١٩٥٢ ، (حـ ١ ص ١٤ وما بعدها) .

٢ الحيوان (١/٧١) ، البلاذري ، فتوح (٤٧٦ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٥ م .

بالخط الرهاوي ، وقلم آخر استعملوه للكتابات السريعة . ولا أستبعد احتمال كتابة أهل الأنبار أو أهل الحيرة أو غيرهم من عرب العراق بالقلمين معاً . القلم الذي دعاه البطليوسي بالمشق ، وهو على حد قوله قلم أهل الأنبار ، والقلم الحيري ، وهو الجزم على رأيه أيضاً . ويذكر ان القلم السطرنجيلي قد استنبط في مطلع القرن الثالث للميلاد . وقد استنبطه (بولس بن عرقا) أو (عتقا الرهاوي) . وشاع استعماله بين الناس[1] .

هذا وللعلماء المسلمين مؤلفات في تأريخ الخط العربي وتطوره ، ولهم نظريات وآراء في منشأ الخط ، منها آراء تنسب الى (ابن الكلبي) ، وهو في مقدمة علماء الأخبار في هذا الباب . واليه يرجع أكثر من جاء بعده في رواية أخباره عن منشأ الخط ، وعن كيفية تطوره حتى بلغ مبلغه هذا في الاسلام . ومنهـا آراء تنسب الى غيره كابن عباس[2] .

ونستطيع تلخيص وجهات نظرهم في منشأ الخط العربي في الملخصات الآتية :

١) كان منشأ الخط في اليمن ، ثم انتقل منه الى العراق حيث تعلمه أهل الحيرة ، ومنهم تعلمه أهل الأنبار ،ومنهم تعلمه جماعة نقلوه الى الحجاز . فالأصل، على رأي هؤلاء ، هو القلم المسند وكان كما يقولون بالغاً مبلغ الاتقان والجودة في دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف[3] .

٢) أول من كتب الخط العربي حمير بن سبأ ، وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند ، سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه الى (هود)[4] .

٣) أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكـة من قبل (حرب بن أمية) وقد

---

١ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، (١٩٥٩ م) ، (ص ٤٢١) .

٢ راجع ادب الكتاب للصولي (٢٨ وما بعدها) ، والفهرست لابن النديم (وما بعدها) وحكمة الاشراق الى اختراق الافاق ، للسيد مرتضى الزبيدي ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٥٠ وما بعدها) ، البلاذري فتوح البلدان (٤٧٦ ومـا بعدها) والجهشياري ، الوزراء (٢٥١ وما بعـدها) ، صبح الاعشـى (٩/٣ وما بعدها) ، السجستاني ، المصاحف (٤ وما بعدها) ، العقد الفريد (٢٠٣/٣) المزهر (٣٤٩/٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .

٣ المزهر (٣٤٩/٢) ، مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .

٤ صبح الاعشى (٩/٣) .

أخذها من طارىء طرأ على مكة من اليمن . وقد أخذ ذلك الطارىء علمه بالكتابة من كاتب الوحي لهود[1] .

٤) أول من كتب بالعربية اسماعيل[2] . كتب على لفظه ومنطقه موصولاً ، حتى فرق بينها ولده هميسع وقيذر[3] .

٥) أول من وضع الكتاب العربي نفيس ، ونضر ، وتياء ، ودومة . هؤلاء ولد اسماعيل ، وضعوه موصولاً ، وفرقه قادور بن هميسع بن قادور[4] .

٦) إن نفيس ، ونضر ، وتيما ، ودومة ؛ بني إسماعيل ، وضعوا كتاباً واحداً وجعلوه سطراً واحداً غير متفرق ، موصول الحروف كلها ، ثم فرقه نبت ، وهميسع ، وقيذار ، وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر[5] .

٧) كان قلم (الجزم) في نظر بعض العلماء أساس القلم العربي وقد سمي بالجزم ، لأن مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، وهم من طيء من بولان ، سكنوا الأنبار واجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة . فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام. وقد اقتطع مرامر الخط من المسند فسمي الجزم ، لأنه جزم أي اقتطع ، ولذلك قيل له الجزم قبل وجود الكوفة ؛ فتعلمه منهم أهل الأنبار ، وتعلمه منهم أهل الحيرة وسائر عرب العراق ، وتعلمه من أهل الحيرة بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر الى

---

١ صبح الاعشى (٣/١٠) .

٢ صبح الاعشى (٣/١٠) ، المزهر (٢/٣٤٢) ، (وعنه عليه الصلاة والسلام ، أنه أول من كتب بالعربية اسماعيل) ، الروض الانف (١/١٠) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (أو ما بعدها) .

٣ المزهر (٢/٣٤٢) ، (كان ابن عباس يقول : أول من وضع الكتاب العربي اسماعيل ـ عليه السلام ـ وضعه على لفظه ومنطقه) ، الصاحبي (٣٤) .

٤ الفهرست (ص ١٣) ، (الكلام على القلم العربي) .

٥ حكمة الاشراق ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٣/٩) .

مكة فتعلم منه جماعة من أهلها ، فلهذا أكثر الكتّاب من قريش[1] .

٨) أول من وضع الخط العربي (أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت) ، وهم قوم من الجيلة الأخيرة ، وقيل : إنهم بنو المحصن بن جندل ابن يصعب بن مدين ، وكانوا نزولاً مع عدنان بن أد ، فكان (أبجد) ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل ببلاد مضر ، فوضعوا الكتاب على أسمائهم ، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم ، وهي الثاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين فسموها الروادف[2] .

٩) أول من وضع الخط العربي وألف حروفه ستة أشخاص من طسم ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت أسماؤهم : أبجد هُوز حطي كلمن سعفص قرشت ، فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في أسمائهم ألحقوها بها ، وسموها الروادف ، وهي ثخذ ضظغ[3] .

١٠) أول من خط هو : مرامر بن مرة من أهل الأنبار ، وقيل إنه من بني مرة . ومن الأنبار انتشرت الكتابة في الناس . ذكروا أن قريشاً سُئِلوا : من أين لكم الكتابة ؟ فقالوا : من الأنبار[4] .

(١١) تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار وخرج الى مكة وتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) . وتعلم منه حرب ، ومنه ابنه سفيان ، ومنه ابن أخيه معاوية بن أبي سفيان ، ثم انتشر في قريش ، وهو الخط الكوفي الذي استنبطت منه الأقلام[5] .

---

١ الفهرست (ص ٦) منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم (ص ٩٨) ، المزهر (٢/٣٤٦) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، صبح الاعشى (١/٤٢١) الجهشيارى ، الوزراء (١) ، تاج العروس (٣/٩٠) ، (جدد) .

٢ المزهر (٢/٣٤٨) ، الفهرست (ص ١٢) ، (الكلام على القلم العربي) ، العقد الفريد (٤/٢٤٢) ، نزهة الجليس (٢/٦٣) .

٣ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤) ، صبح الاعشى (٣/٩) ، نزهة الجليس (٢/٦٣ وما بعدها) ، الفهرست (١٢) ، الكلام على القلم العربي .

٤ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٥) ، ابن خلكان ، (١/٣٤٦) ، عيون الاخبار (١/٤٣) (الكتب والكتابة) .

٥ نوادر المخطوطات ، المجموعة الخامسة ، حكمة الاشراق (ص ٦٤ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٣/١٠) ، الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب (٢ وما بعدها) .

١٢) كان الكتاب العربي قليلاً في الأوس والخزرج ، وكان يهودي من يهود ماسكة قد علّمها ، فكان يعلمها الصبيان ، فجاء الاسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد ابن ثابت ، يكتب الكتابين جميعاً العربية والعبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسيد ابن حضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عبس بن كشيم ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد[١] .

١٣) أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان ، وبولان قبيلة من طيء ، نزلوا مدينة الأنبار ، وهم مرامر بن مُرّة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية . فأما مرامر ، فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ، ثم نقل هذا العلم الى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه[٢] .

١٤) أول من كتب الكتاب العربي ، رجل من بني النضر بن كنانة ، فكتبته العرب حينئذ[٣] .

١٥) رأى نفر من العلماء ان أهل مكة انما تعلموا الكتابة من إياد أهل العراق وكانوا يكتبون ، ورووا في ذلك شعراً زعموا ان (أمية بن أبي الصلت) قائله ، منه :

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم[٤]

١٦) أول من وضع حروف ا ب ت ث نفر من أهل الأنبار من إياد القديمة ، وعنهم اخذت العرب[٥] .

---

١ صبح الاعشى (٣/١١) .
٢ صبح الاعشى (٣/٨) ، العقد الفريد (٤/٢٤٢) .
٣ صبح الاعشى (٣/٩) ، (رجل من بني مخلد بن النضر بن كنانة) ، الفهرست (١٣) .
٤ بلوغ الارب (٣/٣٦٩) ، الروض الانف (١/٤٣) .
٥ الفهرست (ص ١٣) .

١٧) الذي حمل الكتابة الى قريش بمكة ، أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وقيل حرب بن أمية[١] .

١٨) من حمير تعلمت مضر الكتابة العربية[٢] .

١٩) أصل الخط العربي من الأنبار ، وانما سكن الأنبار والحيرة بقايا العرب العاربة وكثير من المستعربة فنقلوا ذلك[٣] .

٢٠) وضع الكتاب العربي عبد ضخم وبيض ولد أميم بالحجاز ، ولهم يقول حاجز الأزدي :

عبد بن ضخم إذا نسبتهم وبيض أهل العلو في النسب
ابتدعوا منطقاً لخطّهم فبين الخط لهجة العرب[٤]

٢١) أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها ، آدم – عليه السلام – قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه ، فأصاب إسماعيل – عليه السلام – الكتاب العربي[٥] .

٢٢) أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة ، رجل من أهل الأنبار . ومن الأنبار انتشرت في الناس .

٢٣) تعلمت قريش الكتابة من الحيرة، وتعلم أهل الحيرة الكتابة من الأنبار[٦] .

وذكر بعض علماء العربية أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً[٧] .

وهذه هي آراء علماء العربية في أصل الخط عند العرب ، وفي كيفية منشئه وظهوره .

---

١ الفهرست (ص ١٣) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ الاكليل (١/٧٨ فما بعدها) .
٤ الاكليل (٦/٧٨) .
٥ الصاحبي (٣٤) ، ، المزهر (٢/٣٤١) .
٦ ابن رستة ، الاعلاق (١٩٢) .
٧ الصاحبي (٣٥) .

وقد ذكر (ابن النديم) مختلف الروايات التي كانت شائعة في أيامه عن القلم العربي . وذكر منابعها أحياناً وأهمل ذكرها أحياناً أخرى . وفي جملة من أشار اليهم (ابن عباس) ، فنسب اليه قوله إن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان على نحو ما ذكرت قبل قليل[1] . و (محمد بن إسحق) و (ابن الكلبي) ، و (ابن الكوفي) ، و (كعب الأحبار) و (مكحول) و (عمر بن شبة) في كتاب مكـــة ، و (ابن أبـي سعد)[2] . وذكر أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم . فيه حق عبد المطلب على رجل من حمير ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة . وكان خطّه شبه خط النساء . وذكر أن من كتاب العرب أسيد بن أبـي العيص . وأن الناس عثروا على حجر كان على قبره كتب عليه اسمه[3] .

ولدينا رأي آخر يقول : « كانت الكتّاب في العرب من أهـــل الطائف ، تعلموها من رجل من أهل الحيرة ، وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار »[4] . وهو رأي نبع من المنابع المتقدمة .

وقد جزم قوم من العلماء ان أول من كتب بالعربية (مُرامـر بن مرّ) ، (مُرامر بن مُرّة) ، وذهب قوم ان أول من كتب بخطنا (عامر بن جدرة) ، وتوقف قوم هل هو خلاف أو يمكن التوفيق. وذهب آخرون إلى ان أول من كتب بالخط العربي عامر بن جدرة ومرامر بن مرة الطائيان ، ثم (سعد بن سبل)[5] . وقال (شرقي بن القطامي) ان أول من وضع خطنا هذا رجـال من طيء منهم مرامر بن مرة . قال الشاعر :

تعلمت باجاد وآل مرامر وسودت أثوابـي ولست بكاتب

وانما قال وآل مرامر ، لأنه كان قد سمى كل واحد من أولاده بكلمة من أبجد ، وهي ثمانية . وأول من كتب بالعربية مرامر بن مرة من أهل الأنبار ،

---

١ الفهرست (ص ١٢) .
٢ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣ وما بعدها) .
٤ اللسان (١٢/٣٤) ، (أمم) .
٥ تاج العروس (٣/٩٠) ، (جدر) ، حكمة الاشراف (٦٥) ، ابن خلكان ، وفيات (١/٣٤٦) .

ويقال من أهل الحيرة . ويقال انه سئل المهاجرون من أين تعلمتم الخط؟ فقالوا: من الحيرة . وسئل أهل الحيرة من أين تعلمتم الخط ؟ فقالوا : من الأنبار[1] .

والذين يذكرون ان (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر بن عبد الملك) الكندي صاحب (دومة الجندل) ، الذي تعلم الكتابة من أهل الأنبار ، وخرج الى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب بن أمية) أخت (أبي سفيان) ، وعلّم جماعة من أهل مكة الكتابة ، فلذلك كثر من يكتب بمكة من قريش ، يروون شعراً لرجل من أهل دومة الجندل ، زعموا انه قاله إظهاراً لمنة قومه على قريش ، هو :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمو فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا
واتقنتمو ما كان بالمال مهملاً وطامنتمو ما كان منه منفرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة وضاهيتمو كتّاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمو عن مسند الحيّ حمير وما زبرت في الصحف أقيال حميرا[2]

فبشر بن عبد الملك ، هو الذي نقل (الجزم) الى (مكة) . والجزم هو الخط الذي دوّن به القرآن . أي القلم الذي نكتب به اليوم . فأغنى به أهل مكة عن الكتابة بقلم المسند قلم حمير الثقيل ، وصاروا يكتبون بالقلم وبالحبر ، على طريقة الفرس والروم يدوّنون به أمواهم . ويظهر من ذلك أن القلم المسند ، كان ثقيلاً في الكتابة ، ولهذا وجد أهل مكة صعوبة في تدوين أمورهم به ، فعدلوا عنه الى القلم الجزم .

ولو صح هذا الشعر ، فإن البيت الأخير منه يدل على أن أقيال حمير وغيرهم كانوا يكتبون بخطهم : المسند على الصحف ، وأنه قد كانت عندهم كتابات دوّنوها به بالحبر والقلم على الصحف والأدم ومواد الكتابة الأخرى ، ولم يكونوا يكتفون بالكتابة به على الأحجار فقط ، لأننا نجد أن كتاباتهم الواصلة الينا إنما

---

١ تاج العروس (٣/٥٤٠) ، (مرر) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٢ المزهر (٢/٣٤٧) .

قد كتبت بهذه الطريقة حسب . وسبب عدم وصول هذه الصحف الينـا ، أنها من مادة سريعـة العطب ، لذلك لم تتمكن من المحافظة على حياتها فذهبت مع أهلها ، وقد يعثر على شيء منها مدفون تحت الأرض بصورة يمكن أن يستفـاد منها كما استفيد من المسند المنقوش على الحجر .

وورد ان رجلاً قال لابن عباس : « معاشرَ قريش ، من أين أخذتم هذا الكتاب العربي قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام ؟ قال : أخذناه من حرب بن أمية . قال : فمن أخذه حرب ؟ قال : من عبدالله بن جدعان ، قال : فمن أخذه ابن جدعان ؟ قال : من أهل الأنبار ، قال : فمن أخذه أهل الأنبار ؟ قال: من أهل الحيرة ، قال : فمن أخذه أهل الحيرة ؟ قال : من طارىء طرأ عليهم من اليمن من كندة . قال : فمن أخذه ذلك الطارىء ؟ قال : من الخفلجان بن الوهم كاتب الوحي لهود عليه السلام »[1] .

وذكر بعض العلماء ان أول من وضع الخط العربي وألّف حروفـه وأقسامه ستة اشخاص من طسمٍ ، كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد ، وكانت اسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، فوضعوا الكتابـة والخط على اسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في اسمائهـم ألحقوها بها ، وسمّوها الرّوادف ، وهي : ثخذ ضظغ[2] .

وذكر بعض اهل الأخبار ان (كلمن) كان رئيس ملوك مدين الذين وضعوا الكتابة العربية على عدد حروف اسمائهم ، وقد هلكوا يوم الظلة ،فقالت ابنة كلمن ترثي اباها :

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحلة
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت نار عليهم دارهم كالمضمحله[3]

---

١ المزهر (٢/٣٤٩) .
٢ حكمة الاشراق (٦٤) ، (ستة أشخاص من طفيم) ، نزهة الجليس (٢/٦٣) .
٣ نزهة الجليس (٢/٦٣) ، المزهر (٢/٣٤٨) .
كلمون هد ركني هلكه وسط المحله

ويوم الظلة غيم تحته سموم ، او سحابة أظلتهم ، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالتهم من الحر ، فأطبقت عليهم[1] . وقد أشير الى عذاب يوم الظلة في القرآن الكريم[2] . وذكر أن هذا العذاب أصاب قوم (شعيب) لتكذيبهم رسالته ، فرفع الله غمامة فخرجوا اليها ليستظلوا بها فأصابهم بها عذاب عظيم . التهبت عليهم وأحرقتهم[3] . ولما كان أبجد هوز ملوك مدين ، وأهل مدين هم قوم شعيب ، ربط أهل الأخبار مصيرهم بمصير قوم شعيب ، وجعلوا نهايتهم يوم الظلة . فالكتابة على رأي هؤلاء تعود الى هؤلاء الملوك ، الذين هلكوا بذلك اليوم .

ورويت الأبيات على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني هُلكهُ وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ ـحتف تحت ظله
كونت ناراً ، وأضحت دار قومي مضمحله[4]

ووردت على هذه الصورة :

كلمن هدّم ركني هلكه وسط المحله[5]
سيد القوم أتاه الحتف ناراً وسط ظله
جعلت ناراً عليهم دارهم كالمضمحله[6]

وقد تعرض (المسعودي) لموضوع الحروف ، فقال : « وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا في ممالك متصلة ومنفصلة ، فمنهم المسمى بأبي جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل ، وأحرف

---

١ تاج العروس (٤٢٧/٧) ، (ضلل) .
٢ الشعراء ، ٢٦ ، الاية ١٨٩ .
٣ تفسير الطبري (٦٦/١٩ وما بعدها) .
٤ اليعقوبي ، مروج (١٢٩/٢) ، (دار الاندلس) ،
كلمون هد ركني هلكه وسط المحله
المزهر (٣٤٨/٢) ،
٥ « ابن امي هد ركني » ، تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .
٦ تاج العروس (٢٩٤/٢) ، (بجد) .

الجمل على أسماء هؤلاء الملوك ، وهي التسعة والعشرون حرفاً التي يدور عليها حساب الجمل » . « وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ، وكان هوز وحطي ملكين ببلاد وج ، وهي أرض الطائف ، وما اتصل بذلك من أرض نجد ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكاً بمدين ، وقيل : ببلاد مصر ، وكان كلمن على ملك مدين ، ومن الناس من رأى أنه كان ملكاً على جميع من سمينا مشاعاً متصلاً على ما ذكرنا ، وأن عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم»[1].

وأورد (المسعودي) أبياتاً زعم أن (المنتصر بن المنذر المديني) قالها في هؤلاء الملوك ، هي :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة أتيت بها عمراً وحيّ بني عمرو
هُمُ ملكوا أرض الحجاز بأوجهٍ كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
ملوك بني حُطّي وسعفص ذي الندى وهوّز أرباب البنيّة والحجر
وهم قطنوا البيت الحرام ورتبوا خطوراً وساموا في المكارم والفخر[2] .

وقد وردت في (تاج العروس) على هذا النحو ، وقد نسب قولها الى رجل من اهل مدين ، ذكر انه قالها يرثيهم :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة سبقت بها عمراً وحيّ بني عمرو
ملوك بني حطّي وهوّز منهم وسعفص اهل في المكارم والفخر
هم صبحوا اهل الحجاز بغارة كمثل شعاع الشمس او مطلع الفجر[3]

وروي ان (عمر بن الخطاب) لقي أعرابياً فسأله هل تحسن القراءة؟ فقال : نعم . قال : فاقرأ أم القرآن ؟ فقال الأعرابي والله ما أحسن البنات فكيف الأم ! فضربه عمر بالدرة وأسلمه الى الكتاب ليتعلم . فمكث حيناً ثم هرب ، ولما رجع لأهله أنشدهم :

---

١ مروج ، للمسعودي (٢/١٢٨) ، (دار الاندلس) .
٢ المسعودي ، مروج (٢/١٢٩) ، (دار الاندلس) ، حفني بك ناصف (٤٧) ، (أورد الابيات مع بعض الاختلاف) ، المزهر (٢/٣٤٨) .
٣ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .

أتيت مهاجرين فعلمونـــي ثلاثة أسطر متتابعـــات
كتاب الله في رقٍ صحيح وآيات القرآن مفصلات
فخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلم سعفصاً وقريشات
وما أنا والكتابة والتهجي وما حظ البنين مع البنات[1]

ويرجع أهل الأخبار (الروادف) ، أي الحروف : الثاء ، والخاء ، والذال ، والضاد ، والظاء ، والغين الى أيام الملوك المذكورين في بعض الروايات . وهي حروف لم ترد في تركيب الأبجديات السامية القديمة ، لأنها غير واردة في أكثر لهجاتها ، لذلك وضعها أهل الأخبار في آخر الأبجدية ، فأكملوا بذلك الأبجديـــة العربية . وقد ألحقها الكتاب بها بعد أن تبين لهم بالطبع أن في العربية حروفاً غير موجودة في الأبجدية المذكورة ، فأوجدوها بوضع علامات على الحروف المذكورة التي لم تكن معلمة ، فعبرت عن أسماء الحروف الناقصة واستعملوها في الكتابـــة دون أن يعملوا على إيجاد حروف جديدة للتعبير عن الحروف الناقصة .

ولعلماء العربية مثل (سيبويه) والمبرد والسيرافي وغيرهم آراء في الأسماء المذكورة يفهم منها ان منهم من جعل بعض تلك الأسماء مثل (أبا جاد) و (هواز) و (حطيا) أسماءً عربية ، وبعضاً منها مثل : سعفص وكلمن وقرشنات أعجميات. ومنهم من جعلها أعجميات[2] . ويظهر من مراجعة آرائهم هذه انهم كانوا قـــد عرفوا ترتيب حروف الأبجدية على النحو المتقدم ، فلما قرأوها على انها كلمات ، كما كان يفعل (بني إرم) وغيرهم في تعليمهم الكتابة والقراءة للمبتدئـــين تولد عندهم هذا القصص ، الذي قد يكون مصدره قصص قديم . ثم تولد لديهـــم قصص كونهم ملوكاً من مدين ، أو رجالاً من أهل الأنبار الى آخر ما رأيناه من قصص عن منشأ الحروف ، ليجدوا بذلك مخرجاً في تعليل تلك التسميات .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أول من أتى أهل مكة بكتابة العربيـة (سفيان ابن أمية بن عبد شمس) ، ثم انتشرت[3] .

---

١ تاج العروس (٢/٢٩٤) ، (بجد) .
٢ نزهة الجليس (٢/٦٤) ، المزهر (٢/٣٤٧) .
٣ نزهة الجليس (٢/٦٤) .

وترجع أسانيد الروايات المذكورة الى (عبدالله بن عباس) ، و (كعب الأحبار) ، و(الشعبي) و (أبي ذر) ، و (عوانة)، و (ابن الكلبي)، و (الشرقي بن القطامي) ، و (الأصمعي) و (الهيثم بن عدي)[1] .

ويظهر من هذه الروايات ومن روايات أخرى أن رأي علماء العربية أن الخط العربي لم يكن أصيلاً في الحجاز ، وإنما دخله من اليمن ، أو من العراق أو أرض مدين . وأن أهل مكة إنما تعلموه من الأماكن المذكورة ، في وقت غير بعيد عن الاسلام ، لا يمكن أن يرتقى عنه بأكثر من قرن ، إن لم يكن أقل من ذلك ، وفقاً لرواياتهم هذه . وأن أقدم من كتب به هم أهل مكة . ولذلك قدم أهل الأخبار خط أهل مكة على سائر الخطوط التي عرفت في الإسلام . وجعلوه أول الخطوط العربية وبعده المدني ، أي خط أهل المدينة[2] .

أما أن أصله من اليمن فدعوى لا يمكن الأخذ بها ، لأن أهل اليمن كانوا يكتبون بالمسند ، والمسند بعيد عن هذا القلم الذي يسميه أهل الأخبار : القلم العربي أو الكتاب العربي أو الخط العربي بعداً كبيراً . وقد بقوا يكتبون بقلمهم هذا زمناً في صدر الإسلام . ثم ان الروايات التي ترجع علم مكة بالخط الى اليمن، هي آحاد بالنسبة الى الروايات الأخرى التي تنسب أخذ الخط من العراق .

وأما دعوى مجيئه من مدين ، أي من أعالي الحجاز الى مكة ، فدعوى أراها غير مستبعدة . لأن أهل هذه المنطقة كانوا قبل الميلاد وبعده من النبط . والنبط هم عرب . وقد سبق ان تحدثت عنهم . وكانوا يكتبون بخط أخذ من قلم (بني إرم) ، حروفه منفصلة ومتصلة . وترتيب أبجديته هو ترتيب (بني إرم) أي (أبجد هوز) . وقد طوّروه بعض التطوير ، فصار الكاتب يكتب به بالحبر بسرعة ، وهو سريع وسهل أيضاً عند حفره على الحجر أو المعدن أو الخشب ، ويناسب التاجر والكاتب ورجل الفكر . وقد وصلتنا كتابات كثيرة كتبت به . وفي ضمنها الكتابات الخمسة التي اعتبرها العلماء النموذج الأول والأقدم للكتابات المدونة بلغة قوم كانوا يتكلمون بالعربية ، غير ان عربيتهم كانت متأثرة بالنبطية عند الكتابة . أو انهم كانوا يكتبون بالنبطية ، غير ان نبطيتهم لم تكن صافية

---

١ المزهر (٢/٣٤١) ، (النوع الثاني والاربعون : معرفة كتابة اللغة) .
٢ الفهرست (١٤) ، (الكلام على القلم الحميري) .

نقية ، بل كانت متأثرة بلغتهم اليومية العربية . وفي ضمنها كتابة (النمارة) التي يعود عهدها الى سنة (٣٢٨) للميلاد ، وكتابة (حرّان اللجا) التي هي أقرب هذه الكتابات الى عربيتنا . ونظراً الى ما نجده من تشابه في رسم الحروف بين أقدم الكتابات العربية وبين الخط النبطي ، وفي قواعد الإملاء وترتيب الأبجدية ، فلا يستبعد أن يكون أهل مكة قد أخذوا هذا الخط فكتبوا به . باحتكاكهم بأهل أعالي الحجاز وبلاد الشأم حيث كانوا يتاجرون معهم ، أو بمجيء النبط اليهم للإتجار تعلمه أهل مكة منهم .

وذهب الدكتور (خليل يحيى نامي)،الى أن أصل الكتابة العربية من الحجاز، لما كان للحجاز من مكانة روحية عند العرب ولاشتغالهم بالتجارة . والمكانة الروحية والتجارة تستدعيان القراءة والكتابة أخذوها من التجار النبط الذين كانوا يتوافدون عليهم للاتجار أو من اختلاطهم بالنبط أثناء ذهابهم الى بلاد الشأم . فهو يرى أن الخط النبطي هو والد الخط العربي ، ودليله أن ترتيب الحروف على طريقة أبجد هوز ، وترتيبها من حيث حساب الجمل ، أي جعل كل حرف من حروف أبجد هوز في مقابل رقم حسابي ، يردان في عربيتنا على نحو ما ورد عند النبط. مما يدل على أن الخط العربي أخذ من ذلك الخط ، أضف الى ذلك تشابه رسم الحروف المنفصلة والمتصلة في القلمين[1] .

وأما موضوع أخذ أهل مكة خطهم المذكور من العراق ، فرأي لا أستبعده أيضاً ، فقد كان عرب العراق يكتبون،ولهم مدارس لتعليم الكتابة ملحقة بالكنائس والأديرة ، وقد كان بين أهل مكة وبين عرب العراق ولا سيما الأنبار والحيرة اتصال تجاري وثيق ، وكان تجار مكة يأتون بتجارتهم الى الحيرة ويقيمون بها ، فلا يستبعد تعلمهم أو تعلم بعضهم الخط من أهل الحيرة ومن أهل الأنبار . كما كان للتبشير يد في نقل هذا الخط الى الحجاز وربما إلى مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد كان هؤلاء المبشرون يكتبون بقلم نبطي أو بقلم إرمي متأخر ، وهو والد القلم العربي الذي نكتب به . وقد كان المبشرون من أهل العراق نشطون في التبشير في جزيرة العرب ، فلا يستبعد أن يكون من بينهم مبشرون حيريون

---

١ خليل يحيى نامي ، مجلة كلية الاداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٥ م ، مجلد ٣ ، جزء ١ (ص ١٠٢ وما بعدها) .

نقلوا الكتابة الى (دومة الجندل) والحجاز ومواضع أخرى من جزيرة العرب .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان كتبة الوحي ، إنما كتبوا بخط أُخذ من (الجزم) ، أي من خط أهل الحيرة . وذلك بحكم اتصال أهل مكـة بالحيرة ، اتصالاً تجارياً ، فتعلموه منهم[1] . فهم يوافقون بذلك بعض الروايات العربية التي ترجع علم أهل مكة بالكتابة الى الحيرة .

وقد بقي أهل الحيرة يكتبون للولاة ، ويقرأون عليهم ما يرد اليهم من رسائل أهل العراق وبلاد الشأم،وذلك لحسن خطهم واتقانهم الكتابة . فكان لأبي موسى الأشعري كاتب ، ولما سأله (عمر) عن سبب اتخاذه كاتباً من النصارى أجابه : (له دينه ولي كتابته) . ولما أراد (عمر) اختيار كاتب حاذق حافظ ذكر له غلام نصراني من أهل الحيرة[2] .

ومما يلفت النظر ويسترعي الانتباه ، هو أن المنطقـة التي يذكر أهل الأخبار أنها كانت الأرض التي نبت بها الخط العربي ، وهي الأنبار والحيرة ، لم تعط الباحثين حتى الآن أي نص مكتوب . كما أن مكة المدينة الآخذة للخط لم تعطنا أيضاً أي نص جاهلي مكتوب . مع أن نصوص هذه الأرضين تهمنا بصورة خاصة، لما لهـا من علاقة بالخط العربي الذي نتكلم عنه ، وباللغة التي نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر الجاهلي ، وبالأدب الجاهلي . فلِمَ لم تصل نصوص الينا من العراق ولا من مكة مع أن أهل مكة كانوا يكتبون عنـد ظهور الإسلام ، وكذلك أهل الحيرة كانوا يكتبون ، ولهم دواوين في أخبارهم ، رجع اليهـا ابن الكلبي ، كما نص على ذلك . هل سبب عدم وصولها ، أن الذين كتبوا بهذا القلم إنما كتبوا على مواد سريعة التلف وبالحبر ، ولـذلك ، تلفت ، ولم تتمكن من العيش طويلاً . كما تلفت مخطوطات أهم منها شأناً مثل النسخ الأولى للقرآن الكريم،والنسخ الأصلية من رسائل وكتب الرسول الى الملوك والأمراء والى أصحابه. وكذلك خطوط الخلفاء الراشدين وسجلات دواوينهم وما شاكل ذلك من وثائق . قد يكون ما ذكرته هو السبب في عدم وصول نص من هـذه الأرضين الينا ، وقد تكون هنالك أسباب أخرى . على كل ، علينا ألاّ نيأس من المستقبل، فلعل

---

١ Die Araber, II, S. 357.

٢ عيون الاخبار (١/٤٣) .

الباحثين سينقبون في باطن الأرض وينبشون الأماكن الأثرية فيجدون أشياء ، هي تحت قشرة الأرض في الوقت الحاضر . فيكون من يأتي بعدنا سعداء بالطبع لوقوفهم على أشياء حرمنـــا من رؤيتها نحن فصرنا في جهل من أمرها ، وصاروا هم في نعيم من العلم .

وقد ذهب (جرجي زيدان) الى أن المضريين الذين تحضروا وأقاموا في العراق وفي بلاد الشأم ، اقتبسوا الكتابة من جيرانهم ، فكتب منهم من كتب بالعبرانية وكتب منهم من كتب بالسريانية ، ولكن القلمين النبطي والسرياني ظلا عنـدهم الى ما بعد الفتوح الإسلامية ، فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الإسلام الحيري نسبة الى الحيرة ، وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها .

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني، في جملتها قلم يسمونه (السطرنجيلي) كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس ، فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الاسلام، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم وعنه تخلف الخط الكوفي . وهما متشابهان الى الآن[1] .

ثم تعرض الى ناقل الخط الى مكة ، فقال : « واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه ، وذلك أن رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هـذا الخط من الأنبـار وخرج الى مكة فتزوج الصهبـاء بنت حرب بن أمية أخت أبـي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة ، فكثر من يكتب بمكة من قريش عنـد ظهور الإسلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط الى العرب سفيان بن أمية[2] .

ولما أراد ابداء رأيه في أصل الخط العربي جمع بين الرأيين : الرأي القائل أن أصل الخط العربي من العراق ، والرأي القائل أن أصله من حوران ، فقال: « والخلاصة على أي حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثنـاء

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٨) ، (الخط العربي) .
٢ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٨) ، السجستاني ، المصاحف (٤) .

تجاراتهم الى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً: الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية ، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي — فضلاً عن شكله — أن الألف اذا جاءت حرف مدّ في وسط الكلمة تحذف، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية، وكان ذلك شائعاً في الإسلام ، وخصوصاً في القرآن، فيكتبون (الكتب) بدل (الكتاب) ، و (الظلمين) بدل (الظالمين)[1] .

والقلم الكوفي هو من أقدم الأقلام العربية الإسلامية . وهو كما ذكرت قبل صفحات ، قريب الشبه بالقلم السطرنجيلي ، قلم المصاحف عند نصارى العراق ، ومن أجلّ أقلامهم لاستخدامه في كتابة الكتابات الدينية ، ومنها الأناجيل . وقد أخذ من القلم الحيري على ما يظهر ، لأن أهل الحيرة كانوا يكتبون (الجزم)، والجزم وليد السطرنجيلي ، ذلك لأن الكوفة نشأت في خلافة (عمر) ، فانتقل اليها في جملة من انتقل اليها أهل الحيرة ، الكتاب بالقلم الجزم . ولهذا صار قلم الكوفة ثقيلاً في الكتابة ذا زوايا مربعة وحروفاً مستقيمة ، والكتابة تميل الى التربيع[2] . وقد أخذ من (الجزم)[3] ، ونسب الى الكوفة لظهوره لأول مرة بها في الإسلام .

ولا يستبعد أيضاً أخذ أهل مكة خطهم المدور المسمى (النسخ) من (حوران) أو من (البتراء) و (العلا) فبين مكة والمكانين المذكورين اللذين سكن بهما النبط اتصال وثيق . أو من الحيرة او الأنبار . فالخط المدور هو قلم النبط المتأخر ، وقلم كتبة العراق أيضاً ، وهو والد القلم (النسخ) . ومن الخطأ اعتبار (النسخ) وليد الخط الكوفي[4] . لأن الخط الكوفي هو الجزم أو قلم آخر مثله اشتق من القلم المربع الزوايا (السطرنجيلي) ، بينما النسخ وليد القلم المدور الذي أستطيع تسميته

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٥٩) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٥) .
٣ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٩٥٢ م ، (ص ٤٢١) .
٤ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ١٥) .

بالمشق مجاراة للبطليوسي ، الذي شخصه بأنه قلم أهل الأنبار .

ويرى بعض الباحثين أن القلم العربي قد أخذ من قلم بني إرم . وذلك أن السريان الذين هم من (بني إرم) كانوا قد طوروا القلم الإرمي ، وكتبوا بقلمين : قلم قديم كتبت به الأناجيل والكتب المقدسة ، وهو المربع،ذو الحروف المستقيمة ذات الزوايا المربعة ، الذي هو الخط (الاسطرنجيلي) ، وقلم سهل ذو حروف مستديرة أي على شكل أقواس ، هو قلم النسخ . وقد عرف العرب القلمين وكتبوا بهما ، فسموا السهل النسخ والآخر الكوفي[1] .

وحجتهم في ذلك ان القلم العربي أخذ بترتيب (أبجد هوز حطي) ، وهو ترتيب وجد في لغة (بني إرم) ، كما أخذ بهذا الترتيب بحساب الجمل . وهو ترتيب موجود عند بني إرم أيضاً . كما أخذ بقواعد من قواعد رسم الحروف في الإملاء موجودة في خط (بني إرم) ، مثل قاعدة ربط أو فصل الحروف عند تدوين الكلمة ، وقاعدة حذف الألف عند وقوعه في وسط الكلمة ، في رحمان ومساكين ويتامى ومساجد وكتاب وابراهيم واسحاق واسماعيل ، فإنها كتبت في خط المصاحف بدون ألف . ومثل حذف ألف فاعل وتفاعل في السريانية وفي العربية أيضاً ، كما في بارك حيث كتبت (برك) في خط المصاحف ، ومثل حذف الألف من ضمير الجمع المتكلم (نا) ، كما في (أرسلنك) و (اصطفينه) و (بشرنه) ، في موضع (ارسلناك) و (اصطفيناه) و (بشرناه) ، وذلك في خط المصاحف ، وحذف ألف جمع المؤنث السالم في السريانية وفي العربية ، كما (صدقت) و (طيبت) ، بدلاً من صدقات وطيبات . ومن هذا القبيل أيضاً ، تدوين (شهد) و (كفرين) ، بدلاً من شاهد وكافرين . ومثل حذف ياء المتكلم في السريانية وفي القلم العربي القديم ، كما في كتابة يرب في موضع يا ربي[2] .

ورأيي ان القول الجزم في أصل قلم أهل مكة ، هل هو من العراق أو من بلاد الشأم ، يجب أن يكون للكتابات . فمتى عثرنا على كتابات مدونة بالعربية

---

١ الدراسات الادبية ، العدد الاول ، السنة الثانية ، ١٩٦٠ م (ص ٧٦ وما بعدها) ، (مقال للدكتور أنيس فريحة) .

٢ الدراسات الادبية ، السنة الثانية ، العدد الاول (ص ٧٦ وما بعدها) .

بالحيرة أو بالأنبار أو بالأماكن الأخرى من العراق تعود الى الجاهلية والى صدر الاسلام وعلى كتابات مثلها من حيث الزمن يعثر عليها في بلاد الشأم وفي الحجاز أو نجد أو أي مكان آخر من جزيرة العرب ، وقارناها بعضها ببعض ، وطابقنا فيما بين خطوطها ورسم حروفها وما شاكل ذلك ، جاز لنا حينئذ القول بأصل قلم مكة والأقلام الأخرى المشابهة له . وبأصل اللغة التي دونت به،ومزاياها والأماكن التي كانت تتكلم بها . وعندئذ نحل مشكلة أصل اللغة العربية الفصحى أيضاً ، وهي من أهم مشكلات تأريخ الأدب الجاهلي ولا شك .

وأما جمهرة المستشرقين المعاصرين الذين عنوا بدراسة تطور الخطوط السامية ، ومنشأ الخطوط العربية ، فقد رأوا ان الخط العربي الذي دوّن به القرآن أخذ من الخط النبطي المتأخر الذي كان يستعمله النبط ، وهو خط تولد من القلم الإرمي المتفرع من الفينيقية على رأي المستشرق (هومل)[1] . وقد استعمل في تيماء وبين النبط الذين كانوا يقيمون في أعالي الحجاز وفي سينا[2] . وقد عثر على كتابات دونت به في مواضع مختلفة من الحجاز واليمن .

وسند القائلين بهذا الرأي ودليلهم هو عدد من الكتابات عثر عليها السياح ، كتبت بلهجة غير بعيدة عن اللهجة العربية التي نزل بها القرآن، وبحروف مرتبطة، وبالقلم النبطي المتأخر الشبيه جداً بأقدم الخطوط العربية ولا سيما الكوفية منها . ومن مميزاته ارتباط بعض حروفه ببعض وكتابة بعض الحروف في نهاية الكلمة بشكل يختلف عن رسم الحروف التي من نوعها المستعملة في أوائل الكلمة أو أواسطها .

ولهذه الكتابات على قلة عددها أهمية كبيرة لدى العلماء ، لما لها من خصائص ومميزات لغوية تفيد في دراسة تطور اللهجات العربية ، وفي دراسة تطور القلم العربي . وقد تكون مقدمة لعدد آخر من الكتابات المكتوبة بهذا الخط .

---

١ Ency. Brita., I, p. 684, Grundriss, I, S. 154.
ناصر النقشبندي ، منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين ، مجلة سومر ، كانون الثاني ١٩٤٧ م ، (١٢٩ وما بعدها) ، خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، المجلد الاول ، الجزء الاول ، مايو ١٩٣٥ م .

٢ Ency. Brita., I, p. 684.

وأقدم هذه الكتابات الكتابة التي يقال لها كتابة (أم الجمال) الأولى ويعود تأريخها الى سنة (٢٥٠) أو (٢٧٠) للميلاد . وقد وضعت شاهداً على قبر (فهر برسلي) (فهر بن سلي) مربي (جديمت) (جدمت) (جديمة) جذيمة ملك (تنوح) (تنوخ) ، وعثر عليها في موضع يقال له (أم الجمال) ، في جنوب حوران من أعمال شرق الأردن[1] . ويعتقد (ليمان) ، أن تأريخ هذا النقش لا يبعد كثيراً عن تأريخ كتابة أخرى هي كتابة النمارة (ن م ر ت) . ونجد في هذه الكتابة حروفاً غير مرتبطة وحروفاً مرتبطة مشابهة لبعض حروف الخط الكوفي . وقد كتبت بالإرمية ، ومع ذلك فإن لها أهمية لوجود أسماء عربية فيها ، ولأن القبائل العربية الشمالية كانت تستعمل الإرمية في الكتابة[2] .

وقد عثر الباحثون على كتابات معدودة سبقت هذه الكتابة ، دُوّنت بالقلم النبطي أيضاً ، هي كتابة عثر عليها في (وادي المكتب) في طور سيناء ، يعود تأريخها الى سنة (١٠٦) من سقوط (سلع) ، المقابلة لسنة (٢١٠) للميلاد، وكتابة ثانية يعود تأريخها الى سنة (١٢٦) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٣٠) للميلاد . وقد وجدت في وادي فران بطور سيناء كذلك ، وكتابة ثالثة هي من كتابات (طور سيناء) أيضاً ، وقد أرخت بسنة (١٤٨) من سقوط (سلع) أي سنة (٢٥٣) للميلاد ، وكتابة رابعة عثر عليها في الحجر ، وتأريخها سنة (١٦٢) من سقوط (سلع) ، أي سنة (٢٦٧) للميلاد .

ولكن هذه الكتابات بعيدة بعض البعد عن القلم العربي ، وأما لغتها فنبطية ، ونجد نص (الحجر) (مدائن صالح) ، وقد حوى كلمات كتبت بقلم ثمودي . ولذلك فإن له ميزة من هذه الناحية على الكتابات الأخرى ، ومنطقة الحجر من

---

١ السامية (١٣٩) ، (سنة ٢٧٠) ، خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، مايو ١٩٣٥ ،
De Vogue, Syrie Centrale, Inscriptions Sémitique, PL. 15, 11.

٢ السامية (١٤٠) ، مجلة سومر (م ٣ ، ح ١ ، كانون الثاني ١٩٤٧ ، ص ١٣٠) ، Nabia, 4, Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, Princeton University Expeditions to Syria, in 1904-1905, and 1909, p. 37, Cantinean, Nabatéen et Arabe, pp. 72-79, Institut d'Etudes Orientales, Annales, I, 1934-1935.

المناطق التي عثر فيها على عدد من كتابات قوم ثمود . ونظراً الى أن خط نص (أم الجمال) أقرب الى الخط العربي من الكتابات المذكورة التي سبقته ، لذلك قدمته عليها .

وتلي كتابة أم الجمال الأولى في الزمن كتابة النمارة ، وقد عثر عليها المستشرق الفرنسي (دوسو) M. René Dussaud في النمارة في الحرة الشرقية من جبل الدروز، و (النمارة) قصر صغير كان للروم. وجدها على قبر امرىء القيس الأول ابن عمرو ملك العرب المتوفى في يوم ٧ بكسلول من سنة ٢٢٣ ، المقابلة لسنة ٣٢٨ للميلاد، وقد دونت سنة الوفاة ، وهي سنة تأريخ الكتابة كذلك وفقاً لتقويم (بصرى) وهو التقويم الذي كان يستعمله عرب هذه الأطراف ونبطها . وتعدُّ هذه الكتابة أول كتابة وأقدم كتابة عثر عليها حتى الآن مدونة باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن ، وإن كتبت بالقلم النبطي المتأخر وبأسلوب متأثر بالإرمية [1] .

وعثر على كتابة في خرائب (زبد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية ، يرجع تأريخها الى سنة (٦١٢) للميلاد (٨٢٣) للتقويم السلوقي[2] . والمهم عندنا هو النص العربي ، ولا سيما قلمه العربي . أما من حيث مادته اللغوية ، فإن أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة [3] . وقد قرأ العالم (ليدزبارسكي) الكلمة الأولى منه (بسم) . أما الكلمة الثانية ، فهي (الإلـه) فأصبح مطلع النص : (بسم الإلـه) ، فإذا كانت القراءة هذه صحيحة، تكون لكلمة (بسم الإلـه) أهمية كبيرة في موضوع الفكرة الدينية . أما العالم (ليتمن) فقد قرأ الكلمة الأولى منه (بنصر) ، فتكون فاتحة النص : (بنصر الإلـه)[4] .

---

١ Fritz Hommel ,Grundriss der Geographie und Geschichte des alten Orients, München, 1904, BD., I, S. 155, Dussaud, Les Arabes en Syrie, p. 34, Nabia, p. 4, Revue Archéologique, 31 Série, XLI, (1911), p. 411.

٢ Grundriss, I ,S. 156, E. Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed : Monatsberichte der Preussiche Akademi der Wissenschaften, Berlin, 10 Febr. 1881, S. 169, Zur Trilinguis Zebedaea, in ZDMG., 36, ,1882), S. 345 - 352.

٣ السامية (١٩١) .
Lidzbarsky, Handbuch der Nordsemit. Epigraphik, Weimar, 1898, S. 484, Ephemeris, Giessen, 1902, BD., 2, S. 35.

٤ السامية (١٩١) . A. Littmann, in Rivista degli Studi Orientali, 1911, p. 195.

وقد دوّن النص العربي على هذه الصورة :

١ — ..م الإلـه سرحو بر امت منفو وهنى برمر القيس .

٢ — وسرحو بر سعدو وستّرو وشريحو بتميمى .

ومعناه : بسم الإلـه . سرحو بن أمت منفو ، وهنيء بن امرىء القيس ، وسرحو بن سعدو ، وستّر (ستار) (ساتر) وشريح . أتمّوا .

والنص العربي ، ليس ترجمة للنص السرياني أو اليوناني ، لذلك ذهب بعض الباحثين الى احتمال كونه متأخراً بالنسبة الى النصين المذكورين ، أي انـه كتب بعدهما . وهو يتناول تخليد عمل المذكورين في بناء الكنيسة .

وعثر المستشرقون في حرّان اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز على كتابة أخرى مدونة باليونانية والعربية قيل لها (نقش حرّان) ، وقـد وضعت فوق باب كنيسة ، وصاحبها (شرحيل بر ظلمو) (شراحيل بن ظالم) (شرحيل بن ظالم) ، ويعود تأريخ الكتابة الى عام (٤٦٣) من (الأندقطية الأولى) ، وتقابل سنة (٥٦٨) للميلاد[1] . أما النص العربي ، فقد أرخ بسنة (٤٦٣) أيضاً ، وأضيف الى هذا التأريخ عبارة (بعد مفسد خيبر بعم) أي (بعام) . ومعنى هذا ان حدثاً تأريخياً كان قد وقع قبل هذا التأريخ بسنة صار النـاس هنالك يؤرخون به ، فأرخ النص به . ويرى (ليتمن) ان ذلك يعني وقوع غزو على خيبر ربما قام به أحد ملوك غسان[2] .

وهذا النص هو من أهم النصوص المتقدمة وأكثرها قيمة بالنسبة لمؤرخ اللغـة العربية ، لأنه نص دوّن بلهجة القرآن الكريم ، باستثناء أثر سهل للنبطيـة برز عليه . ولأهميته هذه أدوّنه على نحو ما جاء في النص العربي : (انا شرحيل بر (بن) ظلمو بنيت ذا المرطول (سنت) سنة ٤٦٣ بعـد مفسد خيبر (بعم) (بعام) . فأنت أمام نص عربي واضح ، تفهمه من دون صعوبة ولا مشقة .

---

١ السامية (١٩٢) .
Nabia p. 5, Dussaud, Mission, p. 324, Grundriss, S. 156, Schröder, in ZDMG. 38, (1884), p. 530.

٢ السامية (١٩٢) .
A. Littmann, In Revist, 1911, p. 195, Nabia, p. 5, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und verwandte, Gebiete, Leipzig, 1922, VII, S. 197.

على حين نجد النصوص الأخرى وقد كتبت بنبطية متأثرة بالعربيـــة الشمالية بعض التأثر . ولهذا فإني أفرّق بين هذا النص وبين النصوص السابقة له ، وأعدّه أول نص وصل الينا حتى هذا اليوم كتب بلهجة عربية القرآن الكريم .

وتعد الكتابة التي عثر عليها في موضع (أم الجمال) وقيل لها كتابة (أم الجمال الثانية) تفريقاً لها عن كتابة أم الجمال الأولى ، أحدث ما عثر عليه من كتابات بهذا القلم الذي نتحدث عنه ، وباللهجة النبطية المتأثرة بلهجة القرآن ، أو باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن . وهي لا تحمل تأريخاً . غير أن من عالج أمرها من المستشرقين يرى أنها تعود الى القرن السادس للميلاد[1] . ولغتها قريبـــة من اللغة العربية المعروفة ، كما أنها متحررة من النبطية والإرمية الى حد كبير .

وعثر في اليمن على بعض كتابات نبطية لعلها من آثار التجار النبط الذين كانوا يذهبون الى اليمن بقصد التجارة ، ولا سيما في القرنين الأولين للميلاد ، أو من آثار تجار أهل الحجاز أو من أهل اليمن ، كانوا قد تعلموا الكتابة بهذا القلم الذي أخذ ينتشر بعد الميلاد لأنه أسهل في الاستعمال من المسند الذي يحتـاج الى دقة في الرسم ، والى بطء في الكتابة . ولوحظ أن إحدى هذه الكتابات كتبت بالقـــلم النبطي المتأخر الذي يشبه القلم الذي استعمل في نقش (فهر بن سلي)[2] .

ولكن العلماء لم يتمكنوا من العثور على عدد كاف من الكتابات المدونة بهـذا القلم ، تكفي لإصدار حكم علمي عن وقت دخول القلم النبطي المتأخر الى الحجاز واليمن ومدى انتشاره بين الناس . ولما كان القلم النبطي المتأخر قد ظهر بعد الميلاد على رأي أكثر العلماء ، يكون هذا الخط قد وصل الحجاز واليمن بعـد الميلاد بالطبع بالاتصال التجاري والقوافل الـــتي كانت تقوم برحلاتها بين اليمن وبلاد الشأم ، وبواسطة النصرانية التي وجدت لها سبيلاً الى اليمن .

ويلاحظ أن الـــذين كتبوا بالقلم العربـي الشمالي ، الذي أخذ منه قلم مكة ، هم من العرب النصارى في الغالب ، فأهل الأنبار ، والحيرة ، وعين الشمس ،

---

١ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift fur Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, 197-204.

٢ Nabia, p. 5, PL. 15, Littmann, in Zeitschrift für Semitistik und Verwandte Gebiete, 1922, VII, S. 197-204.

ودومة الجندل ، وبلاد الشأم ، كانوا من النصارى ، فلا استبعد احتمال استعمال رجال الدين للقلم السرياني المتأخر ، الذي كوّن القلم النبطي في كتابة العربية ، لحاجتهم الى الكتابة في تعليم أولاد النصارى الكتابة ، وتثقيفهم ثقافة دينية ، فكانوا يعلمونها في المدارس الملحقة بالكنائس ، وربما نشروها في البحرين ، أي في سواحل الخليج حيث كانت هنالك جاليات نصرانية ، وفي الأماكن الأخرى من جزيرة العرب التي كانت النصرانية قد وجدت سبيلاً لها بينها ، ولا استبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على كتابات مطمورة كتبت بهذا القلم .

وتفيدنا دراسة شكل خط هذه النصوص فائدة كبيرة في الوقوف على تطور الخط العربي ، فبين رسم هذه الخطوط وبين رسم أقدم الخطوط العربية الاسلامية تقارب كبير ، يشير الى اشتقاق القلم الذي دوّن به الوحي من هذا القلم ، وهو القلم الذي كان يكتب به عرب العراق كذلك على ما أرى . وهو قلم وصل بين حروفه ، وفصل في مواضع أخرى . وهو يختلف بذلك عن القلم المسند الذي استعمل حروفاً منفصلة فقط ، ولم يعرف الحروف المتصلة ، كما ان شكل حروفه بعيد جداً عن شكل حروف هذا القلم ، وهو أسهل وأسرع في الكتابة على الكاتب من المسند .

ونرى في هذه الصورة التي تضم رسم الحروف في الخط النبطي المتأخر والقلم العربي القديم ، تشابهاً كبيراً في الشكل ، ينبئك بوجود نسب بين القلمين ، وان القلم العربي القديم ، قد تولد منه . ولا أستبعد ان يكون قلم أهل الحيرة هو هذا القلم نفسه ، استعملوه في تدوين العربية . وقد رأينا ان النصوص القليلة المكتوبة بنبطية متأثرة بالعربية ، قد كتبت بهذا القلم ، وبينها نص (النمارة) الذي هو شاخص قبر (امرىء القيس) أحد ملوك الحيرة .

وإني لا أستبعد احتمال عثور المنقبين والباحثين في المستقبل على كتابات عربية قديمة تعود الى الجاهلية الملاصقة للاسلام والى أيام الرسول بكثرة تمكن العلماء من وضع رأي واضح عن منشأ وتطور الخط العربي القرآني .

وقد استعملت جملة (الخط العربي القرآني) ، لأن القرآن هو في الواقع صاحب الفضل على هذا الخط في تخليده وتثبيته لأمر الرسول بتدوين الوحي به ، اي بهذا القلم العربي القديم الذي أتحدث عنه ، الذي أخذه اهل مكة عن اهل

(الحيرة) ، أو عن (بشر بن عبد الملك) السكوني ، من (دومة الجندل) على رواية أهل الأخبار . واني أرى ان للبحث عن الكتابات العربيـة القديمة في الحجاز وفي (دومة الجندل) و (الحيرة) و (الأنبار) و (عين التمر) ، وفي القرى العربية الأخرى التي أقيمت على الفرات وفي بلاد الشأم أهميـة كبيرة بالنسبة لبحثنا في تأريخ نشوء وتطور الخط العربي القرآني ، لأني أكره الطرق التي يأخذ بها بعض الباحثين من اللجوء الى الحدس والظن في وضع آراء علميـة قاطعة ومهمة ، مثل الخط ومنشئه وتطوره وما شابه ذلك ، لمجرد رأي ورد عند أهل الأخبار ، او ظن مال اليه عالم ، وعندي ان آراءاً مثل هذه يجب ألا تقال إلا باستناد على دليل مادي ملموس ، مثل أثر ، او مصدر تأريخي قديم محترم .

والصورة التي نراها في الصفحة المقابلة تمثل نماذج من القلمـين : القلم النبطي المتأخر ، والقلم العربي القديم ، مأخوذة من مختلف الصور الأصلية التي عثر عليها العلماء في مختلف الأنحاء من العراق وبلاد الشأم وجزيرة العرب .

ويرى المستشرق (وايل) Weil أن الترتيب الذي يرد للحروف العربية على طريقة : (أبجد هوز حطي ... الخ) ، هو ترتيب أخذه العرب من النبط أو اليهود ، وقد أخذه النبط والعبرانيون من القلم الإرمي . وتشير هذه الطريقة بكل جلاء الى اشتقاق القلم العربي من القلم النبطي المتفرع عن الخط الإرمي[1] . أمـا الترتيب الذي عند الكنعانيين ، فهو هذا الترتيب مع زيادة الأحرف التي اقتضى وجودها في طبيعة لغتهم . ويرى بعض العلماء أن العبرانيين أخذوا ترتيبهم هـذا من الكنعانيين[2] . ونجد هذا الترتيب عند الفينيقيين أيضاً ، ولهذا يرى بعض الباحثين أن العبرانيين والآراميين أخذوا الكتابة من الفينيقيين،وأخذوا منهم استعمال الحروف للعدد أيضاً ، على نحو ما نجده في العربية من استعمالها في حساب الجمل[3] .

وقـد وضع علماء العربية بعد (قرشت) التي تمثل حرف (التاء) فيها آخر حروف الأبجدية التي بلغ عدد حروفها اثنان وعشرون حرفاً، الحروف التي لم ترد

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ السامية (١٠٢) .

٣ الابحاث ، (١٩٥٢ م) (حـ ١ ص ٥ وما بعدها) .

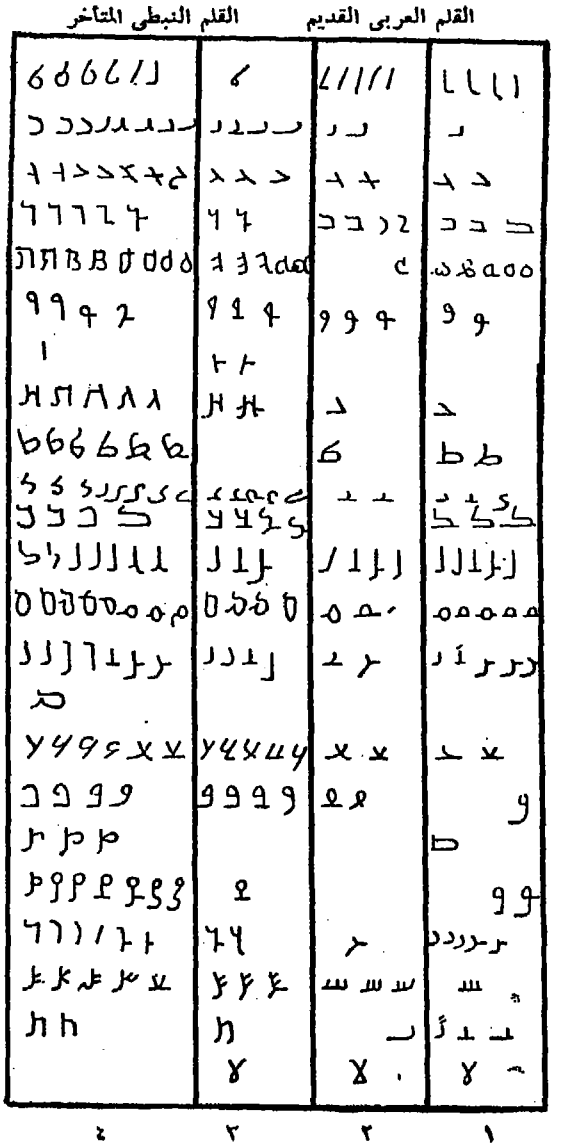

نماذج من القلمين النبطى المتأخر والقلم العربى القديم يمثل العمود « ١ » نماذج من الحروف العربية المستعملة فى القرن الأول للهجرة ويمثل العمود « ٢ » نماذج من حروف كتابتى زبد وحران · وأما العمودان « ٣ » و « ٤ » فيمثلان نماذج من كتابة النمارة وبطرا ·

في هذه الأبجدية ، ولكنها ترد في العربية ، ودعوها بـ (الروادف)[1] . وضعوها بصورة ينفي عنها كل نشاز قد يظهر بين رسمها ورسم الحروف الأخرى ، وذلك باعتمادهم على تكرار الحرف ، وبذلك أولدوا الروادف المذكورة[2] .

ويظهر من الروايات العربية القديمة أن كتّاب الجاهلية المتصلة بالإسلام وكتاب صدر الإسلام كانوا يسيرون في تعلم الكتابة على طريقة (أبجد هوز) أي على طريقة الآراميين والنبط والعبرانيين . وقد ورد في الأخبار أن الناس في أيام (عمر ابن الخطاب) ، كانوا يتعلمون الكتابة على طريقة (أبجد هوز) . قال (القلقشندي) : « وقد جاء أنها كانت تُعلم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويشهد لذلك قول الأعرابي في أبياته :

أتيت مهاجرين فعَلّمُوني ثلاثة أسطرٍ متتابعات
وخطّوا لي أبا جاد وقالوا : تعلّم سعفصاً وقريشات »[3]

والترتيب الذي يعمل به الآن في البلاد العربية من الابتداء بالألف ثم بالباء ، فالتاء ، فالثاء ، فالجيم ، فالحاء ، فالخاء ... هو ترتيب وضع في زمن (عبد الملك بن مروان) ، عمل به (نصر بن عاصم) ، و (يحيى بن يعمر)العدواني . وقصد به ضم كل حرف الى ما يشبهه في الشكل ، وقد ساد هذا الترتيب ومشى. وجرى عليه أصحاب الصحاح ولسان العرب والقاموس ، وتاج العروس، وأصحاب معاجم اللغة في هذا اليوم[4] .

أما ما ورد في بعض الروايات من ان (أبا ذر الغفاري) سأل رسول الله عن الحروف ، فقال له انها تسع وعشرون ، وانها نزلت على ترتيب : (ا ب ت ث ج) ، أي على الترتيب الذي نسير عليه في الوقت الحاضر ، وانه عجب من قول الرسول له انها تسع وعشرون ، لأن حروف العربية هي ثمان وعشرون،

---

١ Ency. I, p. 68.

٢ مجلة المجمع العلمي العربي ، بدمشق ١٩٥٩ م ، (ص ٥٧٦) .

٣ صبح الاعشى (٣/١٩) .

٤ حفني بك ناصف ، تأريخ الادب أو حياة اللغة العربية ، (القاهرة ١٩٥٨ م) ، (الطبعة الثانية) ، (الكتاب الاول) ، (ص ٢٧) .

ومن تأكيد الرسول له انها تسع وعشرون ، نزلت كلها على آدم[1] . فخبر غير صحيح ولا يُعوّل عليه ، وهو موضوع ، لما ذكرته من ان الترتيب المذكور انما ظهر في الاسلام .

هذا وإن مما يؤسف له كثيراً اننا لا نملك اليوم كتابة واحدة من الكتابات المدونة في أيام الرسول ، ولا نملك اي نسخة من نسخ القرآن او من صحفه المدونة في ايامه . فلا نملك اليوم نسخة حفصة للقرآن الكريم ، ولا نسخة (عثمان ابن عفان)[2] ولا النسخ التي دونت بأمره لتوزع على الأمصار ، ولا أية نسخ أخرى من النسخ التي دوّنها الصحابة لأنفسهم. ولا نملك النسخ الأصلية للمراسلات التي كان يأمر الرسول بتدوينها لترسل الى الملوك او سادات القبائل والأمراء . نعم يقال إن هناك نسخاً من المصاحف ترجع الى ايام الخلفاء ، وقد دوّن بعض منها بأقلام أجلّة الصحابة ، وان هناك بقية من رسائل الرسول وان هناك كتابات يرجع تأريخها الى أيام الرسول[3] ، ولكن المتبحرين في العلم العارفين بكيفية تثبيت أعمار الوثائق لم يتمكنوا من البت في صحة هذه الدعاوى ، ولم يقطعوا بصحة هذه الوثائق . لذلك فليس لنا أمام هذه الحجج التي أبديت عن هذه الآثار سوى التحفظ والتوقف عن ابداء رأي فيها ، فلعل الأيام تهيء للقادمين من بعدنا وثائق جديدة تعود الى الأيام التي نبحث فيها .

هذا وان من الممكن التثبت في الوقت الحاضر من صحة الوثائق المنسوبة الى أيام الرسول او أيام من جاء بعده ، بعرضها على الفحوص المختبرية الحديثة ، التي باستطاعتها تقدير أعمارها ، وتثبيت أسنانها ، ولكني لا أعلم ان أحداً عرض هذه الوثائق لمثل هذه الفحوص .

هذا وللمادة التي دونت عليها تلك الكتابات ولندرة الورق إذ ذاك ولغلاء ثمنه، ولعدم ادراك الناس في ذلك الوقت لأهمية حفظ الوثائق ، ولتعرض تلك الوثائق الى عوامل عديدة من عوامل التلف والبلى مثل الحريق والماء والأرضة وما شاكل

---

١ صبح الاعشى (٣/٧ وما بعدها) ، (المسلك الثاني في وضع الحروف العربية) .

٢ ليس فيما يقال عن وجود نسخة عثمان من مصحف عثمان في « استانبول » أو في أماكن أخرى أساس من الصحة ، وانما هو زعم من غير دليل .

٣ M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, Islamic Culture, Vol. 13, NUM : 4, 1939, p. 427.

ذلك ، دخل ولا شك في اختفاء الخطوط القديمة التي دونت في الجاهلية المتصلة بالاسلام وفي صدر الاسلام ، مما أضاع علينا فوائد كثيرة كنا سننتفع بها لو كنا نملك تلك الوثائق ، ولكن من يدري فلعل الأيام ستعطف على الباحثين المساكين المتعطشين دوماً الى الوقوف على أخبار الماضين ، فتقدم لهم وثيقة او جملة وثائق تكون خير هدية لهؤلاء ، لا يوازيها في نظرهم اي ثمن من الأثمان التي تقاس بالورق وبالجنيهات او الدولارات .

ولكني أود أن أبين ان هذه الحقبة من الجاهلية المتصلة بالاسلام وكذلك أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين هي حقبة شحيحة جداً بالكتابات ، فما عثر عليه من الكتابات فيها محدود ، مع انها من أهم الأزمنة بالنسبة لنا لأنهـا ذات صلة وعلاقة مباشرة بظهور الاسلام . وينطبق ما أقوله هنا على كتابات المسند كذلك وعلى الكتابات المدونة باللهجات الجاهلية الأخرى ، ولجميعها أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ الذي يريد شرح تأريخ تلك الأيام التي ظهر فيها الاسلام . وفي جملة هذا التأريخ تأريخ تطور الخطوط العربية .

واذا كان ما ذكره الدكتور (م . حميد الله) عن الكتابات التي وجدها على الطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة ، والتي يرى ان تأريخها يرجع الى غزوة الخندق ، اي الى السنة الخامسة من الهجرة ، صحيحاً من الوجهة العلمية، فإننا نكون أمام أقدم كتابات عثر عليها حتى الآن بعربية القرآن الكريم[1] . وهي ستفيد الباحثين ولا شك في التعرف على تأريخ تطور الخط العربي ، وعلى أساليبه. وربما يعثر الباحثون في المستقبل على كتابات قد تكون أقدم من هذه أو من أيامها، لأن البحث عن الكتابات والآثار بصورة منتظمة وعلمية لم يأخذ مجراه في الحجاز حتى الآن .

وأشار (عـثمان رستم) Osman R. Rostem الى وجود كتابات بخط كوفي وبخطوط عربية أخرى في جبل سلع وفي وادي العقيق وعند جبل أحد وفي مواضع أخرى في مؤلفه عن الكتابات المدونة على الصخور في الحجاز ، لكنه لم يشر إلى تواريخ تلك الكتابات ولم ينشر صورها كلها[2] هذا وقد أشار غيره الى وجود هذه

---

١ M.Hamidullah, In Islamic Culture, Vol. 13, Num : 4, October, 1939, p. 427.

٢ Rock Inscriptions in The Hijaz, Le Caire, MCMXLVIII.

الكتابات . إلا أن أكثر ما كتب عن هذا الموضوع ، لم يكتب بقلم أصحاب الاختصاص ولم يصور تصويراً جيداً أو يدرس دراسة علمية في مكان وجوده . ثم إن معظم الكتابات لا تزال مهملة غير مصورة ولا منقولة مستنسخة ، لذلك فإن إبداء رأي علمي عن أصلها وتطورها غير ممكن في الوقت الحاضر . ولعل الحكومة السعودية ستهتم بهذه الناحية المهمة ، فترسل الى الباحثين العرب والمسلمين أو المستشرقين تستفتيهم في أمر هذه الكتابات . بعد أن تطلب من المتخصصين دراستها في مكانها وأخذ صور جيدة لها ، وطبع نسخ بواسطة الجبس أو بوسائل أخرى لهذه الكتابات ، ليكون من الممكن دراستها دراسة علمية .

الإعجام والحركات :

ولا بد لي هنا من التعرض لناحيتين مهمتين من نواحي تطور الخطوط عند العرب . هما : الإعجام والحركات .

ويراد بالإعجام ، تنقيط الحروف المرسومة بشكل متقارب أو بشكل واحد ، لتمييزها بعضها عن بعض . وذلك لأن هذه الحروف مثل الباء والتاء والثاء،والجيم والحاء والخاء،والدال والذال،والراء والزاء،والسين والشين، والصاد والضاد،والطاء والظاء،والعين والغين،والفاء والقاف ، إذا كتبت من غير نقط صار من الصعب على الإنسان التمييز بينها لأنها تكتب بشكل واحد ، فيلزم على القارىء عندئذ الرجوع الى علمه في اللغة وسليقته في الفهم لإدراك المعنى ، لأنها بشكل وبرسم واحد . فالباء والتاء والثاء بل وحرفا النون والياء أيضاً ، إذا كتبت في الكلمة ولا سيما في الوسط ، بغير نقط ، صار من الصعب تمييز هذه الحروف بعضها عن بعض ، وإدراك المعاني الصحيحة والمراد من الكتابة نتيجة لذلك . فللتغلب على هذه المشكلة أعجم علماء الخطوط بعض هذه الحروف ، بوضع نقط فوقها أو تحتها لتمييزها بعضها عن بعض ، وعرف هذا التنقيط بالاعجام[1] .

وقد وقع الاعجام في الإسلام على رأي أكثر العلماء . بعمل أبو الأسود الدؤلي

---

١ اللسان (٣٨٨/١٢) ، (عجم) ، صبح الاعشى (١٥٥/٣) ، مفتاح السعادة (٨٠/١) .

والخليل بن أحمد الفراهيدي وآخرون في قصص لا علاقة لذكره في هذا المكان . وهو مكان خصص لأقلام الجاهلية . أما بالنسبة الى الجاهلية ، فإننا لا نملك وثيقة معجمة . ونقش (حرّان اللجا) المكتوب بعربية شمالية مشوبة بالنبطية ، خال من الاعجام أيضاً ، وكذلك النقوش الأخرى المكتوبة بالنبطية المتأثرة بالعربية الشمالية . ولهذا فإني لا أستطيع الادعاء بأن الإعجام كان معروفاً بالقلم العربي المكي الجاهلي ولا بغيره من الأقلام العربية الجاهلية .

غير أن هناك رواية تنسب لابن عباس ، تزعم أن الثلاثة الذين هم من بولان من طيء ومن أهل الأنبار ، لما وضعوا الحروف وضعوها مقطعة وموصولة ، ثم وضع أحدهم وهو (عامر) الاعجام[1] . أي ان العرب وضعوا الاعجام في الوقت الذي اخترعوا فيه قلمهم العربي ، وجاء في كتاب النشر في القراءات العشر : « ثم إن الصحابة رضي الله عنهم ، لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين .. »[2] . وفي هذا الخبر دلالة على معرفة الصحابة بالنقط والشكل.

وهناك خبر يرفع سنده الى (ابن مسعود) ، يذكر أنه قال : « جوّدوا القرآن ليربو فيه صغيركم ، ولا ينأى عنه كبيركم » . وقد شرح الزمخشري ذلك بقوله : « أراد تجريده من النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشءٌ فيرى أنها من القرآن »[3].فيفهم من هذا الخبر أن التنقيط كان معروفاً،وأن (ابن مسعود) عرفه ، وأنه رأى تجريد القرآن من النقط ليصرف الصغير همه في فهمه فهماً عميقاً وفي إدراكه إدراكاً صحيحاً عن دراسة ، لأن تجريده يحمل الطالب على بذل الجهد في فهم غامضه ومشكله ومعناه فيرسخ فهمه في عقله ، أما إذا كانت الحروف معجمة ومشكلة ، فلا يجد الطالب ما يحمله على بذل الجهد وإجهاد نفسه لفهم القرآن . فتفتر همته عن فهمه ، ولا يبذل نفسه بذلاً مرضياً في تعلم كتاب الله .

---

١ الفهرست (ص ١٢ وما بعدها) ، (الكلام على القلم العربي) .

٢ ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر (٣٢ وما بعدها) ، مصادر الشعر الجاهلي (٣٥) ، للدكتور ناصر الدين الاسد .

٣ الزمخشري ، الفائق (١/١٨٦) ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (٩٣) .

وخبر آخر يدل على وجود الإعجام عند العرب ، رواه (سفيان بن عيينه)، يفيد ان (زيد بن ثابت) نقّط بعض الحروف[1] .

وورد ان بعض الباحثين عن الكتابات الاسلامية القديمة عثروا على آثار للنقط في بعض الوثائق القديمة . فقد ذكر الدكتور (جروهمن) انه وجد في وثيقة من وثائق البردي المدونة بالعربية واليونانية ويعود تأريخها الى سنة (٢٢) للهجرة حروفاً منقطة[2] . وهذا التنقيط إن صح وثبت ، فإنه يدل على وجود التنقيط في هـذا العهد . كذلك ذكر (مايس) G. C. Miles انه وجد حروفاً منقوطة في كتابة عثر عليها قرب الطائف يعود عهدها الى سنة (٥٨) للهجرة[3] . وإذا صح ان هـذه النقط قديمة قدم الخط ، فإن معنى هذا ان الكتابة على الحجر قد عرفت التنقيط أيضاً في هذا العهد وقبله ، إذ لا يعقل أن تكون أول كتابة على الحجر استخدمت التنقيط .

ونسب بعض أهل الأخبار الإعجام الى (أبـي الأسود الدؤلي) ، كما نسبوا اليه النقط.وهو وَهَم وقعوا فيه من عدم ادراكهم للعمل الذي قام به (أبو الأسود) فظنوا انه استعمل النقط في الحالين: في النقط الذي هو الشكل،وفي النقط الذي هو الإعجام . والذي عليه الجمهور ان الإعجام كان من عمل (نصر بن عاصم) . فلما كثر الخطأ في قراءة القرآن بسبب عدم تمييزهم بين الحروف المتشابهة، وتفشي وباء الجهل بعدم التمييز في القراءة بين الحروف المتشاكلة (فزع الحجـاج الى كتابه،وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغير الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان التصحيف مع استعمال النقط أيضاً يقـع ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام[4] .

---

١ معاني القرآن ، للفراء ، (١/١٧٢ وما بعدها) .

٢ Grohmann, From the World of Islamic Papyri, PL. II, A, pp. 82, 113-114.

٣ G. C. Miles, Early Islamic Inscriptions Near Taif in the Hijaz, in JNES, 7, 1946.

٤ ابن خلكان (١/١٢٥) ، تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦١) اللسان العربي ، ١٩٦٩م (ص ٥٢) .

وذكر ان (نصر بن عاصم) و (يحيى بن يعمر) ، وكانا ممن أخذا العلم عن أبي الأسود الدؤلي[1] نقطا الإعجام بنفس المداد الذي كان يكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط استاذهما أبي الأسود ، التي كانت بمداد يخالف المداد الذي كتب به الكلام . « وقد انتشرت تلك الطريقة وأضاف اليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى ، وزاد أهل المدينة التشديد فجعلوها قوسين يجعلان فوق المشدد المفتوح ، وتحت المكسور ، وعن يسار المضموم ، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت حدبته والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وأبقوه على أصله مع الفتحة . وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه »[2] .

والمشكلة الثانية في العربية ، هي مشكلة الحركات ، أي كيفية النطق بحروف الكلمة وبأواخر الكلم ليظهر المعنى حسب موقع الكلم من الاعراب . والعربية من اللغات العالمية التي احتفظت بخاصية الاعراب بينما تركتها لغات أخرى كانت لغات معربة في الأصل . لأن اهمال الحركات فيها يؤدي الى وقوع أخطـــاء كبيرة في فهم معنى الكلام ، لذلك وجب التغلب على هذه المشكلة بوضع علامات تعبر عن الحركات .

وسبب وجود هذه المشكلة في العربية ، هو أن أقلام العربية القديمة هي مثل الأقلام السامية الأخرى مؤلفة من حروف صامتة فقط ، ولا توجد فيهـا حروف تمثل الحركات ، تكتب في الكلمة . كما هو الحال في اليونانية وفي اللاتينية وفي الأبجديات الغربية الأخرى المشتقة منها ، فيقرأ الإنسان الكلمة قراءة صحيحة بغير خطأ لوجـود حروف الحركات مع الحروف الصامتة ، ويكتب كتابة صحيحة ، لأنه حين يكتب الكلمة ويلفظها يكتبها بحروف صامتة وبحروف الحركات. ويذكر أهل الأخبار أن العرب كانوا يفهمون معنى الكتابة بحدة ذكائهم وبطبعهم وسليقتهم فلم يخطئوا في فهم المعنى ، فلم يجدوا حاجة الى الشكل ، فلما جاء الإسلام،ودخل الأعاجم بكثرة فيه واختلطوا بالعرب واختلط العرب بهم، فشا اللحن في الكلام ،

---

١ الفهرست (ص ٦٨) ، (تسمية من أخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي) ، « ويقال : أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الاسود الديلي ، من تلقين أمير المؤمنـين علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه » ، حكمة الاشراق (٨١) .

٢ اللسان العربي ، ١٩٦٩ م (ص ٥٢) .

وظهرت الحاجة الى تقويم الألسنة فوضع أبو الأسود الدؤلي مبادىء النحو والشكل. أي علامات الحركات. وسلك الناس طريقته ووسع من جاء بعده جادة هذا العلم، حتى صار من أهم العلوم عند العرب.

وعلينا أن نفرّق بين التنقيط أي الإعجام عند العرب وبين التنقيط عند غيرهم من الشعوب السامية. فالتنقيط عند العرب هو لتوضيح الحرف. بمعنى تعيينه وتثبيته لتمييزه عن الحرف الآخر المشابه له. أما في اللغات السامية الأخرى، فقد استعمل التنقيط فيها للتعبير عن الحركات. فالحركات في بعض اللغات السامية يعبر عنها بنقاط توضع فوق الحرف أو تحته. كما استعملت الخطوط المستقيمة وما يشبه الضمة للتعبير عن الحركات عند بعض لغات أخرى. ولم يستعمل الاعجام أي تنقيط الحرف لتمييزه عن حرف آخر مشابه له إلا في القليل، وذلك بسبب أن الحروف عندها غير متشابهة كثيراً، ولذلك فلا يلتبس أمر قراءتها على أحد، فلم تظهر الحاجة فيها الى إزالة اللبس بالتنقيط. ومن هنا اختلف مبدأ التنقيط في العربية عن مبدأ التنقيط في اللغات السامية الأخرى.

والتنقيط في كلتا الحالتين اي في حالة استخدامه للتعبير عن الحركات، اي الشكل، او في حالة استعماله للإعجام، أي لتمييز الحروف المتشابهة، هو عمل متأخر عن الكتابة عند العرب وعند غيرهم. وسبب ذلك ان الكتابة صنعة اختص بها رجال الدين والعلماء والمثقفون ثقافة عالية، وهم طبقة خاصة كانت فوق مستوى الجماهير، وكان من مصلحتهم حصرها بأنفسهم وبأولادهم وجعلها صنعة خاصة بهم جهد الامكان. وعدم السماح لغيرهم من سواد الناس بتعلمها وممارستها. بأن جعلوا لها أدباً وقواعد وشروطاً يجب أن تتوفر فيمن يمارس هذا الفن. جمعوها في (أدب الكاتب) أو (أدب الكتاب). وكان في جملة قواعد هذا الأدب تصعيب الصنعة وتعقيدها حتى لا يطرقها إلا الذكي الأريب. واتخاذ أقلام خاصة، يكون لكل قلم قواعده وأصوله في رسم الحروف، وإهمال التنقيط أو الشكل، لأن من مستلزمات الكاتب أن يكون فطناً يستنبط المعنى بذكائه بربط الكلمات بعضها ببعض. وهو ما يعجز عنه القارىء الكاتب الاعتيادي. فتجريد الكتابة من النقط والشكل امتحان يميز الكاتب العالم عن غيره ممن تعلم كيف يقرأ ويكتب وكفى. حتى لقد وقر في ذهنهم ان من ينقط الكتابة ويشكلها ويرسلها الى كاتب، فكأنما أراد بذلك إهانته ورميه بالجهل والغباء، إذ عنى بهذا التنقيط والتشكيل ان

المرسل اليه لا يفهم المعنى إلا إذا نقطت له الكلمات ، فكيف الحال اذن اذا كانت الرسالة ممن هو دون من أرسلت اليه في المنزلة والمكانة ، ومن رجل من طبقة سوية الى رجل أعلى طبقة منه . فكان من أدب الكتاب عندهم الترفع عن مستوى القراء الكاتبين ، بترك النقط والشكل . كانوا يقولون : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . نظر (عبدالله بن طاهر) خط كتاب وقع اليه ، فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شونيزه أي نقطه »[1] .

غير ان الحاجات دفعت بالناس ولا سيما بذوي الأعمال منهم الى التماس أيسر الطرق وأبسطها في تدوين أمورهم . فاختزلوا الخطوط وبسطوها ودفعوا التعسير بالتيسير . وكان من التيسير ، وضع علامات للحركات ونقط للإعجام . أما اليونان فصاغوا من الحركات حروفاً كتبوها جنباً الى جنب مع الحروف الصامتة ، فحلّوا بذلك أهم مشكلة من مشكلات الكتابة . وأما الشعوب السامية ، فاتخذت التنقيط والعلامات فوق أو تحت الحرف أو في داخله لتميز بذلك حرفاً متشابهاً عن الحرف الذي يشابهه ، او لتعيين حركته . وأما الحبشية ، التي أخذت قلمها من المسند ، فاتبعت طريقة اليونان وتغلبت بذلك على المشكلتين وظهرت بذلك أقلام شعبية تنقط وتشكل ، استعملها السواد ، أما أرباب العلم من الكتاب ، فقد أبوا كتابة الكتب المقدسة وكتب العلم والتراث بخطوط السواد ، وأبوا إلا الكتابة بالقلم القديم ، والمحافظة على الضبط القديم ، لأنه في نظرهم جزء من النصوص فلا يمكن اجراء أي تغيير عليها . أما ما سوى ذلك فدوّن بالأقلام الشعبية التي أوجدتها ضرورات التيسير وتطور الزمن .

وأغلب روايات اهل الأخبار أن الخط العربي الأول لم يكن مشكلاً . وأن الشكل إنما وجد في الإسلام . وكان موجده (أبو الأسود الدؤلي) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، فاستعمل النقط بدل الحركات ، ثم أبدل (الخليل بن أحمد الفراهيدي) ، النقط برموز أخرى هي الفتحة والكسرة والضمة . ويرى بعض الباحثين أن نقط (ابو الأسود الدؤلي) ، هو على نحو النقط في الخط النسطوري السرياني ، ويحتملون تعلمه قاعدة التنقيط منهم[2] . وكان عندهم نقط كبيرة

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦٢) .
٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م ، (حـ ١ ص ١٩) .

توضع فوق الحرف او تحته لتعيين لفظه او تعيين الكلمة الواقع هو فيها: اسم هي أم فعل أم حرف . مثل قولهم : كتب ، فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب ، او فعلاً ماضياً معلوماً أو مجهولاً ، وكان عندهم ايضاً نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن . وهي عبـــارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيـــد ذلك انه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الأسود : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ؛ وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بـــين يدي الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب ان يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمر وبجوار القاهرة ، وهو من أقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون ، فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحته كسرة ، وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الأسود[1] .

ويرى بعض المستشرقين أن ضبط الكتابة العربية قد بدىء به قبل الإسلام[2] . وذلك لأن عرب العراق وعرب بلاد الشأم كانوا يكتبون بالسريانية ، وقد عرفت السريانية مشكلة الشكل وعالجتها ، فلا بد وأن يكون العرب الذين أخذوا قلمهم من السريانية او النبطية المتأخرة قد وقفوا على المشكلتين فعالجوهما على نحو ما .

وأود ان أبين بهذه المناسبة ان تنقيط (ابو الأسود) للحروف لم يكن إعجاماً، بل كان شكلاً ، اي ضبط حركة الحرف من حيث الضم او الفتح او الكسر او السكون حسب تكوين الحروف للكلمة . فهذا كان تنقيط (ابو الأسود الدؤلي)[3] أما شكل الوقت الحـــاضر ، فهو من اختراع (الخليل بن احمد الفراهيدي) . ولذلك يجب علينا التفريق بين تنقيط (ابو الأسود) ، وبين الاعجام الذي هو

---

١ تأريخ التمدن الاسلامي (٣/٦٠ وما بعدها) ، الفهرست (ص ٦٦) ، الدراسات الادبية السنة الثانية ، العدد الاول ، ١٩٦٠ م ، (ص ٨٣) .

٢ الابحاث ، ١٩٥٢ م (حـ ١ ص ٢٠) .

٣ الفهرست (٦٦) ، (في أخبار النحويين واللغويين وأسماء كتبهم) ، (الفن الاول) .

تنقيط الحروف المتشابهة لإزالة اللبس بينها ، ثم التفريق بين شكل (ابو الأسود) وبين شكـــل (الخليل بن أحمد) واضع الشكل المتبع الآن ، لموت طريقـــة (ابو الأسود) ، في الشكل ، وتخصيص النقط بالاعجام ، ومن هنـــا وقع البعض في لبس من أمر النقط والاعجام ، فلم يفرقوا بينها . والصحيح هو مـــا قلته من ان النقط هو الشكل في الأصل ، فبهذا المعنى كان في أيام (الدؤلي) الى أن قامت الحركات التي هي الضمة والفتحة والكسرة مقام نقط الدؤلي، فوجد الناس في الحركات سهولة مكنتهم من التفريق بين إعجـــام الحروف وتشكيلها ، فخصصوا النقط بالإعجام والحركات بالشكل ، وبذلك زال اللبس الذي أدى الى وقوع أخطاء في فهم المراد من الإعجام ومن الشكل الذي هو الحركات .

والتنقيط من الأمور التي كان يراعيها العبرانيون منذ القديم في قراءة التوراة . فقد كانوا ينقطون بعض حروف الكلمات لتنبيه القارىء الى أهمية الكلمة ولمكانتها المقدسة،وعرف هذا التنقيط بـ Puncta extraordinaria عند رجال الدين.فقد نقطوا لفظة (عانقه) في الآية : « فبادر عيسو وتلقاه وعانقه وألقى بنفسه عـلى عنقه وقبّله وبكيا »[1] ، ونقطوا لفظة (فامحي) ، من الآيـــة : « والآن إن غفرت خطيئتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت »[2] ، ولفظة (يمحوها) في الآية : « فيكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ويمحوها بالماء المرّ »[3] ، وقد فعل ذلك في الأناجيل أيضاً ، كما في لفظة (محا) الواردة في الآية : « ومحا الصك الذي كان علينا بموجب الأقضية الذي كان لهلاكنا وأخذه من الوسط وسمّره في الصليب»[4]. ثم زاد علماء التوراة وكتّابها زيادات أخرى في أصول التنقيـــط ووضع العلامات الخاصة على الحروف التي هي الإعجام ، وصيّروها علماً خاصاً بالتوراة أشير اليه في (السوفيريم) وفي التلمود[5] .

ونجد في (انجيل متى) اشارة الى التنقيط في الحروف ، جاء : « الحق أقول لكم : انـه إلى أن تزول السماء والأرض ، لا تزول ياء أو نقطـــة واحدة من

---

١ سفر التكوين ، الاصحاح (٣٣) ، الاية ٤ .
٢ الخروج ، الاصحاح ٣٢ ، الاية ٣٢ .
٣ سفر العدد ، الاصحاح الخامس ، الاية ٢٣ .
٤ رسالة القديس بولس الى أهل كولتى ، الاصحاح الثاني ، الاية ١٤ .
٥ Hastings, p. 979.

الناموس حتى يتم الكل »[1] . وفي هذه الآية إشارة الى تدقيقاتهم في الكتابة، وتمييزهم بين حرف وآخر بالنقط[2] .

وكان كتّاب الأناجيل والكتب المقدسة ، اذا أضافوا كلاماً من عندهم على النص ، أو فسروا لفظة من ألفاظه ، كتبوه بخط ثخين عريض ، ليتبين للقارى ان ما هو مدون ليس من صلب الكتاب المقدس ، وانمـــا هو إضافة لتفسير أو لشرح[3] .

وأود أن أبين ، ان موضوع النقط الذي هو الإعجام وموضوع الشكـل من الموضوعات التي لم تدرس دراسة كافية علمية حتى الآن . وهما مما لا يمكن البت فيها الآن ، إلا إذا عثر على كتابات جاهلية عربية وعلى كتابات تعود الى أيام الرسول وما بعده ، وإلا بعد نشر ما ألفه العلماء عن النقط والشكل . فقد ألف العلماء في ذلك كتباً ، أشار اليها (ابن النديم) ، فقال : « الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن : كتاب الخليل في النقط ، كتاب محمد بن عيسى في النقط ، كتاب اليزيدي في النقط ، كتاب ابن الأنباري في النقط والشكل ، كتاب أبـي حاتم السجستاني في النقط والشكـل بجداول ودارات ، كتاب الدينوري في النقط والشكل »[4] .

وهناك مؤلفات أخرى دونت في (لامات القرآن)[5] ، وفي هجاء المصاحف[6] ، وفي اختلاف المصاحف وأمثال ذلك[7] ، تفيدنا كلهـــا في تكوين رأي عن تطور الخط العربـي في أوليات أيامه ولا سيما في صدر الاسلام .

وقد سار الخط العربـي الشمالي على نسق أغلبية الخطوط السامية مثل الخط النبطي والإرمي والعبراني فاتجه من اليمين الى اليسار . ونظـــراً لوجود حروف منفصلة

---

١ الاصحاح الخامس ، الاية ١٨ .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٤٣١) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٥٢) .
٤ الفهرست (ص ٥٩) ، (كتاب النقط والشكل) ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، الفهرست (ص ٧١) .
٥ الفهرست (٦٠) .
٦ الفهرست (٦١) .
٧ الفهرست (٦٠) .

وحروف متصلة فيه ، دونت كتابة الكلمات فيه بالجمع بين النوعين من الحروف، وبذلك سهُل أمر الكتابة بهذا القلم ، وصار على غرار القلم النبطي في السرعة . وللتمييز بين الكلمات ، لم يستعمل الخطوط العمودية النازلة بين الكلمات للفصل بينها ، على نحو ما كان في المسند ، بل سار على طريقة النبط في وضع فراغ صغير مناسب بين كل كلمة وأخرى ، دلالة على انفصالها بعضها عن بعض .

أما المسند ، فقد اشتهر عند علماء العربية بأنه خط حمير ، ولذلك قال له بعضهم (الخط الحميري) ، و (القلم الحميري)[1] ، كما قال له المستشرقون فيما بعد . وهي تسمية مغلوطة على كل حال ، لأن الحميريين لم يكونوا أول من أوجد هذا الخط ، لقد سبقهم في استخدامه السبئيون والمعينيون وأقوام عربية اخرى ، وقد عرفه بعض علماء العربية بقوله : « المسند : خط لحمير مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه ايام ملكهم فيما بينهم ، قال ابو حاتم : هو في أيديهم الى اليوم باليمن »[2] . وقد ذكر (ابن خلدون) أن حمير كانت تمنع من يريد ان يتعلم المسند إلا بإذنها[3] .

والأبحاث التي قام بها الباحثون عن الخط العربي قبل الإسلام ، لا تزال في مراحلها الأولى ، ولا يمكن في نظري نضج هذه البحوث والوصول الى نتائج علمية مرضية إلا إذا قام المتخصصون بالتنقيب تنقيباً علمياً في جزيرة العرب كلها، وهذا ما يستغرق بالطبع وقتاً طويلاً . ولا يستبعد أن يتوصل المنقبون الى معرفة أبجديات واقلام قد تكون اقدم عهداً من هذه الأقلام التي تحدثت عنها ، وقد يجدون أقلاماً اخرى جديدة تسمى بأسماء جديدة ، قد تغير من هذه النظريات العلمية التي تلوكها ألسُنُ العلماء في هذا اليوم . فقد عثر على نصوص يظهر أنها بقلم ثمودي في موضع (ينبع النخل) الذي يبعد مسافة أربعين كيلومتراً عن (ينبع)[4] . كما وجدت كتابات بخطوط جاهلية وبخط عربي من صدر الإسلام في (جبل سلع) عند المدينة ، وفي (وادي العقيق) الذي لا يبعد كثيراً عن المدينة[5] . وكذلك في (وادي رانونا) الواقع جنوب المدينة على مسافة ثمانية

---

١ اللسان (٣/٢٢٤) ، (صادر) ، (حمر) .
٢ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٣ مقدمة ابن خلدون (ص ٣٤٩) .
٤ Rock Inscriptions in the Hijaz, A Report by Osman R. Rostem, p. 2.
٥ Rostem p. 4.

كيلومترات ، حيث وجدت نقوش صور حيوانات كذلك[1] . وفي (الصويدرة) ، و (بستان شهار) ، وهو موضع يقع على مسافة كيلومترين جنوب الطائف ، حيث يذكر من رآه انه وجد فيه كتابات تظهر وكأنها كتابات يونانية[2]. ووجدت كتابات بعضها بدائية او من شكل جديد في مواضع أخرى من الحجاز،قد تكون أقلاماً جديدة ، كتبت بلهجات لا نعرف عنها اليوم شيئاً .

لقد كان من الشائع بين الباحثين ان المنطقة الواقعة فيما بين المدينة والطائف منطقة فقيرة بالكتابات ، ولكن عثور بعض الباحثين على كتابات ثمودية وعلى كتابات أخرى وفي ضمنها كتابات قديمة تمثل أقدم أنواع الخط الذي دوّن به القرآن الكريم ، قد مزّق حجب ذلك الشائع ، وسوف يقف الباحثون ولا شك على كتابات أخرى جديدة في مواضع أخرى من الحجاز ولا سيما في المواضع الواقعة على طرق القوافل القديمة . وعندئذ سيزيد علمهم عن الأقلام العربية الجاهلية وعن علم الناس بلهجات العرب قبل الاسلام، ولا سيما بلهجات أهل الحجاز لما في ذلك من فائدة في الوقوف على اللغة التي نزل بها الوحي .

هذا — وأعود فأقول — إن من الخطأ مجاراة أهل الأخبار رأيهم في أن الكتابة العربية كانت قد نقلت أول ما نقلت الى مكة ، ثم انتشرت منها الى (يثرب) والى الأماكن الأخرى . إذ يروي أهل الأخبار أنفسهم أنه كان بيثرب قبل الإسلام رجال كانوا يقرأون ويكتبون بهذا القلم ، ومنهم من كتب للرسول . وأما ما ذكروه من أن الرسول طلب من أسرى (بدر) ممن لم يكن يستطيع فداء نفسه ، تعليم عشرة أطفال من أهل يثرب القراءة والكتابة في مقابل فكّ أسرهم، فليس فيه دليل على عدم وجود قارئين كاتبين بها ، وإنما فعل النبي ذلك لتكثير الكتابة فيها ، ولنشر التعليم بين المسلمين .

وقد أخطأ (ريجس بلاشير) في رأيه القائل : « لدينا مصادر أكثر قدماً ، تدفعنا الى الاعتقاد بأنها كانت كثيرة الاستعمال في الطائف بعكس انتشارها في المدينة الذي لقي صعوبات » ، ثم قال في الملحوظة (٥) : « من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الطريقة الكتابية العربية » ، واستدل على الحالتين باستعانة

---

١ المصدر السابق .
٢ المصدر السابق (ص ١١) .

الرسول بأسرى بدر لتعليم المسلمين القراءة والكتابة ، لأن المصادر المحلية كانت غير كافية[1] . ولا أعرف شيئاً عن المصادر القديمة التي ذكر أنها تشير الى كثرة الكتابة بالطائف ، عكس المدينة ، لأنه لم يشر اليها ، وإنما قال قولاً عاماً ، لم يؤيده بذكر اسم المورد الذي استقرى رأيه منه . ولعله قصد ما ورد في حديث تدوين القرآن من اجعلوا المملي من قريش ، أو من هذيل ، والكاتب من ثقيف ، وهو حديث لا صلة له بقلة أو بكثرة انتشار الكتابة في مكان ، ثم إنه يتناول مكة كذلك ، كما يتناول المدينة ، ونحن لو أحصينا عدد من كان يكتب من أهل يثرب من الصحافة لما وجدناه يقل عن عدد كتّاب الطائف قبل الإسلام ، بل هو فوقه بكثير ، كما رأينا فيما سلف . أما قوله : من الجائز أن يكون اليهود قد قاوموا انتشار الكتابة في يثرب ، فيخالفه ما ورد في الأخبار من أن احد يهود (بني ماسكة) كان يعلم أهل يثرب الكتابة ، وتعلم أهل يثرب الكتابة بالعربية ، لا يضر اليهود شيئاً ، حتى يقاوموا تعلمها ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، لأن في تعلمهم الكتابة والقراءة يجعلهم أقرب الى التفكير والتأمل والاستقرار والميل الى الهدوء والوقوف على الكتب من الجهلة الأميين ، الذين تتحكم العواطف والعنجهيات في عقولهم ، فتبعدهم عن حياة الهدوء والمسالمة .

ولم يصل الى علمي ان أحداً من الباحثين قد تمكن حتى الآن من الحصول على كتابات في العربية الجنوبية مدونة بهذا القلم الذي نكتب به ، ولكن هذا لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم استعمال أهل تلك البلاد له ، فقد يجوز أن يكونوا قد استعملوه في أمورهم التجارية وفي مراسلاتهم وأعمالهم الأخرى ، استعمال أهل مكة ويثرب له ، إلا انه لم تبق منه بقية بسبب كونه قد كتب على الأدم والمواد الأخرى السريعة التلف ، فلم تبق منه بقية ، شأن كتابات أهل مكة ويثرب المكتوبة على هذه المواد . إذ لا يعقل عدم وصول هذا القلم الى نجران والى صنعاء والى الأماكن التي وجدت النصرانية سبيلاً لها بينها ، وقد كان النصارى يكتبون به ، وهم من أهم العناصر التي أدخلته الى جزيرة العرب .

إن القلم الذي دوّن به الوحي ، والذي صار بفضله القلم الرسمي للعرب ولعدد كبير من الشعوب الاسلامية ، حمل في نفسه مثل أكثر الخطوط السامية وغيرها ،

---

١ تأريخ الادب العربي (٧٤) .

نقاط ضعف ، عولجت بعضها وتغلب عليها ، كما في موضوع تشابه الحروف مثل الباء والتاء والثاء ، حيث تغلب عليها بالتنقيط ، وكما في كيفية التلفظ بالحركات ، حيث عولج بوضع علامات لها فوق او تحت الحروف ، ومثل حرف (المد) والتنوين ، وأمثال ذلك ، مما جعل قارىء الكتاب يلاقي صعوبة كبيرة في قراءة الخط وفي فهم المراد منه ، تجلت في المحاولات التي ظهرت في صدر الاسلام لإصلاح هذا الخلل ، الذي ورد اليهم من نقلهم الخط نقلاً ،دون اجراء اصلاح عليه ، ومع ذلك فلا تزال هناك مواطن ضعف فيه يجب التغلب عليها ، نجدها مدونة في البحوث التي نقرأها بين الحين والحين في موضوع إصلاح الخط العربي ، لا مجال لسردها ولسرد حججها وأدلتها في هذا المكان .

أصل الخط :

ولقد اهتم المسلمون في موضوع أصل الخط عند البشر وفي منشئه وكيفية ظهوره . وذهبوا الى ان أول من وضع الخطوط آدم ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أظل الأرض الغرق أصاب كل قوم كتابهم . وقيل (أخنوخ) ، وهو (ادريس)[1]. وقالوا : « كان ادريس النبي عليه السلام أول من خطّ بالقلم وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكان من قبله يلبسون الجلود »[2] . وعرف عندهم بـ (هرمس الأول) ، « وهو المثلث النعم ، فإنه كان قبل الطوفان . ومعنى هرمس لقب، كما يقال قيصر وكسرى . وتسميه الفرس في سيرها اللهجد ، وتفسيره ذو عدل. وهو الذي تذكر الحرانية نبوته . وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، وهو آدم . ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ . وهو بالعربية ادريس »[3] . وقالوا : « إن ادريس أول من درس الكتب ، ونظر في العلوم ، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو

---

١ صبح الاعشى (٦/٣ وما بعدها) ، حكمة الاشراق ، للزبيدي (٦٤) ، (نوادر المخطوطات) .

٢ عيون الاخبار (للدينوري ٤٣/١) ، (الكتاب والكتابة) .

٣ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٠ وما بعدها) ، (ابنجهبذ) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٥ وما بعدها) .

أول من خاط الثياب ولبسها »[1] . وذكروا أنه عرف بـ (هرمس الهرامسة) ، تمييزاً له عن (هرمس الثاني) ، وهو (هرمس البابلي) ، وعـن (هرمس الثالث)،وهو (هرمس المصري)[2] . وانه هو باليونانية أرميس وعرب بهرمس. ومعنى أرميس عطارد وانه بالعبرانية (خنوخ) وعُرب (أخنوخ) . وسمـاه الله في كتابه العربـي المبين ادريس . وان معلمه اسمه (اغثاذيمون) المصري . الى غير ذلك من قصص[3] نجده في كتب أهل الأخبار .

وهو في زعم أهل الأخبار (أخنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش ابن شيت بن آدم) . ومولده بمصر في مدينة (منف) . ووصفوه وصفاً كأنهم كانوا معه وقد شاهدوه وجالسوه ، فقالوا : « كان عليه السلام رجلاً آدم اللون تام القامة ، أجلح ، حسن الوجه ، كث اللحية ، مليح التخاطيط ، تام الباع، عريض المنكبين ، ضخم العظام ، قليل اللحم ، براق العين أكحل ، متأنياً في كلامه ، كثير الصمت ، ساكن الأعضاء ، اذا مشى أكثر نظره الى الأرض ، كثير الفكرة ، به حدة وعبسة ، يحرك اذا تكلم سبابته »[4]. وكان كثير الأسفار : زار الهند ، وجاء الى فارس وبابل . وعرف بـ (ارمس) عند اليونان . وهو « اسم عطارد . ويسمى عند اليونان أطرسمين »[5] . « استخـرج سائر الصنائـع والفلسفة والطب »[6] . وهو الذي علم (اسقلبيوس) الطب .. وهو أول من تكلم في شيء من الطب على طريق التجربة وامـام الطب ، وأبو أكثر الفلاسفة[7] . « وأول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وان جده كيومرث ، وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى الهياكل ومجّد الله فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه . وانه ألّف لأهل زمانه كتباً كثيرة، وأشعاراً

---

١ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكمـاء (ص ٥ وما بعدها) .

٢ ابن جلجل ، طبقاء الاطباء والحكماء (ص ٨ وما بعدها) ، ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (ص ٢ وما بعدها) .

٣ ابن القفطي ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٢) .

٤ ابن أبي أصيبعة ، عيون (٣١) .

٥ ابن أبي أصيبعة ، عيون (٣١) .

٦ المصدر نفسه (ص ١٢) .

٧ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٢٩ وما بعدها) .

موزونة وقواف معلومة بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية . وهو أول من أنذر بالطوفان ، ورأى ان آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار ، وكان مسكنه صعيد مصر ، تخير ذلك فبنى هناك الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي ، وهو الجبل المعروف بالبرابر بأخميم وصوّر فيها جميع الصناعات وصناعها نقشاً ، وصوّر جميع آلات الصناع ، وأشار الى صفات العلوم لمن بعده برسوم حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم »[1] .

ونسبوا له النبوة والقول بالتوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على الزهد والعدل والصيام أياماً معروفة في كل شهر والجهاد على الأعداء وايتاء الزكاة معونة للضعفاء ، وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة والحمار والكلب . وحرّم المسكر من كل شيء من المشروبات ، وشدد فيه أعظم تشديد ، وجعل لهم أعياداً كثيرة ، وقربانات . ورتّب الناس ثلاث طبقات : كهنة وملوكاً ورعية . وجعل مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك ، لأن الكاهن أقرب الى الله من الملك والرعية[2] .

و (هرمس) من (أرمس) Ermis ، اسم إلـه من آلهة اليونان . ويقابل الإلـه (تحوت) Thot عند قدماء المصريين . وينسب المصريون اليه اختراع كل علم . ويقابل Mercurius عند الرومان . وهو (عطارد) عند العرب .وقد عرف عند المسلمين بـ (هرمس المثلث النعم) وبـ (المثلث النعم) ، وقد أخذ ذلك عن اليونانية ، إذ لقب فيها بـ (طريسميجيسطيس) Hermes Trismegistes ومعناه ثلاثي التعليم . وقد عرّبوه فجعلوه (اطرسمين)[3] . وقد وقف المسلمون على قصص قديم شاع بين البابليين والمصريين والعبرانيين واليونان والرومان والفرس عن أصل المعرفة وكيف ظهرت بين البشر ، فمزجوا بينها وجسّموها في قصص ادريس . وفي جملة ذلك اختراع الكتابة ، فنسبوها اليه .

ولأهل الأخبار آراء في كيفية ظهور الكتابة عند كل أمة من الأمم . أخذوها من أهل الكتاب أيضاً ومن القصص والأساطير . فذكروا مثلاً ان الله أرسل ملكاً

---

١ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء (ص ٣٢) .
٢ ابن القفطي ، تاريخ الحكماء (٥ وما بعدها) .
٣ ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء (ص ٦ وما بعدها) ، Shorter Ency. p. 158.

اسمه (سيمورس) ، علم آدم الكتابة السريانيـــة ، على ما في أيدي النصارى . وتفرعت منها ثلاثة أقلام ، وهي : المفتوح ويسمى اسطرنجالاً ، وهو أجلّهـــا وأحسنها ، ويقـــال له الخط الثقيل ونظيره قلم المصاحف . والتحرير المخفف ، ويسمى اسكوليثا ، ويقال له الشكل المدور ، ونظيره قلم الوراقين . والسرطا وبه يكتبون الترسل ، ونظيره في العربية الرقاع[1] . وذكروا ان أول من كتب بالفارسية (جم الشيد بن اونجهان) (جمشيد) (جم شيد) ، « وكان ينـــزل أسان من طساسيج تستر ، فزعمت الفرس انه لما ملك الأرض ودانت له الجن والانس وسخر له ابليس ، أمره ان يخرج مـــا في الضمير الى العيان فعلّمه الكتابة[2] . وزعموا ان أول من كتب بالعبرانية عابر بن شالخ ، وضع ذلك بين قومه فكتبوا به[3] . وزعموا ان اليونان لم يكونوا يعرفون الخط حتى ورد رجلان من مصر ، يسمى أحدهما قيمس والآخر أغنور ومعهما ستة عشر حرفاً ، فكتب بها اليونانيون ، ثم استنبط أحدهما أربعة أحرف ، فكتب بها . ثم استنبط آخر يسمى سمونيـــدس أربعة أخر ، فصارت أربعاً وعشرين[4] .

ترى مما تقدم أن أهل الأخبار أخذوا أخبارهم المتقدمة عن نشوء الخط ، من اهل الكتاب ومن الأساطير المترسبة من القصص الساذج القديم الذي كان شائعـــاً عند الشعوب القديمة ، ثم صاغوه صياغة اسلامية ، دون نقد ولا تمحيص ، ومراجعة لاستخراج عناصر السذاجة والخرافات منها ، وسبب ذلك أن ملكة النقـــد كانت هزيلة عندهم ، وقد تقبلت كل ما سمعته من (أهل العلم الأول) دون نقد ولا تمحيص ، تقبلت حتى الخرافات والأباطيل المخالفة لأبسط قواعد المنطق والعقل .

قلم النبط :

وقلم النبط هو على عكس الأقلام العربية الأخرى التي عرفناها ، وهي : المسند ، والقلم الثمودي ، والصفوي ، واللحياني ، قلم يرجع أصله الى القـلم الذي ينتمي اليه قلم بني إرم وقلم تدمر ، والى المجموعة السامية الشمالية للخطوط . وقد تطور

---

١ الفهرست (٢٤) .
٢ الفهرست (ص ٢٥) .
٣ الفهرست (ص ٢٨) .
٤ الفهرست (ص ٢٩) .

القلم النبطي ، كما تطور غيره من الخطوط ، فصار له قلم قديم وقلم متأخر ، امتاز بميله الى ربط حروفه بعضها ببعض ، حتى اكتسب شكلاً يمكن قراءة القلم العربي الشمالي من التعرف عليه بسهولة ، وبعد استعراض قليل له . وقد عمل مهندسو هذا الخط في تمديد بعض الحروف نحو اليسار ، حتى ابتعدت عن سمياتها في الأبجدية الإرمية بعض البعد .

إن هذا التطور الذي مرّ به الخط النبطي،يظهر لنا أن النبط لم يكونوا يقنعون بالأخذ والاقتباس ، وإنما كانوا يكيفون ما يتلقونه من غيرهم ويطورونه حتى يكتسب شخصية خاصة مستقلة .

هذا ولا بد لي من الإشارة الى أن الألف في اللهجة النبطية قد تقوم مقام الهمزة في أبجديتنا في بعض الأحيان،وقد تقوم مقام المدة (آ) A عند وجودها في وسط اللفظة وفي نهايتها . وقد يحل محلها الحرفان الـ (و) والـ (ي) كما في (روفو) في موضع (رأفو) ، و (رُأف) و (اروس) في موضع (أرأس) . ولما كانت الألف من الحروف الساكنة في الأبجديات السامية في الغالب ، فاستعمالها في موضع الألف الممدودة وإحلال بعض حروف العلة في موضعها في النبطية وفي بعض الأبجديات السامية ، يدل على أن الأبجديات السامية المتأخرة نظرت اليها على أنها من حروف العلة المعبرة عن بعض الأصوات[1] .

وحرف الـ (ج) هو (كيمل) في الأبجديات السامية ، وهو قريب في النطق من الكاف (ك) (كاف) الفارسية . غير أن الكتابات النبطية المتأخرة استعملت هذا الحرف في مواضع كثيرة على نحو نطقنا بالجيم في عربيتنا[2] .

---

١ Nabataen Inscriptions, Leiden, 1914 ,p. 37 ff, in Publi. of the Princ. Univ. Archae. Expedi. to Syria, Section A ,Semitic Inscriptions, p. XXV.

٢ المصدر نفسه .

الفصل الثاني والعشرون بعد المئة

المسند ومشتقاته

والمسند من الأقلام العتيقة ، وهو أعتق من القلم النبطي المتأخر ، وهو أقدم الأقلام التي عرفت في جزيرة العرب حتى الآن . وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة ان استعماله لم يكن قاصراً على اليمن حسب ، بل لقد كان القلم المستعمل في كل أنحاء بلاد العرب . وقد استعمله العرب في خارج بلادهم أيضاً، لأنه قلمهم الوطني الذي كانوا به يكتبون فعثر في موضع قصر البنات على طريق (قنا) على كتابات بهذا القلم[1] ، كما عثر على كتابة بهذا القلم كذلك بالجيزة كتبت « في السنة الثانية والعشرين من حكم بطلميوس بن بطلميوس » . وهي ليست بعد سنة (٢٦١) قبل الميلاد بأي حال من الأحوال[2] . وعثر على كتابات بالمسند في جزيرة (ديلوس) من جزر اليونان[3] .

---

١ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 56, M.A.S .Tritton. Nous Signale deux Graffites, Publiés par A. E. P., Weigall, Travels in the upper Egyptian Deserts, London and Edinbourg, 1909, PL. IV, Fig. 13, 14, H.A. Winckler, Rock Drawings of Southern upper Egypt. I, London, 1928, Site I, p. 4, Ryckmans, in Le Muséon, XLVIII, (1935) ,p. 228, J. Leibovich, Les Inscriptions Protosinaitiques, Le Caire, 1934.

٢ F. V. Winnett, « The Place of the Minaeans in the History of Pre-Islamic Arabia », in BOASOOR, Num : 73, February, 1939.

٣ المصادر المذكورة .

وذكر السائح الانكليزي (وليم كنت لوفتس William Kennett Loftus) انه لاحظ فجوة في (وركاء) Uruk في العراق ، فبحث فيها ، فتبين له انها كانت قبراً وجد في داخله حجر مكتوب بالمسند ، فيه : ان هذا قبر (هنتسر بن عيسو بن هنتسر)[1] .

ولهذه الكتابة المدونة بالمسند ، أهمية كبيرة جداً ، لأنها أول كتابة وجدت بهذا الخط في العراق . وهي تشير الى الروابط الثقافية التي كانت بين اليمن والعراق ، والى وجود أشخاص في هذا المكان كانوا يستعملون المسند ، سواء أكانوا عراقيين أم يمانيين .

وقد عثر على كتابات بالمسند في مواضع من الحجاز ، ويظهر أنه كان قلم الحجازيين قبل الميلاد . وقد وصل هذا القلم الى بلاد الشأم . فقد عثرت بعثة علمية قامت بأعمال الحفر في ميناء (عصيون كبر) (عصيون جابر) Ezion Geber على جرار عليها كتابات بحروف المسند رأى بعض العلماء أنها معينية ، تفصح عن الأثر العربي في هذا الميناء المهم الذي حاول سليمان أن يجعله ميناء اسرائيل على البحر الأحمر[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار أن غير اهل اليمن ، لم يكونوا يستعملون المسند في كتابتهم ، ولا يتعاطونه ، كالذي يستفاد من قصة (قيسبة بن كلثوم السكوني) ، وكان ملكاً وقع في أسر بني عامر بن عقيل ، فذكر انه كتب بالسكين على مؤخرة رجل أبي الطمحان حنظلة بن الشرقي أحد بني القين بالمسند، يخبر قومه بوقوعه في الأسر . ولم يكن أحد من غير أهل اليمن يكتب بالمسند ،

---

١ Travels and Researches in Chaldaea and Susiana, by W. K. Loftus, London, MDCCCLVII, p. 233, Corpus Inscriptionum Semiticarum, IV, As NUM : 699.

٢ لم يعين موضع المكان بالضبط ولا يبعد كثيرا عن (أيلة) على خليج العقبة ومنهم من يظن أنه كان عند موضع (عين الغديان) الذي هو على بعد عشرة أميال من البحر في قعر (وادي العربة) . وكان (خليج العقبة) على ما يظن بعض العلماء يمتد قديما الى هذا الموضع ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٦/٢) ،
Ency. Bibli., p. 1472, BOASOOR, NUM : 75, p. 19
NUM : 71, p. 15, Revue Biblique, XLVIII, 1939, p. 247, Asia, May, 1939, p. 294.

فلما قرأه القوم ، ساروا الى بني عامر ، وفتكوا بهم ، وأنقذوا قيسبة منهم[1] .

ورواية أهل الأخبار هذه لا يمكن أن تكون دليلاً على عدم وقوف غير أهل اليمن على المسند في العهود البعيدة عن الإسلام . ولا على عدم استعمالهم لذلك القلم في حياتهم اليومية . لأن علم أهل الأخبار بأحوال الجاهليين لا يرتقى كما سبق أن قلت الى عهود بعيدة عن الإسلام ، ولأن في أكثر الذي ذكروه عنهم ، قصص ونسج خيال ، يستوي في ذلك حتى ما ذكروه عن الجاهلية الملاصقة للإسلام ، ثم إن في الذي عثر عليه السيّاح من كتابات مدوّنة بالثمودية أو بأقلام أخرى مشتقة من قلم المسند ما يفند الرواية المذكورة في عدم استعمال غير أهل اليمن للمسند وفي عدم وقوفهم عليه . ويمكن حمل كلامهم في عدم استعمال أهل الحجاز أو غيرهم للمسند على أيام الجاهلية القريبة من الإسلام . حيث ظهر القلم العربي الشمالي .

والرواية لا يمكن أن ترتقي الى زمن بعيد عن الاسلام . فنحن نعلم ان (حنظلة بن شرقى) المعروف بالطمحان ، وهو من (بني القين بن جسر)[2] كان شاعراً فاسقاً من المخضرمين . وكان نديماً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية، ثم أدرك الاسلام[3] ، ولو صدقنا الرواية المذكورة وأخذنا بها ، وجب ان تكون الكتابة قد وقعت قبيل الاسلام ، ومعنى ذلك ان (قيسبة) وهو من (بني السكون) كان يكتب بها ، أي ان المسند كان معروفاً ويكتب به خارج اليمن في هذا العهد ، ولهذا يكون قول (الاصبهاني) : « وليس يكتب به غير أهل اليمن » ، مغلوطاً ، لأن (قيسبة) لم يكن من أهل اليمن ، حتى يصح قوله .

وكشفت العروض ونجد وأماكن أخرى عن سر كان العلماء يبحثون عنه في شوق ، فقدّمت للعلماء عدداً من الكتابات المدونة بالمسند ، وبذلك ثبت علمياً ان (المسند) كان معروفاً قبل الاسلام في كل جزيرة العرب ، وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح ، اي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يظن بعد الميلاد.

ففي سنة ١٩١١ للميلاد عثر (الكابتن شكسبير) Capt. W.H. Shakespear[4] على

---

١ (وليس يكتب به « أي بالمسند » غير أهل اليمن) ، الاغاني (١١/١٢٥) .

٢ الاشتقاق (٣١٧) .

٣ الخزانة (٣/٤٢٦) ، الشعر والشعراء (١/٣٠٤) ، المؤتلف (١٤٩) ، الاغاني (١١/١٢٥) ، السمط (٣٣٢) .

٤ BOASOOR. Nub. 102, (1946), p. 4.

كتابتين بالمسند في موضع (حنا) (الحنأة)[1] وفي خرائب (ثـج) (ثأج) التي تبعد خمسين ميلاً تقريباً عن ساحل الخليج وزهاء مئة ميـل من شمال غربي القطيف[2] . وقد نشر ترجمة الكتابتين (ماركليوث)[3] . وعثر بعد ذلك على كتابة أخرى في موضع (ثج) (ثأج) دخلت في ملك أمير الكويت ، وقـد نشر ترجمتها (ركمنس)[4] . وهي حجر قبر لشخص من قبيلة (شذب) . وعثر على كتابة أخرى في هذا الموضع ، وقد بلغ عدد ما عثر عليه في هذا المكان أربع كتابات[5] .

وعثر عُمال شركة البترول العربية السعودية الأمريكية (أرامكو) في أثنـاء الحفر على مقربة من (عين جوان) (جون) (جاوان)[6] عام ١٩٤٥ للميلاد على حجر مكتوب تكسرت بعض أطرافه بالمعاول قبل معرفته ، اتضح بعد أنه حجر قبر لامرأة يقال لها (جشم بنت عمرت) (عمرت) بن تحيو من أسرة (عور)

---

١ (حنا : لعل صوابها الحنأة ، واحدة الحنأة بتسهيل الهمزة كما هي عادة عرب هذا الزمان في الكلمات المهموزة • والحنأة : موضع يقع غرب بلدة الجبيل ـ المعروفة قديما باسم (عينين) الواقعة على البحر الشرقي (الخليج الفارسي) • وتبعد الحنأة عن الجبيل ٨٣ كيلومترا ، وتقع على ممر الطريق منه ومن الظهران والأحساء ولمن يقصد الكويت أو العراق أو نجدا) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م ، (عينين) ، البلدان (٢٥٨/٦) •

٢ (ثأج بالجيم : قال الغوري : يهمز ولا يهمز عين من البحرين على ليال • وقال محمد ابن ادريس اليمامي : ثاج قرية بالبحرين) ، البلدان (٢/٣) ، (ثج) ، وهي التي وردت في الشعر العربي القديم • وفي ياقوت مهموزة • ولكن العرب في هذا العهد لا يهمزونها • وثأج : موضع فيه سكان وزروع قليلة ، يقع بقرب الحنأة في الجنوب الغربي منها بمسافة لا تتجاوز عشرة كيلومترات) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تاريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ ، البكري ، معجم (٣٣٣/١) •

٣ Douglas Crruthers ,« Captin Shakespear's Last Journy », in the Geographical Journal, LIX, (1922), 321-323, Corpus Inscriptionum Semiticarum, Nos. 984 - 985.

٤ Ryckmans, in Le Muséon, L, p. 239, Ryckmans 155.

٥ Le Muséon, L, p. 237, Ryckmans 155.

٦ (عين جوان ـ الصواب : جاوان) ، ويقع موضع جاوان في داخل الرأس المعروف حديثا باسم (رأس تنورة) في الجهة الشمالية منه على ساحل البحر ، بعد مدخل الرأس ببضعة كيلومترات • وكانت عينه تسقي نخيلا وزروعا ولكن ماءها قل ، حتى زالت مزروعاتها • كتاب من السيد حمد الجاسر ، تأريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م •

(آل عور) من قبيلة شذب[1] .

واستخرج (كورنول) P.B. Cornwall لوحاً مكتوباً بالمسند كان مدفوناً في أحد بساتين القطيف ، دفنه أصحاب البستان ، وقد ذكر أنه نقل من جزيرة (ثاروت) أو من موضع لا يبعد كثيراً عن القطيف ، وقد وجد أن هذا اللوح هو مثل الألواح التي عثر عليها قبلاً ، شاهد قبر ، وضع على قبر رجل يقال له (ايليا بن عيني بن شصر من أسرة سمم من عشيرة ذال من قبيلة شذب)[2] . ويرى بعض الباحثين أن صاحب القبر كان نصرانياً ، عـاش في القرن الخامس أو السادس للميلاد .

وعثر على شاهد قبر آخر مدوّن بالمسند ، هو شاهد قبر (شبام بنت صحار ابن عنهل بن صامت) من قبيلة (يدعب) ، وجد على مقربة مـن القطيف[3] . و (يدعب) بطن من بطون قبيلة (شذب) . ويظهر أن قبيلة (شذب) كانت من القبائل المعروفة في العروض ، وكانت ذات عدد من البطون ، ولا تحمل الكتابة تأريخاً ، ويرى الذين درسوها أنها تعود الى القرن السادس للميلاد . وأمـا الرقم الذي ذكر في نهاية النص وهو رقم (٩٠) ، فالظاهر أنه يشير الى عمـر صاحبة القبر[4] .

هذا ما عثر عليه من كتابات بالمسند في العروض . وأما في أواسط جزيرة العرب وفي باطنها وفي الأماكن التي لم يكن يتصور العثور فيها على أثر لحضارة ، فقد عثر فيها على كتابات بهذا القلم كذلك ، ولهذه الكتابات أهمية كبيرة ؛ لأنها أول وثيقة تأريخية لا يتطرق اليها الشك ، ترد الينا عن هذه المناطق التي لم يرد لها ذكر مفصل عند المؤرخين السابقين ، لأنها أول دليل عملي يثبت انتشار هذا الخط في أواسط جزيرة العرب . عثر (فلبي) في هذه المناطق على فخـار وآثار

---

١ BOASOOR, NUM : 102, April 1946, p. 4, « A Himjaritic Inscription from the Persian Gulf Region », by F.V. Winnett, BOASOOR, Supplementary Studies Nos. 7-9, « The Early Arabian Necropolis of Ain Jawan », by Richard Lebron, 1950.

٢ Geographical Journal, Vol. CVII, 1-2, 1946, « Ancient Arabia : Explorations in Hasa, 1940-1941 », by P.B. Cornwall, p. 44.

٣ المصدر نفسه (ص ٤٥) .

٤ المصدر نفسه .

أرسلها الى المتحف البريطاني ظهر انها تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد . ويظن من فحصها انها من آثار السبئيين[1] . كما عثر على كتابات وصور ، وبقايا مقابر وعظام .

وقد صور (فلبي) بعض الكتابات ، وصور بعضاً آخر رجال شركة البترول العربية السعودية الذين وصلوا الى هذه المواضع للبحث عن البترول . وقد وصلت تصاوير عدد منها الى العلماء فنشروا نصوصها وترجماتها ، مثل كتابات (القرية) أو (قرية الفأو) التي سبق أن تحدثت عنها . وقد وجد اسم الصنم (ودّ) مكتوباً بحروف كبيرة بين تلك الكتابات[2] ، وحيث أن هذه الكنوز الثمينة إنما عثر عليها ظاهرة على سطح الأرض ، وحيث أن الباحثين لم يفحصوا الكهوف فحصاً دقيقاً ، ولم ينظفوها من الأتربة والرمال التي في داخلها ، فإننا نأمل العثور على أشياء ثمينة ذات بال بالنسبة للتأريخ الجاهلي إذا اهتمت الحكومة العربية السعودية بهذا الأمر ، وقامت بتجهيز بعثة علمية من المتخصصين بالأثريات العربية ، أو سهلت للعلماء وللبعثات سبل الوصول اليها ، وحافظت على تلك الآثار من التلف وعبث العابثين .

ووجد (فلبي) كهوفاً ومقابر في مواضع أخرى من (وادي الفأو) ، وقد وجدت حيطان بعض الكهوف (سردب) (سرداب) مكسوة بالكتابات (والوسم) والتصاوير المحفورة . ويظهر أن أبنية ضخمة كانت في هذه الأماكن[3] .

وعثرت شركة (أرامكو) على رأس نحت من الحجر في (القرية) كتب عليه بالمسند أنه (ثار ونفسي علزن بن قلزن غلونين)[4] ، أي (اثر وقبر علزان ابن قلزان الغلوني) . كما وجدت كتابات بهذا القلم عند جبل عبيد وفي حصن ناطق وفي شمال موضع (خشم كمدة) على مسافة (١٠٠) كيلومتر من شمال قرية

---

١ « A Further Journey across the Empty Quarter », by W. Thesiger, in Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 21.

٢ Geographical Journal, CXIII, (149), p. 91.

٣ Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 90, Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 87.

٤ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 87, Qariya, I, Philby 221a.

الفأو في وادي الدواسر[1] ، وفي (وادي هـبن) (حبن)[2] على (١٢٠) ميلاً شمال شرقي عدن[3] . وفي (عين قرية) على (٣٠) ميلاً تقريباً من شمال (زفر) وفي (منخلى) في جنوب خشم العرض حيث يعتقد البدو أن هذا الموضع هو بئر من آبار عاد[4] .

لم يفسر علماء العربيـة سبب تسمية (المسند) مسنداً ، وقد قرأت لإسرائيل ولفنسون تعليلاً لتسمية هذا القلم مسنداً ، فقال : « والخط المسند يميل الى رسم الحروف رسماً دقيقاً مستقيماً على هيأة الأعمدة . فالحروف عندهم على شكل العمارة التي تستند الى أعمدة . وعلى العموم فإن لحضارة جنوب بلاد العرب عقلية تنحو نحو الأعمدة في عمارة القصور والمعابد والأسوار والسدود وأبواب المدن .

ومن أجل ذلك يوجد عندهم ميل شديد لإيجاد حروف عـلى هيأة الأعمدة ، أي ان الحروف كلها عبارة عن خطوط تستند الى أعمدة .

وقد تنبه علماء المسلمين الى شكل هذه الكتابات وأطلقوا عليها لفظة المسند ؛ لأن حروفها ترسم على هيأة خطوط مستندة الى أعمدة »[5] .

وهو رأي سبقه اليه (ليدزبارسكي) Lidzbarski إذ أشار الى أثر العـمارة والأعمدة في شكل هندسة حروف الخط المسند[6] وهو تفسير يشبه تفاسير الأخباريين واللغويين للأسماء والأعلام التي لا يعرفون من أمرها شيئاً ، فيلجأون الى الخيـال ليبتكر لهم سبباً وتعليلاً يناسب الكلمة،ويتصورون عندئذ أنهم قد أوجدوا السبب، وأن من يأتي بعدهم سيكتفي بذلك ويأخذ به .

وكذلك كوّنت كلمـة (المسند) في مخيلة (اسرائيل ولفنسون) ولـدى (ليدزبارسكي) فكرة استناد خطوط الحروف وقيامها بعضها الى بعض استناد المباني،

---

١ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 99, Philby, Wadi Dewasir, I,

٢ هكذا ورد في مجلة (Le Muséon) (هبـن) (Haban) بدون نقـطة أو عـلامة تحت حرف H تدل على أنه (حاء) . ولعل الكلمة (الحبن) ، وهو موضع ذكره الهمداني في صفة جزيرة العرب (ص ٦٨) .

٣ Le Muséon, LXII, 1-2, (1949), p. 103.

٤ Geographical Journal, CXIII, (1949), p. 31, 34.

٥ تأريخ اللغات السامية (٢٤٣ وما بعدها) .

٦ Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 114, Hommel, Grundriss, Erste Halfte, S. 146.

وقد وجدا من مباني اليمن وقصورها ما قوى هذا الخيال عندهما ، مع ان كلمة (المسند) التي تطلق في المؤلفات العربية الاسلامية على خط أهل اليمن قبل الاسلام لا علاقة لها بالقصور والمباني،واستناد أجزاء الحرف الواحد بعضها الى بعض ؛ وانما تعني شيئاً آخر ، تعني خط أهل اليمن القديم لا أكثر ولا أقل . وكلمة (مسند) (مزند)[1] في العربية الجنوبية تعني (الكتابة) مطلقاً ، وقد وردت في مواضع متعددة من الكتابات والنقوش ، فورد في نص أبرهة مثلاً (سطرو ذن مزندن) ، وترجمتها : (سطروا هذه الكتابة) ، وتؤدي كلمة (سطرو) المعنى نفسه الذي يرد في لغتنا ، وهو : (سطروا) ، اي كتبوا ودوّنوا ، فكلمة (مزندن) التي صارت (المسند) في عربيتنا تعني في العربية الجنوبية ما تعنيه كلمة الخط او الكتابة في لغة القرآن ، ولم تكن مخصصة عند اليمانيين بخط حمير ، او غير حمير،وانما حدث هذا التخصيص في المؤلفات الاسلامية فصار فيها (المسند) اسم علم لخط حمير وحده . ولا ندري متى حدث ذلك : أحدث في الجاهلية المتصلة بالاسلام أم في الاسلام ؟

واذا كان هذا التخصيص قد وقع في الاسلام ، فإننا لا نستطيع أيضاً التكهن عن الوقت الذي ظهر فيه هذا التخصيص ، لأننا لا نملك مصادر اسلامية تشير الى هذا ولا مؤلفات من صدر الاسلام يمكن ان نجد فيها ما نبحث عنه .

ويتألف المسند من تسع وعشرين حرفاً،وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث انها تتألف من الحروف الصامتة ولا حركة في الكتابة فيها ولا ضبط في أواخر الكلمات ولا علاقة للسكون او للتشديد . ويفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل هو خط مستقيم عمودي . وقد يكتب الحرف المشدّد مرتين كما في اللغات الأوروبية .

ومما يلاحظ على الكتابات المعينية انه لم يطرأ عليها تغيير كبير في العهود التي مرت بها . أما الكتابات السبئية ، فيمكن التمييز بين القديم منها والمتأخر في الأسلوب ، وفي شكل الكتابة[2] .

---

١ بحرف الزاي في لغة أهل اليمن لا السين .

٢ غويدي : المختصر في علوم اللغة العربية الجنوبية القديمة ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، (ص ٣) ،
Höfner, Altsüdarabische Grammatik, Leipzig, 1943, Weber, S. 12, Pfannmuller, S. 86, Mordtmann, Beiträge zur Minäischen Epigraphik, Weimar, 1896.

وللمسند ميزات امتاز بها عن القلم العربي ، فحروفه منفصلة ، وهي بشكل واحد لا يتغير بتغير مكان الحرف من الكلمة . فإذا جاء الحرف في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، كتب بشكل واحد . وقد جعلت هذه الخاصية لهذا القلم ميزة أخرى ، هي ميزة الكتابة به من أي جهة شاء الكاتب ان يبدأ بها. فله ان يكتب من اليمين الى اليسار وله أن يكتب من اليسار الى اليمين ، وله ان يمزج بين الطريقتين ، بأن يكتب على الطريقة الحلزونية ، من اليمين الى اليسار، ثم من اليسار الى اليمين ، ثم من اليمين الى اليسار ، أو العكس، وله أن يكتب من أعلى الى أسفل أو العكس وهكذا ، ثم ان حروفه غير متشابهة لذلك لم يعرف المسند الإعجام ، ولو كتب له ان يكون قلم المسلمين ليسّر لنا اليوم وقتاً ومالاً في موضوع الطباعة به . ولكنه أبطأ في الكتابة نوعاً ما من الخط العربي لشكل حروفه الضخمة بالنسبة الى الحروف العربية المختزلة ، فالخط العربي يمتاز عليه بهذه الناحية فقط . أما موضوع الشكل ، فالمسند غير مشكول،بل يكتب بحروف صامتة فقط .

وفي القرن التاسع عشر وما بعده كشف المستشرقون النقاب عن أقلام أخرى لم يعرفها علماء العربية ، هي : القلم الثمودي ، والصفوي،واللحياني . وكتابات أخرى كتبت بلهجات محلية عثر عليها في الجوف ، وفي الحجر وفي العلا، وفي مناطق أخرى كجبل شيحان ، وكوكبان ، وجبل شمّر ، لها بعض الخصائص والمميزات اللغوية . والظاهر ان خط هذه الكتابات كان مستعملاً بين السواد في الأمور الشخصية [1] .

أما القلم الثمودي ، فقد عثر على كتاباته في العربية الغربية ، وفي الجمهورية العربية السورية وفي المملكة الأردنية الهاشمية وفي الحجاز ، فقد عثر على كتاباته في مواضع متعددة من الحجاز ، فيما بين المدينة ومكة وعلى مقربة من الوجه والطائف ، وفي (ربع الزلالة) عند السيل الكبير على طريق الطائف

---

١ Grundriss, I, S. 147, Transaction of the 9th Inter. Congr. of Orientalists, Vol. I, p. 86, (London), 1893, Uber die Protoarabischen Inschriften, in Aufs und Abh., S. 41, 161, Saudarabische Chrestom., S. 6, Lady A. Blunt, A Pilgrimage to Nejd, London, 1881, Vol. 2.

مكة[1] . وعثر على كتابات ثمودية في (حائل) وأماكن أخرى من نجد وفي اليمن. وفي هضبات شبه جزيرة سيناء[2] .

هذا وقد عثر على كتابات ثمودية كثيرة في (ريع الزلالة) (سيل الغربان)، الى الشمال من الطائف على مسافة أربعين كيلومتراً منها[3] . وفي وادي (الاب)[4] ، وفي مواضع أخرى من الحجاز ونجد ، مما يدل على انتشار الثموديين في مواضع واسعة من جزيرة العرب .

وأما القلم الصفوي ، فقد عثر عليه في منطقة الصفاة شرقي الشأم ، وفي بادية الشأم ، ولا يعني هذا ان هنالك قبائل كانت تسمى قبائل صفوية ، بل هو اصطلاح أطلقه المستشرقون على الخطوط التي وجدت في ناحية الصفاة ، وهي تشتمل على كتابات قريبة من كتابة لحيان وثمود . كما عثر على كتابات صفوية في مواضع من بادية العراق ، ويوجد عدد منها في ملك مديرية الآثار القديمة العامة في العراق[5] . كما عثر على عدد كبير منها في المملكة الأردنية الهاشمية. وقد نشرت نصوص بعض منها في جريدة الآثار للمملكة الأردنية الهاشمية[6] .

والموطن الرئيسي للكتابات اللحيانية هو منطقة العلا ، ولا سيما موضع(الخريبة) والصخور الواقعة الى شرقه ، حيث عثر فيها على مئات من الكتابات التي تعود

---

١ (عقبة الزلالة ، الواقعة بين مكة وبين الطائف ، وهي ثنية ينحدر منها القادم من الطائف على السيل الكبير) ، الموضع المعروف قديما باسم (قرن المنازل) وتبعد عن هذا الموضع خمسة كيلومترات تقريبا وتقع في شرقيه ، وتسمى الآن (الريع الصغير) . وقد شاهدت بقربها بينها وبين السيل الكبير جبلا فيه كتابات كوفية قديمة . وحدثت بأن (فلبي) رأى في تلك الجهة تمثالا من الصخر منحوتا في الجبل يمثل رجلا واقفا ، وانه اطلع على كتابات قديمة في تلك الجهة) ، كتاب من السيد حمد الجاسر ، تأريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ م ،

٢ نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٤٣ م ، (ص ١٠٩) ، E. Littmann, Entzifferung der Thamudenischen Inschriften, 1904, Hubert Grimme, Die Lösung des Sinaischriftproblems, Die Altthamudischische Schrift, Münster, 1926.

٣ A. Grohmann, Arabic Inscriptions, Louvain, 1962, p. 2.

٤ كتابات من الادب ، للدكتور عبدالرحمن الانصاري ، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض ، المجلد الاول ، السنة الاولى (١٩٧٠) ، (ص ١١٣ وما بعدها) .

٥ راجع نشرات مديرية الآثار القديمة في العراق ومجلة سومر .

٦ Annual of the Department of Antiquities of Jordan.

الى شعب لحيان[1] .

والأقلام الصفوية والثمودية واللحيانية ، مثل المسند ، ليس لها علامات لا للفتح ولا للكسر ولا للضم ولا للاشباع ولا لاتحاد الفتحة والواو والبـــاء (أي الإمالة Diphthong) الخ ... كما ان حروفهـــا تأخذ صوراً متعددة ، فيرد الحرف الواحد في كل قلم من الأقلام المذكورة بصور مختلفة ، ولذلك تجابهنا صعوبات كبيرة في محاولتنا قراءة الكلمات والجمل قراءة صحيحة. ويحتاج القارىء الى مران طويل ودراسات للهجات العربية الأخرى لضبط الكلمات في هذه اللهجات، ومعرفة معانيها .

وقد لاحظ المستشرقون مشابهة كبيرة بين الأقلام المذكورة وبين المسند ، كما وجدوا هذه المشابهة بين عدد من الأقلام التي استعملت في غـــير جزيرة العرب والمسند،وبعد مقابلات بينها ودراسات ذهبوا الى تفرعها من المسند . وهذه الأقلام المذكورة كلها متأخرة عن المسند ، وتعود تواريخ قسم منها الى ما قبل الميلاد ، ومنها ما يعود تأريخه الى ما بعد الميلاد .

ومما يلاحظ على هذه الأقلام اختلاف صور أكثر الحروف فيها ، فقد تكون للحرف صورتان ، وأحياناً ثلاث صور أو أكثر ، غير ان هذا الاختلاف ليس كبيراً في الغالب بحيث يتعذر معه تمييز أشكال الحرف الواحـــد ، ولا نجد فيها الوضوح والبساطة التي نجدها في المسند ، كما لا نجد فيها هذه الخطوط المستقيمة المنقوشة بدقة وعناية في الكتابات المعينية او السبئية او الحضرمية او القتبانيـــة او الحميرية ، فكأن كتّابهم كانوا يرون العجلة في الكتابة والاسراع في التسطير لضيق الوقت ، لذلك لم تكن حروفهم دقيقة واضحة .

وأما الأقلام التي تشبه حروفها المسند . واستعملت عند أقوام عاشوا في أقطار لم تكن من جزيرة العرب ، فمنها القلم الحبشي القديم ، وقد عثر على كتابات به في منطقة (يحا) (يها) Jeha ، وهي تمثل أقدم نماذج الكتابات الحبشية،وقلمها هو القـــلم السبئي القديم ، وفي (اكسوم) وتعود الى القرن الرابع للميلاد[2] ،

١ Ency. Vol. 3, p. 26, Müller, Epigraphic Denkmäler aus Arabien, XXXVII, 1889, Jaussen and Savignae ,Mission Archéologique en Arabie, I, Paris, 1909, p. 263, Vol. II, p. VIII-XIV, 27-77, 361-534, Lidzbarski, Ephemeris fur Semit. Epigraphic, II, 23-48, 345-361, III, 214-217, F.V. Winnet, A Study of Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.

٢ السامية (٢٥٧) . Grundriss, I, S. 148.

وكتابات نصرانية كتبت باللهجة (الجعزية) وتعود الى القرن الخـــامس للميلاد[1]. وقد استعملت في هذه الكتابات الجعزية الأصوات مع الحروف ، وبذلك اختلفت عن الأبجديات السامية التي استخدمت الحروف الصامتة حسب ، وذلك بإضافة شيء يشبه الحركات في صلب الحروف يقرأ معها ولا تفهم هي بدونها[2] . ومع ذلك احتفظت بالأشكال الأصليـــة للحروف العربية الجنوبية ، ولم تبتعد عنها كثيراً . ويمكن إدراك أثر المسند في الكتابـــة الحبشية المستعملة في الوقت الحاضر دون كبير عناء .

وذهب كثير من المستشرقين الى أثر المسند نفسه أو بالواسطة في عدد من الأقلام الأخرى ، منها كتابات عثر عليها في إفريقية Meroitische Schrift في إحدى اللهجات الكوشية أو النوبية[3] . والخط البربري القديم الذي يعـود الى أيام قياصرة رومة . والقلم البراهمي (Brahma Script — Devanagari Alphbet) ،حيث نلاحظ شبهاً كبير بين حروف هذا القلم والمسند.ولا يستبعد أثر المسند فيه ؛ لأن العلاقات بين العربية الجنوبيـــة والهند كانت قديمة جداً[4] .

يظهر أن المسند كان القلم الرئيسي في جزيرة العرب قبل الاسلام ، وأن جزيرة العرب كانت تكتب به قبل المسيح . وأن أقلاماً تفرعت منه قبل المسيح وبعـــد المسيح ، لأسباب لا تزال غير واضحة ، وقد تكون لأشكال الحروف التي تتطلب دقة في الرسم علاقـــة بذلك ، فمال الكتّاب الى ابتكار أشكال مرنة لا تحتـــاج الى عناية في الرسم ، فاستخدموها في الكتابـــة لسهولتها . فتولدت منه الكتابات المذكورة .

---

١ Grundriss, I, S. 148, D.H. Muller, Epigr. Denkmäler aus Abessinien, Wien, 1894, Tafel, II, IV.

٢ السامية (٢٥٦) ،
Grundriss, I, S. 148, Glaser, Die Altabess. Inschr. von Marib, in ZDMG., Bd., 50, (1896), S. 468, Die Abessinier in Arabien und Afrika, München, 1895, S. 168.

٣ R. Lepsius, Denkmaler aus Aegypten und Aethiopien, VI, Bd., I-II in Bd., XI, Grundriss, I, S. 149.

٤ Grundriss, I, S. 149, Isaac Taylor, The Alphabet, Vol. 2, p. 314, Georg Buhlets, Indian Brahma Alphabet, Wien, 1895, p. 2, Ency. Brit. I, p. 683.

أصل القلم المسند :

ذكرت أن أكثر المستشرقين رأوا أن القلم العربي الذي دوّن به القرآن الكريم، أخذ من القلم النبطي المتأخر . أما المسند ، فقد رأى كثير منهم أنـــه اشتق من الأبجديات السامية الشمالية كـــذلك[1] . وذهب بعضهم ان أنه تفرع من الأبجدية السينائية ومنهم من قال إن الأبجدية العربية الجنوبية تفرعت من نفس الأصل الذي أوجد الخط الفينيقي ، فهي لذلك من أقدم الأبجديات المعروفة[2] . ونحن إذا أنعمنا النظر في شكل الأبجدية الطورسينائية والمسند، نجدهما لا تتشابهان إلا في رسم حرفين أو ثـــلاثة[3] . وتتكون الأبجدية الطورسينائية من اثنين وعشرين حرفاً كالفينيقيـــة والعبرانية . أما الأبجدية العربية الجنوبية ، فتتألف من تسعة وعشرين حرفاً ، أي بزيادة سبعة أحرف على أبجدية طور سيناء .

وحجة القائلين أن المسند قد أخذ من القلم الفينيقي ، وأن الأبجدية الفينيقية هي أقدم الأبجديات وأم الأبجديات[4].ولكننا إذا أنعمنا النظر في رسم حروف الأبجديتين، نجد التشابه بينهما في هيأة الحروف ورسمها ليس كبيراً ، كما أن الأبجدية العربية الجنوبية تزيد عليها في سبعة أحرف،وهذه الأحرف الزائدة لا تختلف عن الأحرف المشتركة بين الأبجديتين في هندسة الرسم والشكل . فلعل الأبجديتين قد تفرعتا من أصل واحد[5] ، فلا يعد المسند لذلك فرعاً نبت من الفينيقية .

وزعم نفر من الباحثين في تطور الخط أن المسند مشتق من القـــلم الكنعاني ، ولكن بعض علماء العربية الجنوبية ينكر هذا الرأي . إذ يرى أن المسند أقدم عهداً من الأبجدية الكنعانية ، وأن الكتابات العربية الجنوبية أقدم زمناً من أقدم الكتابات الكنعانية،فلا يصح إذن القول بأن المسند مشتق من القلم الكنعاني . ومما يلاحظ على الأبجديتين ان الأبجدية الكنعانيـــة يعوزها من الحروف : ذ ، ض ، ظ ، س (سامخ) ، ث ، غ . ولكن الأبجديتين تشتركان اشتراكاً تاماً في الحروف : ج ، ط ، ل ، ن ، ع ، ش ، ق ، ت ، و . وتختلفان في بعض الحروف

---

١ BOASOOR, NUM : 118, April 1950, p. 13.

٢ Background, p. 11.

٣ Ency. Brita. I, p. 680.

٤ Lidzbarski, Ephemeris, I, S. 109, The Art of Writing, p. 11.

٥ Grundriss, I, S. 145.

اختلافاً كبيراً ، وليس بمستبعد أن تكون الأبجديتان قد تفرعتا من أصل واحد .

والرأي عندي ان من الصعب البت في الوقت الحاضر في موضوع أصل المسند، لأن صور الأبجديات القديمة الواصلة الينا لا تزال قليلة ، ولا نجـد بين صورها وبين صور المسند تشابهاً كبيراً بحيث يمكن ان نستنبط من هذا التشابه حكماً يفيدنا في تعيين أصل المسند . والتشابه بين حروف قليلة لا يمكن ان يكون سبباً للحكم باشتقاق خط من خط . وعندي ان الأبجدية العربية الجنوبية تمثل مجموعة خاصة ، تفرعت من أصل لا نعرف من أمره اليوم شيئاً،لأن شكل حروف المسند لا يشبه شكل حروف الأبجديات المعروفة ، فلننتظر فلعل المستقبل يكشف للعلماء النقاب عن أبجديات مجهولة [1] .

ولا يعقل بالطبع ان يكون أهل العربية الجنوبية قد أوجدوا خطهم من العدم، من غير استعانة بعلم مسبق عن الحروف والأبجديات ، بل لا بد ان تكون أبجديتهم قد أخذت من أبجدية أخرى ، ومن فرع من فروع الخط الذي أوجدته البشرية، ودليل ذلك ان أسماء الحروف الأساسية التي ترد في كل أبجدية هي واحدة ، وفي وحدة الأسماء دلالة على وجود أصل واحد ، تفرعت منه الخطوط. والمسند بالنسبة لنا ، هو خط قائم بذاته ، يشابهه الخط الحبشي ، ومن فروعه الأبجدية اللحيانية والثمودية والصفوية . فكل هذه الأبجديات هي من فصيلة واحدة رأسها المسند ، أما ما فوق المسند ، فلا نعرف من أمره أي شيء .

وفي المسند حرف لا وجود له في أبجديتنا يكون على هذا الشكل :

وهـو بين الزاي والسين ، ولذلك يجعله البعض سيناً حين ينقلون نص كتابـة عربية جنوبية الى عربيتنا ، او الى اللغات الأوروبية . كما يقرأ حرف الجيم (٦) « گيما » في المسند على نحو نطق المصريين بهذا الحرف في لسانهم .

ومن القلم المسند أخذ الأحباش قلمهم الذي يكتبون به ، نقله اليهم السبئيون

---

١ السامية (٢٤٢ فما بعدها) .

الذين هاجروا الى الحبشة قبل الميلاد وأقاموا لهم حكومة هناك وأثروا في الأحباش، فكان من تأثيرهم فيهم هذا القلم الحبشي .

وحروف المسند منفصلة غير متصلة ، أعني انها ليست كحروف الأبجدية التي نكتب بها ، بل الحروف فيها مستقل بعضها عن بعض غير متصل به . ولتمييز الكلمات بعضها عن بعض ، وضع الكتّاب خطوطاً مستقيمة عمودية تشير الى انتهاء الكلمة والى ابتداء كلمة جديدة . وتبدأ الكتابة عندهم من اليمين في العادة، وتنتهي في اليسار ، غير انهم قد يكتبون من اليسار أيضاً ، وينتهون بالسطر في اليمين . وقد يمزجون بين الطريقتين فيبتدئون في اليمين مثلاً وينتهون بالسطر في اليسار ، ثم يبدأون في السطر الذي يليه من اليسار ، وينتهون في اليمين ، ويبدأون بالسطر الذي يليه من اليمين لينتهي باليسار، ويبدأون في الثالث من اليسار وينتهون باليمين، وهكذا حتى تنتهي الكتابة . أما اذا ابتدأوا بالكتابة من اليسار ، فينتهون بالسطر في اليمين ، ثم يبدأون في السطر الثاني باليمين لينتهوا بـــه في اليسار ، وليبدأوا بالسطر الثالث من اليسار ولينتهوا به في اليمين ، وهكذا يسيرون على هذا المنوال حتى تنتهي الكتابة . ويلاحظ ان لشكل حروفهم خاصية جعلتها تصلح لأن يكتب بها في أول الكلمة او في وسطها او في أواخرها من دون حاجة لاجراء اي تعديل على جسم الحرف العام ، لأنها حروف منفصلة غير مربوطة . وهي تمتاز من هذه الناحية عن حروف أبجديتنا ، التي ترتبط فيها الحروف ، فتستعمل حرف العين مثلاً في أول الكلمة بصورة تختلف عن صورة هذا الحرف اذا استعمل في الوسط، وتستعمل هذا الحرف في آخر الكلمة بصورة تختلف عن استعماله في أول اللفظة او في وسطها ، أي انها تحدث تغييراً على جسم الحرف . ولهذه الخاصية صار في الامكان الابتداء بحروف المسند من أية جهة أراد الكاتب أن يكتب بها من ناحية اليمين او من ناحية اليسار ، او بالجمع بين الطريقتين من غير أي تأثير في قابلية القارىء على القراءة ، كما صار من السهل على المبتدىء بالكتابة والقراءة تعـــلم الخط بالمسند بكل سهولة ، لوجود شكل واحد لا يتغير للحروف . فهو لهـــذا صار أسهل تعلماً من الخط الذي نكتب به الآن ذي الأشكال المتعددة الحروف، كما انه خال من التنقيط الموجود في عربيتنا لتمييز الحروف المتشابهة في هذا الشكل بعضها عن بعض ، وهو مما سبب لنا مشاكل خطيرة في كيفيـــة ضبط الحروف والألفاظ ، عند وقوع التصحيف ، بسقوط نقطة من الكتابة سهواً ، او بوضع

النقطة في موضع يجب ألا توضع فيه ، او بوقوع سهو في عدد النقط .

وقد راعى الكتاب استعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات مراعاة تامة ، لأنها هي العلامة الوحيدة التي ترشد القارىء الى انتهاء لفظة وابتداء لفظة جديدة، ولم يخطر ببالهم وضع فراغ بين نهاية كلمة وابتداء كلمة جديدة ، أو لأنهم لأمر ما لم يستعملوا هذا الفراغ خشية حصول التباس قد يفسد على القارىء قراءته ، وقليلاً ما خالف كتابهم هـذه الطريقة فأغفلوا وضع هذه الأعمدة الفاصلة . ولم يستعمل كتّابهم علامةً ما دالة عـلى انتهاء جملة وابتداء جملة أخرى جديدة أو انتهاء فصل وابتداء فصل جديد ، كذلك لم يستعملوا ما نستعمله نحـن في الزمن الحاضر من علامات فواصل لأداء معاني خاصة يقتضيها الكلام وعلامات استفهام، لأن هذه الأشياء من الأمور المتأخرة التي أدخلت على الكتابات الغربية ، ولم تكن معروفة عند الأقدمين .

وحروف المسند حروف غير مشكلة ، فليس فوقها أو تحتها حركات كما هي الحال في عربيتنا حين نرغب في تحريك الحروف . وهي غير منقطة كـذلك فلا نقط فوق بعض الحروف أو تحتها لتمييزها عن غيرها من الحروف المشابهة لها كما هي الحال في أبجديتنا أيضاً ، ولم يرمز عن الحركات بحروف أو برموز تستعمل مع الحروف الصامتة داخل الكلمة ليتمكن بها القارىء من النطق بالكلمـة النطق الصحيح كما حدث ذلك في الأبجديات اللاتينية، وفي الأبجديات الأخرى التي سارت على نهجها وسبيلها،ولم يرمزوا عن حرف المدّ بشيء ولا عن السكون أو التشديد . وهذا مما جعلنا في حيرة من النطق بكلماتهم نطقاً صحيحاً مضبوطاً ، وجعل القارىء الحديث يذهب مذاهب مختلفة في كيفية ضبط الكلمة وفي كيفية النطق بها . فلفظة مؤلفة من حروف صامتة وحدها ، لا يمكن أن ينطق بها النطق الصحيح المضبوط ولا يمكن معرفة معانيها بسهولة ، وقد ولّدت هذه الطريقة مشكلات كثيرة لنا من حيث التوصل الى معرفة نحو تلك اللهجات وصرفها [1] .

ولا توجد في المسند علامة لتشديد الحرف ، وقد يكتب الحرف مرتـين كما هي الحال في الأبجديات الأوروبية للدلالة على أن الحرف مشددٌ ، ويكـون ذلك في الكتابات المعينية [2] .

---

١ غويدي ، المختصر (ص ٣) .
٢ المصدر نفسه .

واقتصار الكتّاب على استعمال الحروف الصامتة وحدها ، جعل من العسير علينا البت في كيفية النطق بالكلمات والتعرف بسهولة على مواضع الكلم من الإعراب .

ولولا الاستعانة باللهجات العربية الباقية المستعملة في اليمن،وبلغة القرآن الكريم، وبالمعجمات ، وباللغـــة الحبشية ، لكان من الصعب على القارئين للكتابات العربية الجنوبية التوصل الى فهم معانيها والى قراءتها قراءة مضبوطة أو قريبة من القراءة الصحيحة ، والتوصل الى استخراج القواعد منها . فبفضل هذه المواد المساعدة ، تمكنا من الوصول الى ما توصلنا اليه عن تلك اللهجات المكتوبة بالقلم المسند[1] .

ومن جملة المسائل التي جعلت فهم النصوص العربية الجنوبية أمراً صعباً عـــلى الباحث في بعض الأحيان ، اشتمالها على اصطلاحات غير موجودة في العربية ، وعلى كلمات غير موجودة في اللغات السامية الأخرى ثم إن بعضها قد كتب كتابة موجزة صيرتها غامضة غـــير مفهومة ، ولهذا اضطر علماء العربيات الجنوبية الى تلخيص معناها على وجه التقريب[2] .

ومما يؤسف عليه كثيراً أن كتبة المسند لم يتركوا لنا كتابـــة تشير الى ترتيب حروف الهجاء عندهم ، وأسمائها التي كانت تعرف بها عند قرّائهم وكتّابهم . وعدم وصول كتابة بهذا الموضوع منهم إلينا ، خسارة كبيرة ، إذ أصبح مـــن الصعب التحدث عن كيفية ظهور الخط بين العرب الجنوبيين وعن صلاته بالخطوط الأخرى ، وبنا أشد الحاجة الى معرفة كيفية توصل الإنسان الى هـــذا الاختراع العظيم الذي غيّر تأريخ البشرية وأحدث فيها انقلاباً لا يدركه المرء إلا إذا تصور البشرية وهي جاهلة لا تحسن قراءة ولا كتابة ، فما الذي كان يمكن ان نعرفـــه لولا وجود هذه العلامات الصغيرة المحدودة التي نسميها حروفاً والتي نكتب بها وندوّن بها كل ما يجول في خواطرنا من آراء دون أن نعرف عظم قيمة هـــذه العلامات التي ميزت الانسان عن الحيوان ، ورفعته عنه الى أعلى الدرجات !

ولو قدر للعلماء الحصول على ألواح فيها الأبجديات مرتبة بحسب الطريقة التي كانت تسير عليها الشعوب القديمة في تعلمها ، وخاصة اذا كانت مقرونة بأسمائها التي كانت تعرف بها ، لصار في وسع العلماء التوصل الى نتيجة علميـــة مقبولة

---

١ Hofner, S. 15.

٢ ونفنسون ، السامية (٢٤٦) .

بشأن نشأة الخط وتطوره . فإن في استطاعتهم عند ذاك الحكم ــ من نظرهم الى أقدم هذه الكتابات والى أصول كلمات المسميات ــ على أقدم مكان ظهرت فيه تلك الكتابة ، وعلى تعيين اسم الشعب الذي كان له شرف هذا الاختراع . وهو اختراع لم يظهر بالطبع فجأة الى العالم ، أي انه لم يكن من ابتكار رجل واحد فاجأ الناس به ، بل هو اختراع مرت عليه قرون حتى بلغ ما بلغه من شكل الحروف . مرّ في مراحل كثيرة بدائية في بادىء الأمر ، ثم انتقل من تلك الأشكال الى أشكال أرقى منها ، حتى اهتدى عقل الانسان الى معرفة الحروف . ولم يتوصل بالطبع الى هذه المرحلة بسهولة ، إذ يقتضي ذلك وجود علم عند الانسان عن تكون الكلمات من حروف ،وهو لم يتوصل الى هذا العلم إلا بعد تعب استمر قروناً ، وبتعاون كتّاب مختلف الشعوب لتحليل كلمات الانسان الى عناصرها الأولى ، وعناصرها الأولى هي هذه الحروف .

وقد كان من الضروري وضع أسماء للحروف ، ليميز بها حرف عن حرف آخر . وقد وضع مخترعو الحروف تلك الأسماء ، وهي أسماء لا تزال البشرية تعيدها مع شيء من الاختصار والتحريف ، وقد يمكن التوصل من تلك الأسماء الى أسماء تلك الشعوب القديمة التي ساهمت وعملت في ترقية ذلك الاختراع العظيم . فإن لتلك الأسماء علاقة وصلة بمسميات مادية ، وبالامكان تشخيص مواطن تلك المسميات بالرجوع الى الأماكن التي عرفت واشتهرت بها ، ومن ثم نتوصل الى تعيين تلك الشعوب على وجه التقريب .

وتختلف أشكال حروف المسند اختلافاً كبيراً عن حروفنا المألوفة التي نكتب بها . ولما كانت هذه الحروف حروفاً منفصلة غير متصلة كما هي الحال في حروفنا، فهي لذلك في أثناء كتابة الكلمات لا تتصل ببعضها ولا يلتقي فيها حرف بحرف آخر . ولهذا السبب كان شكل الحرف في المسند لا يتبدل ولا يتغير بتغير موضعه في الكلمة ، بل يحافظ على وضعه في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها ، إلا في بعض الأحيان حين يكتبون من اليسار نحو اليمين ، فيغيرون اتجاه الحرف بأن يجعلوه نحو اليمين .

وقد يتحد حرف النون الساكن مع الحرف الذي يليه ويسقط من الكتابة، ففي كلمة (بنت) أسقط الكتّاب حرف النون من الكلمة ، واكتفوا بهذا الشكل : (بت) أي بالحرفين الباء والتاء [1] .

١ غويدي (ص ٤) .

والى القارىء أشكال حروف المسند مرتبةً على ترتيب حروف الهجاء التي نسير عليها في زمننا :

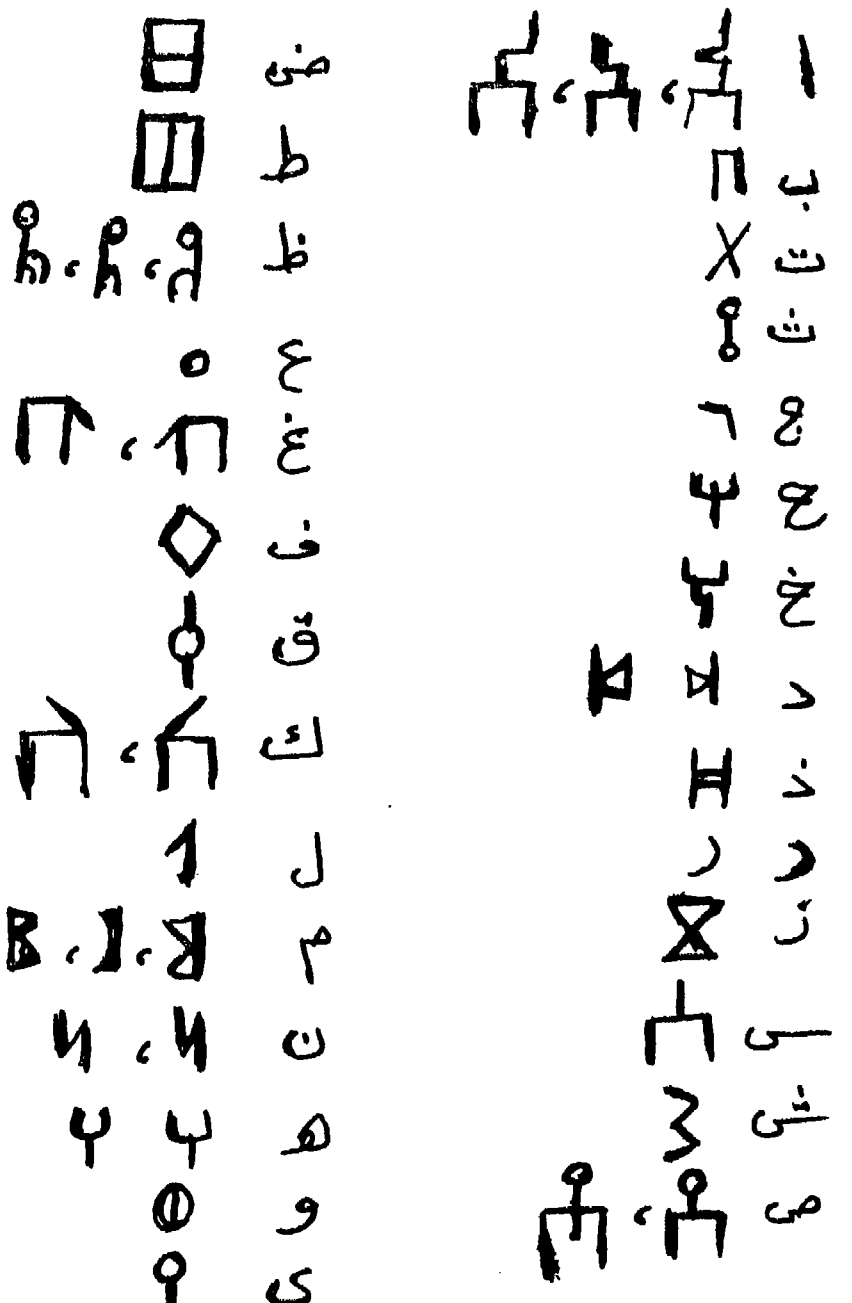

: وليس لهذا الحرف مقابل في عربيتنا وهو بين السين والزاي

ولا توجد في المسند تاء قصيرة ، أي التاء التي نكتبها تاء قصيرة في أواخر الكلم . فالتاء هي تاء طويلة أبداً ، وردت في أول الكلمة ، أو في وسطها ، أو في آخرها ، فلفظة (سنة) تكتب (سنت) ، و (عمرة) ، اسم امرأة ، يكتب (عمرت) ، وهكذا .

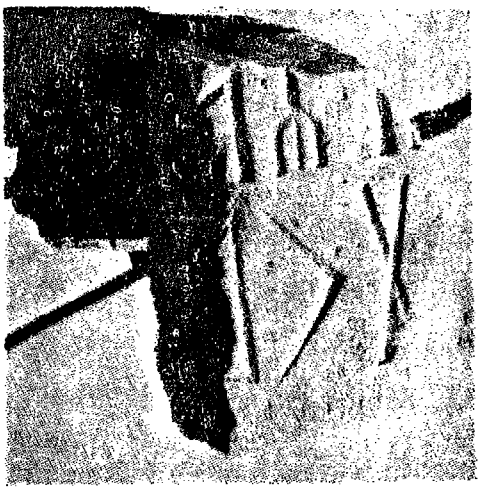

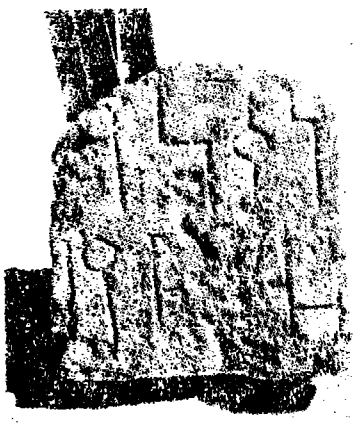

وهناك كتابات برزت حروفها ، وذلك ان كاتبها خطها على الحجر أولاً ، ثم حفر ما حولها وفي باطنها بمزبر صلد ، أو بسكين أو بآلة حادة ، فظهرت الكتابة بارزة ، وقد استخدمت مثل هذه الكتابات لتوضع على أبواب المعابد وعلى واجهات الدور وفي المناسبات التذكارية، كما فعل الاسلاميون في كتاباتهم التخليدية التي وضعوها على واجهات القصور والمساجد والأبنية المهمة،أما الكتابات المحفورة فقد استخدمت في الأعمال الاعتيادية في الغالب ، وهي أسهل في الكتابة من الكتابة البارزة ، ولا تحتاج الى وقت طويل يصرفه الكاتب على الحفر لابراز الحروف .

وأما الفاصل الذي يفصل بين الكلمات ، فهو على هذا الشكل :

ويعبر عن العدد من الواحد الى الأربعة بخطوط عمودية ، فيرمز الخط العمودي الواحد عن (الواحد) ، ويرمز الخطان العموديان المتوازيان عن الرقم (٢) ، وإذا أرادوا كتابة الرقم (٣) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية متوازية للدلالة عليه . أما الرقم (٤) ، فيمثل بأربعة خطوط عمودية متوازية . وأما الرقم (٥) فيرمز عنه بالحرف (خ) الذي هو الحرف الأول من كلمة (خمس) . وإذا أرادوا الإشارة الى الرقم (٦) وضعوا خطاً عمودياً على الجانب الأيسر لحرف (الخاء) الذي يرمز عن الخمسة ، ومن هذا الحرف والخط العمودي الكائن مكانه في موضع العشرات بالقياس الى حسابنا يتكوّن الرقم (٦) . وإذا أرادوا الرقم (٧) وضعوا خطين عموديين على الجانب الأيسر للحرف خمسة ، فيعبر هذا المجموع المكون من الخاء ومن الخطين العموديين المستقيمين عن الرقم (٧) . وإذا أرادوا الرقم (٨) ، وضعوا على الجانب الأيسر من الحرف خاء ثلاثة خطوط تشير الى الرقم(٣) ، فيتكون بذلك من حرف الخاء الذي يرمز عن الخمسة ومن الثلاثة،المجموع ثمانية، وهو الرقم المطلوب . أما الرقم (٩) ، فيتكون من مجموع رقم (٥) الذي يرمز عنه الخاء ومن الرقم (٤) الذي تمثله خطوط عمودية أربعة . وأما الرقم عشرة ، فيرمز عنه بحرف العين الذي يمثل الحرف الأول من كلمة عشرة . وأما الرقم (١٠٠) فيرمز عنه بالحرف الأول من الكلمة مئة ، أي بحرف الميم . وأما الرقم (١٠٠٠) فرمز عنه بالحرف ألف ، أي بالحرف الأول من الكلمة أيضاً، فيلاحظ

من هنا أن العرب الجنوبيين استعملوا الحروف الأولى من أسماء بعض الأرقام عوضاً عن الأرقام نفسها،ولم يتبعوا الطرق التي نتبعها اليوم في كتابة أمثال هذه الأعداد .

والظاهر ان استعمالهم حرف الخاء مقام العدد (٥) ، جعلهم يحارون بعض الحيرة في التعبير عن العدد (٥٠) الذي يبدأ مثل العدد (٥) بحرف الخاء ، فتخصيص هذا الحرف بالعدد (٥) جعل من غير الممكن تخصيصه بالعدد (٥٠) كذلك . ولما كان من الصعب كتابة الـ (٥) عشر مرات للتعبير عن العدد (٥٠) الذي هو حاصل جمع عشر خمسات خاصة لأن هذا العدد يتضاعف ويتكـــرر ، فكروا في حل آخر يحل لهم هذه المشكلة . مشكلة ايجاد حرف أو علامة ترمز عن الرقم (٥٠) . وقد وجدوا ذلك الحل من حقيقة العدد (٥٠) الرياضية . فالعدد (٥٠) هو نصف الـ (١٠٠) كما هو معلوم . ولما كان حرف الميم يرمز عن المئة ، والمئة هي حاصل جمع خمسين مع خمسين ، فيكون حرف المـــيم هو حاصل جمع خمسين مع خمسين . ولما كان حرف الميم في المسنـــد هو على شكل خط عمودي يرتكز عليه مثلثان قاعدتهما ملتصقة على ذلك العمود ، فإن كل مثلث من ذينك المثلثين يعبر في الواقع عن الرقم (٥٠) ، فهداهم تفكيرهم هذا الى رفع المثلث الأسفل ليبقى مثلث واحد هو المثلث الأعلى مرتكزاً على الخط العمودي، ليعبر عن قيمته المتبقية وهي خمسون ، وصار هذا الرمز الذي هو نصف حرف الميم رمزاً عندهم للعدد (٥٠) . وبذلك أوجدوا لهم حلاً لتلك المشكلة التي لا بد انها شغلت بال كتّابهم مدة من الزمن .

وأما الأعداد التي تلي العشرة فيبدأ بها بحرف العين أولاً ومعناه عشرة ، ثم تليه بقية الزيادة أي مقدار زيادة ذلك العدد عن العشرة. فإذا أرادوا الرقم (١١) مثلاً بدأوا بحرف العين ، ثم وضعوا بعده أي على يساره خطاً عموديـــاً واحداً بمعنى واحد ، ويكون المجموع أحد عشر . أما اذا أرادوا الرقـــم (١٢) ، فإنهم يضعون مستقيمين عموديين على يسار حرف العين ليدل ذلك على عشرة زائد اثنين وهو اثنا عشر . واذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط عمودية مستقيمة لتدل عليه . أما اذا أرادوا (١٤) فإنهم يضعون أربعة خطوط عمودية ، ليكون مجموعها مع العشرة أربعة عشر . أما اذا أرادوا (١٥) ، فإنهم يكتبون حرف العين ثم يضعون من بعـــده وعلى جهة يساره حرف الخاء الـــذي هو بمعنى خمسة . واذا أرادوا (١٦) وضعوا بعد حرف العين ما يرمز عن الستة ، وهكذا بقية الأعداد

الى العدد (١٩) . أما العدد (٢٠) فإنهم يكنون عنه بكتابة حرف العين مرتين ، ومعنى ذلك عشرة مضافاً اليها عدد عشرة والجمع عشرون. واذا أرادوا الرقم (٢١) كتبوا حرف العين مرتين ليرمز عن العشرين ثم وضعوا خطاً عمودياً واحداً على جهة يساره ليرمز عن الرقم (١) ، فيكون المجموع عشرين وواحداً ، وهكذا يكتبون بقية الأعداد ابتداء بالعشرين أي بحرفي العين مضافاً العدد المقصود حتى الرقم (٣٠) فيضعون له ثلاثة أحرف من حرف العين . أما الـ (٤٠) فيضعون له أربعة أحرف من حرف العين ، ثم يستمرون على طريقتهم في العدد بعد الأربعين على الطريقة المألوفة في الابتداء بالعدد العشرات ، ثم كتابة الرقم المقصود الذي هو دون العشرة من بعده الى الرقم التاسع والأربعين . فإذا أرادوا الرقم (٥٠) وضعوا الرمز الخاص الذي تحدثت عنه ، وهو نصف حرف الميم . أما الرقم (٦٠) فيرمز عنه بهذا الرمز ، أي نصف حرف الميم مضافاً اليه الحرف عين رمز العشرة ليشير الى مجموع العددين وهو ستون . أما الرقم (٧٠) فيتكون من هذا الرمز مضافاً اليه حرفان للعين . وأما الرقم (٨٠) فيكون بإضافة ثلاثة أحرف عين على الجهة اليسرى للرقم (٥٠) . وأما الرقم (٩٠) فيتكون من رمز (٥٠) مع إضافة أربعة أحرف عين اليه .

وتكتب الأرقام ما بعد المئة الى الألف على الترتيب الآتي : يكتب الحرف رمز المئة في الأول ، ثم يوضع الرقم الذي يلي المئة على جهة يساره على النحو الذي شرحته الى حد الرقم (١٩٩) فإذا أرادوا كتابة (٢٠٠) كتبوا حرفي ميم ، وإذا أرادوا (٣٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٤٠٠) وضعوا أربعة أحرف من حروف الميم ، وإذا أرادوا (٥٠٠) وضعوا خمسة أحرف من حروف الميم، وهكذا تزاد كتابة الميم بزيادة عدد المئات حتى تصل الى تسع، ويكون الرقم عندئذ تسع مئة . أما الألف،فيرمز عنه بحرف الألف كما ذكرت .

وطريقة التعبير عن الأعداد في حالة الآحاد وفي العشرات وفي المئات هي طريقة واضحة مفهومة بعض الفهم كما رأينا ، إذ عبر عن الأرقام من واحد الى أربعة بخطوط مستقيمة ، وعبر عن الخمسة بحرف الخاء تزاد عليه خطوط بزيادة الأرقام المطلوبة،حتى تصل الى الرقم (١٠) ، فيعبر عنه بحرف عين . وفي باب العشرات يقدم حرف العين الذي هو عشرة على الأرقام المقصودة التي هي دون العشرة ، وتتبع هذه الطريقة الى المئة . أما في حالة المئات الى الألف فيبتدىء العدد بالمئات،

ثم تليه العشرات ، فالآحاد ، فهـو في نفس المبدأ الذي وضعه علماء الرياضيات عندهم للعشرات ، أي على قاعدة تفضيل العدد الأكبر من ناحية العدّ على العدد الأصغر ، فقـدموا العشرات على الآحاد ، وقدموا المئات على العشرات ، ثم الآحاد . أما في حالة الاعداد الالوف ، فلم يتقيد كتّاب حسابهم بهذه القاعدة ، بل ساروا على طرق أخرى ، فكتبوا حروف الالف بعـد الاعداد الالوف التي أرادوا كتابتها . فللتعبير عن ألفين وضعوا حرفي ألف ، وهمـا مجموع ألف مع ألف أخرى،وللتعبير عن ثلاثة آلاف وضعوا ثلاثة أحرف ألف ، وهكذا ساروا في كتابة بقية الاعـداد الآلاف . غير أنهم ساروا على طريقة أخرى في كتابة العدد ستة عشر ألفاً مثلاً . فوضعوا ستة أحرف ألف ، ووضعوا الى الجـانب الأيسر من الحرف الألف الأخير الحرف عين رمز العشرة ، وقـد رمزت العشرة هنا عن العدد (١٠٠٠٠) ، ورمزت الحروف الستة عن (٦٠٠٠) ، ومن مجموع الستة آلاف والعشرة آلاف يتكون العدد (١٦٠٠٠) . وفي كتابة العدد(٣١٠٠٠) كتبوا حرفاً واحداً من حروف الألف ليدل على الرقم ألف ، ووضعوا على الجهة اليسرى منه ثلاثة أحرف عين وتعني ثلاثين ألفاً . ومن الألف والثلاثين ألفاً يتكون العدد (٣١٠٠٠) . أما في حالة كتابة الرقم (٤٠٠٠٠) ، فقد اكتفوا بكتابة أربعة أحرف من حروف العين ، مع أن هذه الأحرف تعني مجموع أربعـة عشرات ، أي أربعين ، بينما أرادوا بهذه الأحرف العدد (٤٠٠٠٠) في هذا الموضع . أمـا في رقم مثل (٤٥٠٠٠) ، فقد كتبوا خمسة أحرف من حروف الألف أولاً ، ثم وضعوا أربعة أحرف من العين في أيسر آخر ألف ، والمجموع هو خمسة آلاف وأربعون ألفاً . وفي الرقم (٦٣٠٠٠) وضعوا ثلاثة أحرف من (الألف) لتعني ثلاثة آلاف ، ووضعوا نصف حرف ميم وهو رمز الخمسين ، وفي أيسره حرف العين رمز العشرة،وبذلك عبروا عن الستين . ولورود هذا الرقم بعد عدد آلاف قصدوا به ستين ألفاً . ومن مجموع ثلاثة آلاف والستين ألفاً ، يتكون العدد ثلاثة وستون ألفاً . وقد اكتفوا في كتابة الرقم (١٥٠٠٠٠) بكتابة الرمز الخمسين وهو نصف حرف ميم ، ووضعوا الى الأيسر منه حرف ميم رمز المئة ، وقصدوا بذلك خمسين ومئة ألف . ولو كانوا قـد كتبوا حرف الميم أولاً ، ثم وضعوا نصف حرف الميم الى يساره ، لكان حاصل جمع العددين خمسين ومئة . وبتقديم نصف حرف الميم وبتغيير اتجاه مثلثي حرف الميم ومثلث نصف حرف الميم بجعله نحو اليمين،

عبروا عن الرقم (١٥٠٠٠٠٠) . أما في كتابتهم الرقم ٢٠٠٠٠٠٠ ، فقد كتبوا ميمين ، وقد عبر كل ميم في هذا الموضع عن مئة ألف .

ويرى بعض المتخصصين بقراءة النصوص العربية الجنوبية ان كتّاب المسند لم يتركوا كتابة حروف الألف التي تشير الى الأعداد الآلاف إلا إذا كان العدد مدوراً ، وآلافاً خالية من الأرقام الآحاد ، كما رأينا في الرقم (٤٠٠٠٠٠) ، و (١٥٠٠٠٠٠) ، و (٢٠٠٠٠٠٠)[1] .

وقد سار كتّاب المسند على قاعدة كتابة الرقم لفظاً ، أي كتابة مقداره بالكلمات ، وتدوين المقدار المكتوب بعد الرقم ، وقد حملهم على اتباع هذه الطريقة خوفهم من الوقوع في الخطأ في قراءة الأرقام والرموز التي خصصوها بالأرقام ، كما انهم اصطلحوا على رسم مستطيل تتخلله خطوط تجعله على هيأة شباك تقريباً ، يوضع في أيمن الرقم ، أي قبل ابتدائه ، ومستطيل آخر يوضع في يسراه أي في نهاية الرقم تماماً للدلالة على ان ما هو مكتوب بين هذين الرقمين هو عدد ، وبذلك تسهل قراءته .

ولم يصل الينا ان كتّاب المسند استخدموا علامات خاصة بكسور الأعداد ، كالأنصاف أو الأرباع أو الأثلاث أو الأخماس أو ما شاكل ذلك ، او انهم استعملوا علامات خاصة للجمع او الطرح او القسمة او الضرب او علامات للتربيع او للجذور وأمثال ذلك من العلامات المستعملة في علوم الرياضيات . وقد عبروا عن كسور الأعداد بذكر ألفاظها . واذا لم تصل الينا كتابات في موضوعات رياضية ، فلا نستطيع ان نجزم في موضوع أمثال هذه العلامات عند العرب الجنوبيين . فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات رياضية ترينا ان رياضي العرب الجنوبيين كانوا أرقى كثيراً مما نظن الآن .

وللوقوف على صور الأعداد عند العرب الجنوبيين أدون نماذج من الأرقام ، مقرونة بما يقابلها من الأرقام التي نستعملها عندنا في الحساب :

---

١ Hofner S. 15.

١ = ١	٥٥ = ٥٠
١١ = ٢	١٥٥ = ٥١
١١١ = ٣	١١٥٥ = ٥٢
١١١١ = ٤	١١١٥٥ = ٥٣
٥ = ٥	١١١١٥٥ = ٥٤
٥١ = ٦	٥٥٥ = ٥٥
٥١١ = ٧	٥٥٥١ = ٥٦
٥١١١ = ٨	٥٥٥١١ = ٥٧
٥١١١١ = ٩	٥٥٥١١١ = ٥٨
٥ = ١٠	٥٥٥٥١١١١ = ٥٩
١٥ = ١١	٥٥٥ = ٦٠
١١٥ = ١٢	٥٥٥٥ = ٦٣
١١١٥ = ١٣	٥ = ٦٥
١١١١٥ = ١٤	٥٥ = ٦٠
٥٥ = ١٥	٥٥٥ = ٦٧
٥٥١ = ١٦	٥٥٥٥ = ٦٨
٥٥١١ = ١٧	٥٥٥٥٥ = ٦٩
٥٥١١١ = ١٨	١٠٠٠٠٠ = ٧٠
٥٥١١١١ = ١٩	١٠٠٠٠٠٠ = ٧٣

وأما الفواصل التي تشير الى الأرقام وتوضع في أول الرقم وعند منتهاه، فهي على هذا الشكل :

ومادة الكتابة عند العرب الجنوبيين ، هي الحجارة والصخر والخشب والمعادن، يكتبون عليها بالحفر ، ولم أسمع أن أحداً من الآثاريين حتى الآن عثر على كتابات بالمسند مدوّنة بالحبر على القراطيس والجلود والرق أو على ورق البردي على نحو ما كان يفعله المصريون وغيرهم . والظاهر أنهم لم يكونوا يتبعون طريقة كتّاب بابل في الكتابة على ألواح الطين التي تجفف بعد ذلك بالشمس أو بالنار ، فتكون كتابة ثابتة مدوّنة على مادة صلبة ، لأن الباحثين لم يعثروا على كتابات بالمسند مدونة على هذه الطريقة .

غير ان عدم وصول كتابات بالمسند مدونة على القراطيس او الجلود ، لا يعني ان العرب الجنوبيين لم يكونوا يعرفون الكتابة عليها وعلى مواد مشابهة لها ، إذ لا يعقل عدم وقوف العرب الجنوبيين على استعمال الجلود والقراطيس وعظام الحيوانات مادة للكتابة ، وقد كان استعمالها في العالم يومئذ شائعاً معروفاً . ومردُّ السبب في عدم وصول شيء من الكتابات المدونة على تلك المواد ، الى قابلية هذه المواد للتلف ، وحاجتها الى العناية الشديدة ، بدليل عدم وصول شيء ما من الكتابات المدونة على الجلود وعلى جريد النخل وعلى اللخاف والعظام والقراطيس من صدر الاسلام ومن أيام الرسول خاصة مع أهميتها وقدسيتها . وليس في استطاعة أحد أن ينكر ان القرآن الكريم قد كتب على هذه المواد المذكورة ، وان الرسول قد أمر فكتبت له عدة كتب وعقود ومواثيق ، ولكن بادت أصولها .

والبحث في أصل المسند مثله في أصل الخط، ما زال موضع جدل بين العلماء الباحثين في العربيات الجنوبية . فمنهم من يرجع أصله الى الخط الفينيقي ، ومنهم من يرجعه الى كتابات سيناء حيث عثر فيها على كتابات قديمة جداً يعدّها الباحثون أقدم عهداً من الكتابات العربية الجنوبية ، وقد وجد بين بعض حروف هذه الكتابات وحروف المسند شبه جعلهم يذهبون الى اشتقاق المسند من خطوط سيناء[1].

١ Driver, Semitic writing from Pictograph to Alphabet, London, 1954, pp. 123.

ومنهم من يذهب الى اشتقاق المسند من الخط الكنعاني، للتشابه بين بعض حروف الخطين . وللتوصل الى معرفة منشأ الخط المسند ، لا بد من تعيين تأريخ لأقدم كتابة مدونة بالمسند ، ولم يتفق العلماء على تأريخ ثابت معين . انما رجع بعضهم تأريخ أقدم الكتابات الى سنة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ قبل الميلاد ، على حين لم يرتفع آخرون بتأريخ أقدم كتابة عثر عليها بالمسند الى أكثر من ٧٠٠ أو ٨٠٠ قبل الميلاد . ولضبط هذا التأريخ أهمية جد عظيمة في البحث عن أصل منشأ ذلك الخط . ثم انه لا بد في تعيين أصل الخط المسند من النص على أسماء الحروف نصاً ليس في أمره شك ، ثم لا بد أيضاً من النص على نظام ترتيب حروف المسند عند العرب الجنوبيين . وكل هذه الأمور غير متفق عليها ، واذن فليس من الممكن في مثل هذه الظروف التوصل الى حل علمي يوافق عليه جميع الباحثين في العربيات الجنوبية .

واذا كان أغلب الكتابات في موضوع واحد ، هو التقرب الى الآلهة بهدايا وبنذور ، كان أسلوبها يكاد يكون واحداً ، فهي تبدأ عادة باسم المهدي أو بأسماء المهدين ، ثم يعقب ذلك فعل يشير الى التقديم مثل استعمال فعل قدّم أو أهدى وما شاكل ذلك من أفعال مناسبة ، ثم اسم الإلـه أو أسماء الآلهة التي قدمت لها الهدايا ، يليها بيان السبب الذي من أجله قدمت ، مثل شفاء من مرض أو وفاء لنذر ، أو طلباً من الإلـه أو الآلهة ان تطيل عمر المهدي ، أو تشفيه من مرضه، أو لتحل له مشكلاً وقع فيه أو مشكلات تحيط به .

القلم اللحياني :

ومن القلم المسند اشتق القلم اللحياني ، والقلم الثمودي ، والقلم الصفوي، وذلك لأن القلم المسند متقدم في الوجود على هذه الأقلام ، فلا يمكن أن يكون قد أخذ منها . ثم إن المناطق التي وجدت فيها الكتابات اللحيانية والكتابات الثمودية ، كانت في حكم المعينيين والسبئيين ، بدليل عثور العلماء على كتابات معينية فيها . وهذه الكتابات أقدم عهداً من الكتابات اللحيانية والثمودية ، ولذلك ذهب الباحثون في اللحيانيات والثموديات الى اشتقاق خطها من الخط المسند .

ولم ينقل أهل أعالي الحجاز القلم المسند نقلاً تاماً ؛ بل عدّلوا بعض حروفه

وغيّروا فيها بعض التغيير . فظهر من ذلك القلم القلمُ اللحياني والقلم الثمودي ، غير أننا نجد أن كتابات القلم اللحياني تختلف بعض الاختلاف . وقد قسّمها (ورنر كاسكل) الى نوعين : كتابات لحيانية متقدمة ، وكتابات لحيانية متأخرة . وقد بني تقسيمه هذا على أساس قدم الكتابات وتأخرها في التأريخ . والواقع أننا نجد الكتّاب قد تحرروا في كتابة حروفهم في جميع العهود ، في العهد المتقدم وفي العهد المتأخر ، بحيث لم يتركوا لنا مجالاً للأخذ بهذا التقسيم . فنراهم وقد كتبوا بعض الحروف بأوضاع قد تزيد على الخمسة . غير أننا إذا ما تصفحنا هذه الحروف المختلفة الأشكال،لا نجدها تختلف اختلافاً بيناً ، إنما يرجع هذا الاختلاف في الواقع الى ضعف وقوة يد الكاتب الذي حفر تلك الكتابات على الحجارة أو الخشب أو المواد الأخرى التي حفر الكتابة فيها . فمنهم من كان قوياً في حفره للحروف ، ومنهم من كان ضعيفاً ، فبان هذا الاختلاف في هيئات رسم الحروف. ومن هنا أرى ان اختلاف صور الحروف ، لا يدل حتماً على تطور الخط ، بقدر ما يدل على مهارة أو ضعف الكاتب في الكتابة .

والقلم اللحياني مثل المسند خالٍ من الشكل ، وخالٍ من الرموز أو الحروف التي تشير الى المدّ أو التشديد أو الإشباع أو الإشمام أو الإمالة وما شابه ذلك . وقد أوجد هذا النقص لقراء الكتابات اللحيانية مشكلات كثيرة في فهمها وفي ضبط الكلمات والأسماء فيها . فلفظة (زد) مثلاً المكتوبة بحرفين ، قد تقرأ على أشكال مختلفة ، قد تقرأ (زَد) و (زِد) و (زُد) و (زاد) و(زَيْد) و (زود) ، الى غير ذلك من أشكال . وهي قد تكون اسماً ، كما قد تكون فعلاً أو مصدراً ، وعلى القارىء استخراج نوعها من موقعها في الجملة ومن مقتضى الحال . ومثل ذلك عن (شم) التي تعني (شيم) اسم رجل ، و(كتب) بمعنى (كاتب) اسم رجل أيضاً ، مع أن للكلمة عدة معانٍ يفهمها الانسان من موقع اللفظة في النص .

ولم يتقيد كتّاب الكتابات اللحيانية تقيداً تاماً بكتابة الفواصل العمودية التي تستعمل للفصل بين الكتابات ، كما تقيد بها كتّاب المسند . غير أنهم لم يسيروا في كتاباتهم على وتيرة واحدة . فنراهم يخالفونها أحياناً فيفصلون الألفاظ بفواصل. وقد رفعت الفواصل عن الألفاظ المؤلفة من مقطع واحد ، مثل مع ، وكتبت مع اللفظة التي تليها . أما إذا اجتمعت لفظتان ، كل واحدة منها ذات مقطع

واحد مثل (و) حرف عطف و (ل) فالكتاب يكتبونهما على طريقة كتّاب المسند أي ممزوجتين ، على هذا الشكل : (ول)[1] .

وتجد في هذه الصورة كتابة لحيانية متأخرة ، يظهـر منها وكأن صاحبها قد كتبها على عجل ، فالخط فيها سريع ضعيف يـدل على عجلة ، والحروف غير واضحة ، وقد كتبت بطريقة الحفر بقلم من حديد أو سكين أو آلة حادة أخرى على الحجر ، حفراً سريعاً ، كما نكتب بسرعة في القلم . ومن هنا يختلف القلم اللحياني عن القلم المسند ، يختلف عنه في عدم تمسك كتّابه بكتابة الحروف بصورة واضحة بينة وبخط قوي واضح يقرأ بسهولة . ولعل لموقع اللحيانيين ولموقع من كتب مثلهم بسرعة وبغير نظام ثابت وتقيد بهندسة الحروف وأشكالها ، فيما بـين الأبجديات الشمالية ، والأبجدية العربية الجنوبية أثراً في هذا التغير ، إذ نكاد نلمس من قراءتنا لهذه الخطوط انها تحاول الهروب من نظام المسند ، المستند على الشكل الهندسي المرتب للحروف ، الذي يفصل بين الحروف ، والذي يحتاج الكاتب فيه الى التأني في كتابة الحرف ، فيضيع بعض الوقت بسبب ذلك ، كما يحتاج الى إشغال مكان واسع للحروف . بينما نرى الأبجديات الشمالية تقلص من حجم حروفها وتحاول جهد امكانها ربطها بعضها ببعض اختصاراً في الوقت وفي المكان وفي الجهد. وحروف هذه الأبجديات وإن بقيت محافظة على استقلالها وعلى أشكالها الدالة على انها من نبت المسند، إلا انها اتخذت صوراً متعددة، كما انها لم تتقيد بما تقيد به المسند في نظامه من السير على طريقة السطور ، وهو نظام يسهل على القـارىء قراءة الكتابة من اليمين الى اليسار ، أو من اليسار نحو اليمين ، أو بطريقة (حلزونية) ، بل خرجت على هذا النظام ، ولا سيما في حالة الكتابات الثمودية والصفويـة ، فكتبت بصور غير منتظمة ، على صورة هلال ، أو كرة ، أو نسيج العنكبوت، مما جعل من الصعب على القارى فهم الكتابة ، ويظهر ان ذلك انما وقع بسبب ان الكتبة كانوا من الرعاة أو الفلاحين ، وان الكتابات التي عثر عليها هي من

---

١ W. Caskel, S. 60.

كتاباتهم ، وقد كتبوها تعبيراً عن خاطر عنّ لهم ، فهي لا تمثل اذن كتابات رسمية أو كتابات جماعة من المثقفين الذين يعتنون بحسن الخط ، وانما هي خواطر دونت على أي حجر وجده الكاتب ، ودوّنها بالشكل الذي وجده يناسب ذلك الحجر .

وهذه الكتابة التي تراها في هذه الصورة هي كتابة محفورة على لوح من الحجر، وهي من الكتابات اللحيانية المتأخرة ، المحافظة على نظام السطور . وخطّها وإن كان ضعيفاً غير أنه واضح نوعاً ما ونجد الشبه كبيراً بينه وبين المسند .

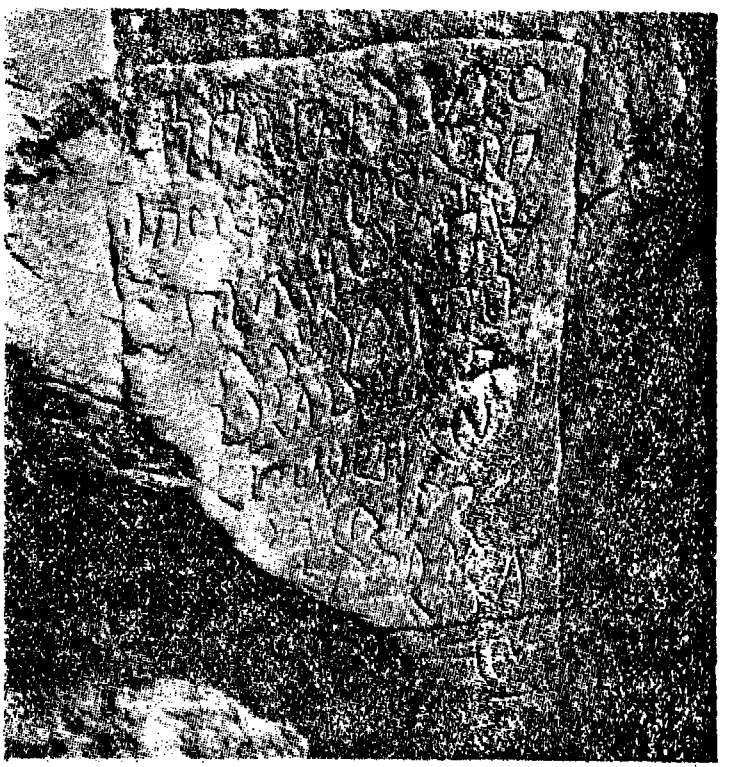

كتابة لحيانية متأخرة :(من كتاب : Caskel, Nr. 2)

كتابة لحيانية قديمة

من كتاب : Caskel, Nr. 1

أما هذه الصورة ، فتمثل كتابة لحيانية قديمة ، وقد تفنن في كتابتها كاتبها ، وحفر الحروف فيها حفراً جعلها بارزة ، وقد حافظ فيها على نظام السطور . ونرى الشبه بين أشكال هذه الحروف وأشكال المسند بيناً ، إذ لم تكن الكتابات اللحيانية القديمة قد ابتعدت بعد بعداً كبيراً عن الخط العربي الجنوبي .

الخط الثمودي :

والخط الثمودي مثل الخط المسند والخط اللحياني والخط الصفوي ، خالٍ من الشكل ومن التشديد ومن الإشباع ومن علامات للحركات تكتب مع الحروف في صلب الكلمة . ولهذا يلاقي قارئه من الصعوبات ما يلاقيه قارىء القلم المسند والقلم اللحياني . فكلمة (بت) يمكن أن تقرأ بأوجه متعددة كأن تقرأ (باتَ) فعلاً ماضياً ، و (بيت) اسماً . ولفظة (عف) ، تكتب بهذه الصورة ، ويقصد بها (عوف) إن كتبت مع الأسماء . ولفظة (زد) هي (زيد) ، ولفظة (تم) هي (تيم) ، ولفظة (منت) هي (مناة) ، وقد يراد بها (منيت)، أي المنية . وجملة (قنص اسد) تحتمل أن تكون على هذا النحو : (قَنَص أسدٌ) ، وقنص اسم رجل ، وهو مبتدأ خبره (أسدٌ) . ويحتمل أن تكون على هذه الصورة : (قنص أسداً) فتكون جملة فعلية (قنص) فيها فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر تقديره هو ، وأسداً مفعول به .

غير أن بعض الكتابات قد استعملت حروف العلة : الواو والألف والياء ، في بعض الأحيان لسد النقص الحاصل من عدم وجود الحركات ، كما في (نور) ، و (اموت) (أموت) حيث قامت (الواو) بأداء واجب الـ (او) (ü) وكما في لفظة (دين) ، وعظيم ، حيث قامت الياء بأداء الحركة (إي) (i) (ي) ، وكما في (موت) (بيت) و (عليت) بمعنى كنت معتلاً ، و (رضو (اسم) الإلـه ، و (مو) بمعنى ماء ، و (لى) بمعنى (لي) ، و (ذى) بمعنى (هذا) ، و (اتا) بمعنى (أتى) ، وأمثال ذلك . غير أن هذا الاستعمال لم يكن عاماً ، وإنما كان خاصاً يرد في بعض الكتابات . ونجد هذه الكلمات التي ذكرتها ، خالية من الحروف المذكورة ، في نصوص أخرى ، مما يدل على أن هذه حالات كتابية خاصة ، ولم تكن قاعدة عامة متبعة في كل الكتابات .

ومن مميزات القلم الثمودي أنه لم يتقيد باستعمال الخطوط العمودية للفصل بين الكلمات ، ولهذا نجد الحروف والكلمات متصلة بعضها ببعض في كثير من الكتابات لا يفصل فاصل بينها . وقلما نجدها تستعمل بعض العلامات مثل النقط أو الخطوط الصغيرة لتحديد الجمل . ثم إنه أطلق لنفسه العنان في اتباع الجهة التي يسير عليها

الخط ، فتراه تارةً يسير سيرنا في الخط، أي من اليمين الى اليسار وباتجاه أفقي، وتارة أخرى يتجه من اليسار الى اليمين . وأحياناً من أعلى الى أسفل،ومن أسفل الى أعلى في أحيان أخرى ، كما تراه يتخذ شكل قوس في بعض الأحيان ، أو أشكالاً أخرى ، كأن يمزج بين هذه الطرق بحسب رغبة الكاتب وشكل المادة التي يكتب عليها . وعلى قارىء النص لذلك الانتباه الى هذه الاتجاهات ، لمعرفة مبدأ الكلام من منتهاه .

ونجد بعض الكتابات الثمودية ، وكأنها رموز أو طغراء ؛ إذ نجد حروفها وقد تداخل بعضها في بعض ، أو بعض حروف منها وقد تشابكت بحيث يصعب على القارىء حلها . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها نوع من (الوسم) ، غير أن من المهتمين بالثموديات من لا يوافقونهم على هذا الرأي ، وإنما يرون أنها تمثل رموزاً دينية ، أو الأحرف الأولى من أسماء كاتبيها ، أو أسماء بعض الآلهة، أو ما شاكل ذلك مما كان له معنى معروف في نفوس أصحابه ، وقد خفي ذلك علينا ، لعدم وجود مفاتيح لدينا تحل لنا هذه الكتابات المتخذة طابع الرموز والإشارات .

ونجد الكتابات الثمودية تعاف بعض حروف الكلمات أحياناً وتختزلها ، كما في (ب) ، التي تعني (ابن) ، فقد تركت حرف النون واكتفت بالباء . ويستطيع القارىء ادراك معنى (ب) من القراءة . وكما في (ل) بمعنى (لنا) و (لي) ، و (ب) بمعنى (بي) ، أي انها تقطع الضمير اللاحق بحرف الجر في بعض الأحيان[1] .

الأبجدية الصفوية :

والأبجدية الصفوية مثل الأبجدية اللحيانية والأبجدية الثمودية ، أصلها من القلم العربي الجنوبي . وهي تتألف من ثمانية وعشرين حرفاً ، غير ان كتّاب هذا القلم قد تلاعبوا به كما تلاعب كتّاب القلم اللحياني والثمودي بحروف المسند ، وأوجدوا لهم منها أشكالاً أخرى ميزتها عن الأصل ، فأخذ الحرف الواحد أشكالاً

---

١ Grimme, S. 34. ff

متعددة ، تباعد أشكال بعضها تباعداً كثيراً عن الأصل ، حتى عسرت على القارىء قراءة النص ، وهذا مما أوجد مشاكل لقراء هذه النصوص في قراءتها قراءة صحيحة .

و (هاليفي) الذي هو أول من تمكن من تشخيص الأبجدية الصفوية ، وأول من سمّاها بهذه التسمية ،لم يتوفق في الواقع إلا في معرفة (١٦) حرفاً من الحروف الثمانية والعشرين التي تتكون منها الأبجدية الصفوية . أما الحروف الباقية ، فقد أخطأ في تشخيصها ، حتى جاء (بريتوريوز) فتمكن من تشخيص خمسة أحرف أخرى ، كما تمكن الأستاذ (ليمان) من تشخيص هوية سبعة أحرف ، فاكتمل العدد ثمانية وعشرين حرفاً[١] .

ومن الصعوبات التي تعترض قارىء الكتابات الصفوية في قراءة هذه الكتابات وفي فهمها أن للحروف فيها كما قلت آنفاً جملة رسوم ، وان بعض رسوم الحرف الواحد هي رسوم لحرف آخر . فبعض صور الباء هي أيضاً صور للظاء ، ولهذا قد تقرأ (باء) ، كما تقرأ (ظاء) . ويتشابه كذلك رسم الخاء مع التاء ، واللام مع النون ، والهاء مع الصاد ، وكذلك رسوم حروف أخرى ، فكانت من هذا كله صعوبات كبيرة تعترض الباحث في قراءة هذه النصوص وفي تثبيت معناها ، ولا سيا ان هذه الأبجدية هي كالأبجديات الأخرى خالية من الشكل ومن التشديد ومن حروف العلة في أكثر الأحيان ومن المقاطع ، فلا فرق فيها في الكتابة بين الفعل والاسم والفاعل والمفعول به ، وفيها مصطلحات وتراكيب نحوية غير معروفة في عربيتنا أو في اللهجات السامية الأخرى . وعلى الباحث إعمال ذكائه في كشف المعاني ومواقع الكلم في هذه النصوص .

وهناك صعوبة أخرى تعترض الباحث في قراءة النصوص الصفوية تكمن في عدم وجود قاعدة معينة للابتداء في الخط . فالكاتب بهذا القلم حر كما يظهر من

---

١ Semitisk, Dritter Band, Zweiter und Dritter Abschnitt, 1945, S. 213.
رينه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ٦٥ وما بعدها) ، (تعريب عبد الحميد الدواخلي) .

الكتابات في اختيار الجهة التي يبدأ بها في الكتابة ، فله أن يبدأ بكتابته من اليمين الى اليسار ، أي على نحو ما نفعله نحن في كتابتنا وعلى نحو ما فعله أكثر كتّاب المسند ، وله أن يكتب من اليسار الى اليمين ، أي على نحو ما يفعله الكاتبون بالأبجدية اللاتينية ، وله ان يمزج بين الطريقتين كما رأينا ذلك في بعض كتابات المسند ، كما ان له أن يبدأ بالكتابة من أعلى الى أسفل ، وله أن يعكس الوضع فيكتب من أسفل الى أعلى ، وله أن يبدأ بالكتابة من أيسر الجهة السفلى للحجر ويتجه الى اليمين ، ثم الى اليسار وفي أي اتجاه أحبّ واشتهى ، وله أن يختار العكس ، أو أية جهة شاء ، حتى انك لترى بعض الكتابات وكأنها خيوط متداخلة ، وعلى القارىء ان ينفق جهداً طويلاً في استخراج رأس الخيط واستلاله للوصول الى منتهاه .

والكتابات الصفوية مثل الكتابات الثمودية واللحيانية هي في أمور شخصية ،فهي إما في بيان ملكية شيء ، أو في تعيين قبر أي كتابات قبورية ، أو في رجاء وتوسل الى الآلهة . وإما تسجيل خاطر ، مثل تذكر أهل أو صديق أو حبيبة أو نزول في مكان أو في تعليق على كتابة قديمة . وكتابات مثل هذه تكون قصيرة في الغالب ، وقد تكون من كلمة واحدة في بعض الأحيان . ولما كان معظمها في هذه الأمور ، صارت أساليبها في الإنشاء متشابهة ، لا تختلف أحياناً إلا في أسماء أصحابها . وهي لذلك لا تفيدنا كثيراً من ناحية الدراسات اللغوية ، غير أنها مع ذلك أفادتنا فائدة كبيرة في نواحي أخرى ، من مثل الكشف عن أسماء آلهة العرب الجاهليين،أو أسماء القبائل والأشخاص والنبات والحيوان وبعض العادات وغير ذلك مما يتصل بحياة العرب قبل الإسلام .

وترى في هذه الصورة كتابة صفوية وقد كتبت على شكل ثعبان ، إذ لم يسر كاتبها على طريقة الكتابة بالسطور ،تكتب بعضها فوق بعض . وهي من الكتابات المؤرخة ، وترى بعض الحروف مشابهة لحروف المسند ، أما البعض الآخر ، فقد ابتعد كثيراً عن الأصل .

1198–1198a.

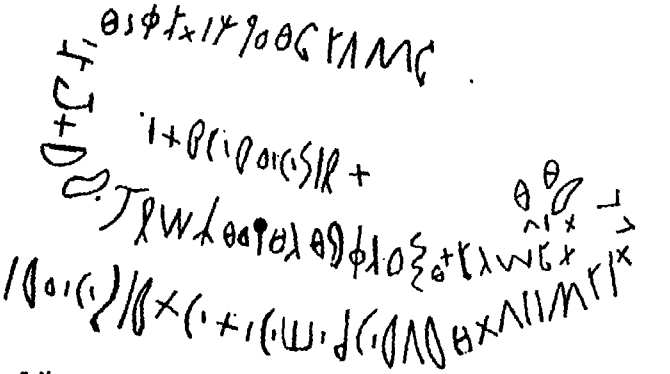

كتابة صفوية أرخت بسنة ٢٤ المقابلة لسنة ١٢٩ الميلاد ، ويرى الرقم على الجانب الأيمن من الكتابة . من كتاب : Safaitic

وفي هذه الصورة الثانية كتابة صفوية ، وقد كتبت على النحو الذي نراه في الصورة ، وقد تصرف كاتبها في الحروف ، تصرفاً تظهر عليه روح الاختزال وتصغير حجم الحرف وهي من الكتابات المؤرخة .

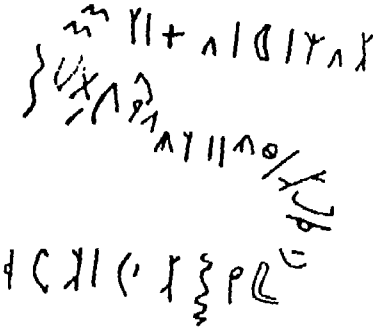

كتابة صفوية يعود تاريخها الى سنة ٤٢ . وقد رقمت برقم ١٦٢ في كتاب : Safaitic . (ص ٣٦) .

والصفوية مثل اللهجات العربية الأخرى في خلوّها من الشكل ، لذلك تجابه الباحث في قراءة كتاباتها ما يجابهه قارىء اللهجات الأخرى من مشكلات في فهم الكتابات فهماً صحيحاً واضحاً، فلا بدّ من الاستعانة بعربية القرآن الكريم وباللهجات السامية لفهمها فهماً صحيحاً . ولم يحفل الكتاب بتثبيت الحروف في صلب الكتابة باعتبارها تعبيراً عن الحركات ، ولم يستعملوا المقاطع المعبرة عن الأصوات، لضبط النطق . وقد يكتب فيها الحرف مرتين في مواضع نستعمل لها الشدّة في عربيتنا .

ومادة الكتابات الصفوية ، هي الحجارة الطبيعية بأشكالها المختلفة ، يأخذها الكاتب فيحفر عليها بآلة ذات رأس حاد الكلمات التي يريد تدوينها . أما الورق أو المواد المشابهة الأخرى المستعملة في الكتابة ، فلم يعثر على شيء منها مكتوب بهذه الأبجدية .

ويجب ان أبين ان هذه الكتابات اللحيانية والثمودية ، والصفوية ، لا تعني انها خطوط (بني لحيان) ، و (قوم ثمود) بالضرورة ، فبين الكتابات المنسوبة الى مجموعة من هاتين المجموعتين ما لا يمكن عده من كتابة قوم من (بني لحيان) ولا من قوم ثمود ، وانما هي من كتابات قبائل أخرى ، وقد أدخلت في الخط الليانى او في القلم الثمودي ، لمجرد تشابه الخط . وقد ذكرت ان الكتابة الصفوية ، انما عرفت بهذه التسمية ، بسبب عثور العلماء عليها في (الصفاة) في الغالب ، فنسبوها الى هذه الأرض ، مع انها قبائل وعشائر مختلفة .

ويلاحظ ان التباين في أشكال الحروف داخل المجموعة الواحدة مثل اللحيانية، والثمودية والصفوية ، لا يقل عن التباين الذي نراه بين صور الحروف المكونة لهذه المجموعات . فأنت ترى في هذه الصورة وقد كتب حرف الألف في الصفوية بصور متباينة ، تكاد تجعل من الصعب التوصل الى انها تمثل كلها هذا الحرف ، ثم ترى الحرف نفسه في (الثمودية) ، وقد كتب بصور متباينة ، ويقال نفس الشيء بالنسبة لهذا الحرف في الكتابة اللحيانية . ونجد هذا التباين في كل الحروف الباقية كذلك . أما المسند ، فلا نجد فيه هذا التباين ، مما يحملنا على ارجاع سببه الى ضعف وقوة يد الكتاب ، والى تباين القلم الذي يكتب به . فالمسند قلم ، استعمل في تدوينه قلم حاد قوي ، حفر الكتابة على الحجر حفراً وبعناية ، بسبب انها وثائق وكتابات ذات أهمية بالنسبة لكاتبها ، أما الأقلام الأخرى، فقد استعملت في التعبير عن خواطر في الغالب ، لذلك سجلها كاتبها بأي أداة وجدها او

كانت عنده تؤدي الى إحداث خدش أو حفر على المادة التي وجدها أمامه صالحة للكتابة ، فنقش عليها رأيه بسرعة وبغير تأنق ، فظهرت الخطوط متباينة متغايرة لهذا السبب ، كما ترى في هذه الصورة :

الأقلام الصفوية والثمودية واللحيانية والعربية الجنوبية والعبرانية

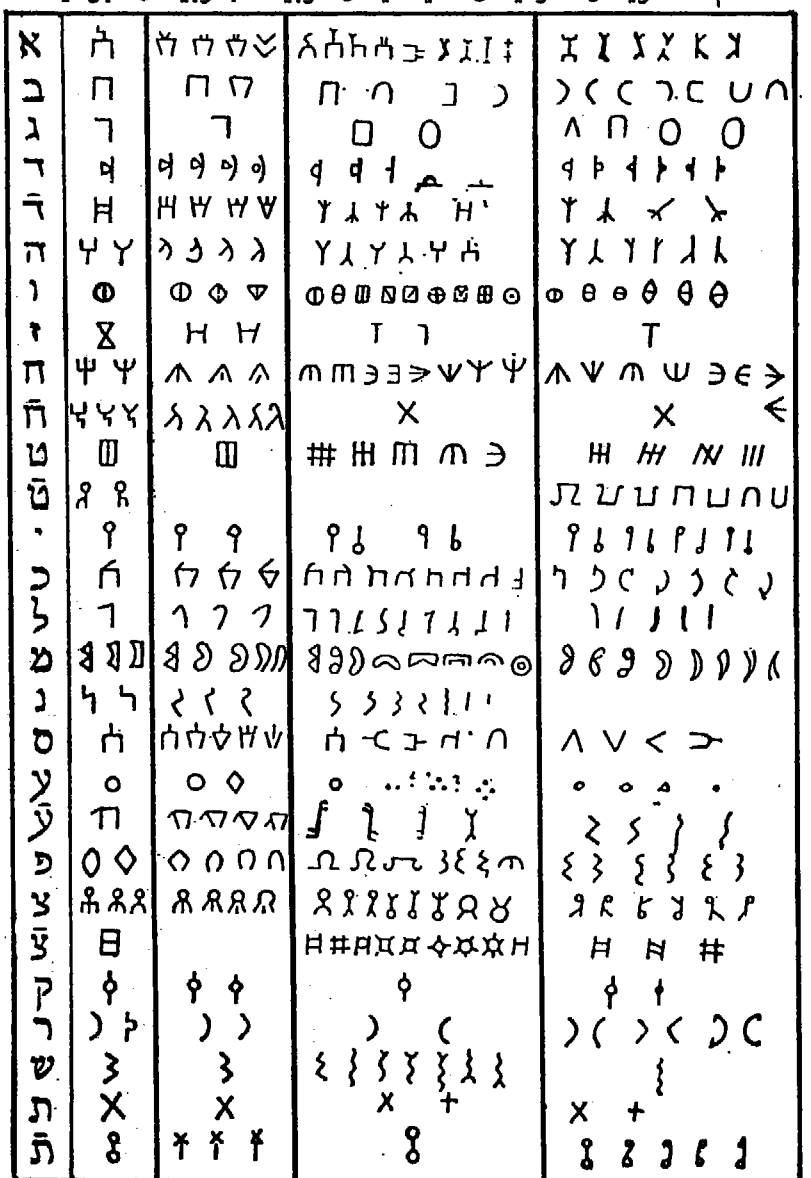

٥	٤	٣	٢	١
		لحياني مسند	ثمودى	صفوى
א				
ב				
ג				
ד				
ה				
ו				
ז				
ח				
ט				
י				
כ				
ל				
מ				
נ				
ס				
ע				
פ				
צ				
ק				
ר				
ש				
ת				
ת				

الترقيم :

لقد تحدثت عن الترقيم عند الصفويين ، وذكرت أنهم ساروا فيه من الواحد الى الخمسة على أساس وضع خطوط عمودية ، تمثل كل خط منها العدد (١) . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١) ، وضعوا خطاً واحداً تمثله . وإذا أرادوا كتابة (٢)، وضعوا خطين عموديين . وإذا أرادوا العدد (٣) ، وضعوا ثلاثة أعمدة . وإذا أرادوا العدد (٤) ، كتبوا أربعة خطوط عمودية . وأما إذا أرادوا الرقم (٥) وضعوا خمسة خطوط .

وكتابة الأرقام من المسائل العويصة التي جابهت الكتّاب في الأزمنة القديمة . وقد كان كتّابهم يكتبون بالحروف ، ولكنهم كانوا إذا أرادوا تدوين الأرقام تحيروا: هل يكتبونها كتابة بالحروف أو يجعلون لها رموزاً خاصة تشير الى الأعداد . وقد وجدنا أن العرب الجنوبيين كانوا قد اختاروا الخط العمودي لتمثيل الرقم (١) ، فإذا أرادوا الرقم (٢) ، وضعوا خطين ، وإذا أرادوا الرقم (٣) ، وضعوا ثلاثة خطوط . وإذا أرادوا الرقم (٤) ، وضعوا أربعة خطوط . ولصعوبة الاستمرار على هذه الطريقة ، بسبب كبر الأعداد ، اختاروا الحرف الأول من لفظة خمسة وهو الخاء لتمثيل العدد (٥) ، واختاروا الحرف (ع) وهو الحرف الأول من العدد عشرة لتمثيل هذا العدد ، واختاروا رموزاً أخرى كما رأينا لمعالجة مشكلة العدد عندهم ، فحلوا بذلك عقدة الترقيم بعض الحل،ولم يبلغوا منه التمام .

وقد اختارت بعض الشعوب النقط ، بدلاً من الخطوط . فالرقم (٧) مثلاً تمثله سبع نقط،والرقم (٣) تمثله ثلاث نقط . وسارت شعوب أخرى على طريقة الخطوط فرمزوا عن الرقم (٥) بخمسة خطوط ، وعن الرقم (١٠) بعشرة خطوط عمودية ، وعن الرقم (١٥) بخمسة عشر خطاً عمودياً . ودفعتهم صعوبة كتابة الأرقام الكبيرة بهذه الطريقة ، الى التفكير في طريقة أخرى تكون مختصرة بعض الاختصار وسهلة في التعبير عن قيم الأرقام ، فاختار بعضهم النقطة رمزاً عن العدد (١٠) ، واختار بعض آخر خطاً أفقياً ليكون ذلك الرمز ، وبذلك سهلت عليهم كتابة الأرقام الآحاد مع العشرات . فإذا أرادوا كتابة الرقم (١٠)،وضعوا نقطة واحدة (٠) أو خطاً أفقياً على هذا الشكل — ليشير الى الرقم (١٠) ، وإذا أرادوا الرقم (١١) ، كتبوه على هذه الصورة : (١٠) أو (— ١) .

وإذا أرادوا الرقم (١٥) ، كتبوه على هذا الشكل (١١١١١ ٠) او على هـذا الشكل : (١١١١١ —) .

وغيّر الفينيقيون وبنو إرم وأهل تدمر بعض التغيير في شكـل الخط الأفقي الدال على العدد (١٠) ، بأن جعلوا في طرفه الأيمن خطاً ممتداً الى الأسفل قليلاً على شكل زاوية متجهة نحو اليسار . ثم أجرى النبط تعديلاً يسيراً في هذه العلامة الجديدة بأن جعلوا رأسها متجهاً الى أعلى اليمين ، اي نحو الزاوية اليمنى للمادة التي يكتب عليها . أما مؤخرتها ، فقد وجهوها نحو الجهة الجنوبية اليسرى[1] .

وقد سار الفينيقيون وبنو إرم على طريقة الترقيم بالخطوط العموديـة للأعداد من (١) الى العدد (٩) . ولتسهيل قراءة الأعداد التي تزيد قيمتها العدديـة على ثلاثة ، جعلوا كل ثلاثة خطوط متقاربة، بحيث تظهر في شكل مجموعة واضحة ، وتمثل هذه المجموعة الرقم (٣) ، ووضعوا على يسار هذه المجموعة ما يكملها لتكوين العدد المطلوب . فكانوا اذا أرادوا مثلاً كتابة الرقم (٥) ، كتبوه على هذه الصورة : (١١١ ١١) اي الرقم (٣) الذي تمثله ثلاثة خطوط عموديـة منضمة بعضها الى بعض ، ثم الرقم (٢) الذي تمثله خطان منضمان ، وبين هذين الرقمين فراغ قليل يفصل بين العددين . واذا أرادوا الرقـم (٦) كتبوه مجموعتين متجاورتين ، كل مجموعة ذات ثلاثة خطوط منضمة ، وبين المجموعتـين فراغ صغير . غير ان بعض الكتابات كتبت الرقـم (٦) على هذا الشكـل : ١١١ ١١١ أي انها وضعت الرقمين ثلاثة أحدهما فوق الآخر ، ليشير هذا الوضع الى حاصل جمع العددين ، وهو ستة[2] .

وقد اصطلح النبط على اتخاذ علامة خاصة بالعدد (٤) جعلوها على هيأة التاء في المسند ، أي على هذا الشكل : (X) ، كما اصطلحوا على اتخاذ علامة أخرى خاصة بالرقم (٥) ، شكلها قريب من شكل الرقم (٥) في الحروف اللاتينية ، اي على هذا الشكل تقريباً : (5) . على حين رمز غيرهم مثل أهـل تدمر عن الرقم (٥) برمز يشبه حرف الـ (X) في الأبجدية اللاتينية . فإذا أرادوا كتابة

---

١ Mark Lidzbarski, Handbuch der Nordsemitischen Epigraphik, Weimer, 1898, S. 198.

المصدر نفسه (ص ١٩٩) ٠

الرقم (٦) ، وضعوا الرقم الذي يرمز عن العدد (٥) ، ووضعوا خطاً على يساره ليشير بذلك الى العددين خمسة زائداً واحداً (٥ + ١) (١ Y) ومجموعهما ستة . واذا أرادوا الرقم (٧) ، كتبوا خمسة زائداً خطين يوضعان على يسار الرقم (٥)،ليتكون من العددين العدد (٧) ، (١١ Y) ، وهكذا الى العدد (٩) .

وقد سار الكتّاب في ترقيم الأعداد التي بعد العشرة على طريقتهم التي اتبعوها في السير أفقياً في الترقيم ، إلا في حالات قليلة ساروا على طريقة وضع الأرقام بعضها فوق بعض ، وجعلوا للرقم (٢٠) علامة تتألف من نقطتين إحداهما فوق الأخرى ، او من خطين أفقيين أحدهما فوق الآخر على شكل علامة مساوٍ (=) في علم الحساب ، أو من علامة تشبه حرف الشين في المسند (ع)، او من علامة تشبه حرف الـ (N) في اللاتية . ووضع النبط للعشرين علامة تشبه الـ (3) اللاتيني في بعض الأحيان ، وتشبه الرقم (8) اللاتيني في أحيان أخرى،غير انهم فتحوا النهاية السفلى من الرقم (8) جعلوها مفتوحة في الغالب[1] .

وتكتب الأعداد الآحاد على الجهة اليسرى من العشرات ، فإذا أردنا كتابة الرقم (١١) ، كتبنا الرقم (١٠) أولاً ثم العدد (١) من بعده ويكتب الى يسار الرقم (١٠) . فإذا أردنا كتابته على الطريقة الفينيقية او الإرمية ، كتبناه على هذه الصورة : (— ١) . واذا أردنا كتابته على طريقة أهل تدمر او طريقة النبط ، وضعنا العلامة التي وصفتها الخاصة بالعشرة ، ووضعوا الى يسارها خطاً واحداً يمثل العدد (١) ، واذا أرادوا العدد (١٢)،وضعوا خطين بعد الرقم(١٠)، واذا أرادوا (١٣) وضعوا ثلاثة خطوط . واذا أرادوا (١٤) ، وضعوا أربعة خطوط . أما اذا أرادوا الرقم (١٥) ، فإن منهم من وضع خمسة خطوط بعد الرقم عشرة كما كان يفعل الفينيقيون ، ومنهم من اتبع هذه الطريقة وطريقة تمثيل العدد بخطوط ، فوضع خمسة عشر خطاً لهذا العدد . ومنهم من وضع بعد العلامة الخاصة بالرقم (١٠) العلامة الخاصة بالرقم (٥) كالنبط وأهل تدمر .

أما مكررات العشرة ، فتكتب على هذه الصورة . إن كان العدد العشرات من الأعداد الزوجية فيكتب العدد بقدر احتواء العدد المراد تسجيله على العدد عشرين . فإذا أردنا كتابة الرقم (٤٠) ، كتبنا الرقم (٢٠) مرتين . وإن كان

---

١ M. Lidzbarski, Handbuch, I, S. 199.

العدد (٦٠) ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات . وإن كان العدد (٨٠) ، كتبناه أربع مرات . أما إذا كان العدد العشرات من غير الأعداد الزوجية كما في مثل ثلاثين ، فإننا نكتب العدد (٢٠) أولاً ثم نضع الرقم (١٠) على يساره، فيتكون من مجموع قيمة العددين (٣٠) . أما إذا أردنا الرقم (٧٠) مثلاً ، كتبنا العدد (٢٠) ثلاث مرات ، ثم العدد (١٠) على الجهة اليسرى من الأرقام الثلاثة . وقد كتب هذا العـــدد في بعض الكتابات الإرمية بست نُقط : ثلاث نقط في أعلا وثلاث نقط في أسفلها ، ونقطة على الجهة اليسرى من المجموعتين وفي مقابل الموضع الوسط الذي يكون الحد الفاصل بين المجموعتين وعلى هذا الشكل(⁘ .)[1]

أما العدد مئة ، فقد رمز عنه بعلامات متعددة ، منها هذه العلامات : (𐡌) و (ס) و (ק) . ونرى أن العلامة الأولى هي توسيع للرقم الذي رمز اليه عن العشرة . وقد اتخذ النبط علامة تشبه الرقم (٩) ، أو الحرف (P) في اللاتينية . وقـــد سبق أن ذكرت ان العرب الجنوبيين كانوا قد اتفقوا على اعتبار الحرف الأول وهو الميم من لفظة مئة هو الرمز الذي يشير الى العدد ، واعتبروا نصف هذا الحرف رمزاً على العدد (٥٠) باعتبار ان الخمسين نصف المئة،فنصف الحرف ميم هو رمز عن هذا العدد .

أما العدد الألف ، فقد وجدت له في بعض الكتابات علامات خاصة . وقـد رمز عنه الفنيقيون وبنو إرم بعلامة هي عبارة عن خط مائل يتصل به ما يشبـــه نصف القوس من جهة اليمين ، ورأس الخط مائل الى اليمين ، أما أسفله فتجه نحو اليسار[2] .

ولم ترد في الكتابات الصفوية أرقام كثيرة ، لذلك لا نستطيع أن نحكم عـــلى طريقتهم في الترقيم وفي العدّ . غير أن في استطاعتنا القول ، استناداً الى هـــذه النماذج القليلة التي وصلت الينا ، انهم اتبعوا في الترقيم الطريقة النبطية وطريقة أهل تدمر ، ولم يتبعوا طريقة العرب الجنوبيين في تدوين العدد . ويمكن ارجاع سبب ذلك الى اتصالهم اتصالاً مباشراً بالنبط وبأهل تدمـــر ، والى تأثرهم بثقافتهم .

---

١ راجع الالواح الخاصة الملحقة بكتاب : M. Lidzbarski والخاصة بالنصوص .
٢ راجع آخر المصور الملحق بكتاب M. Lidzbarski اللوح الخاص بالارقام .

جدول الأرقام

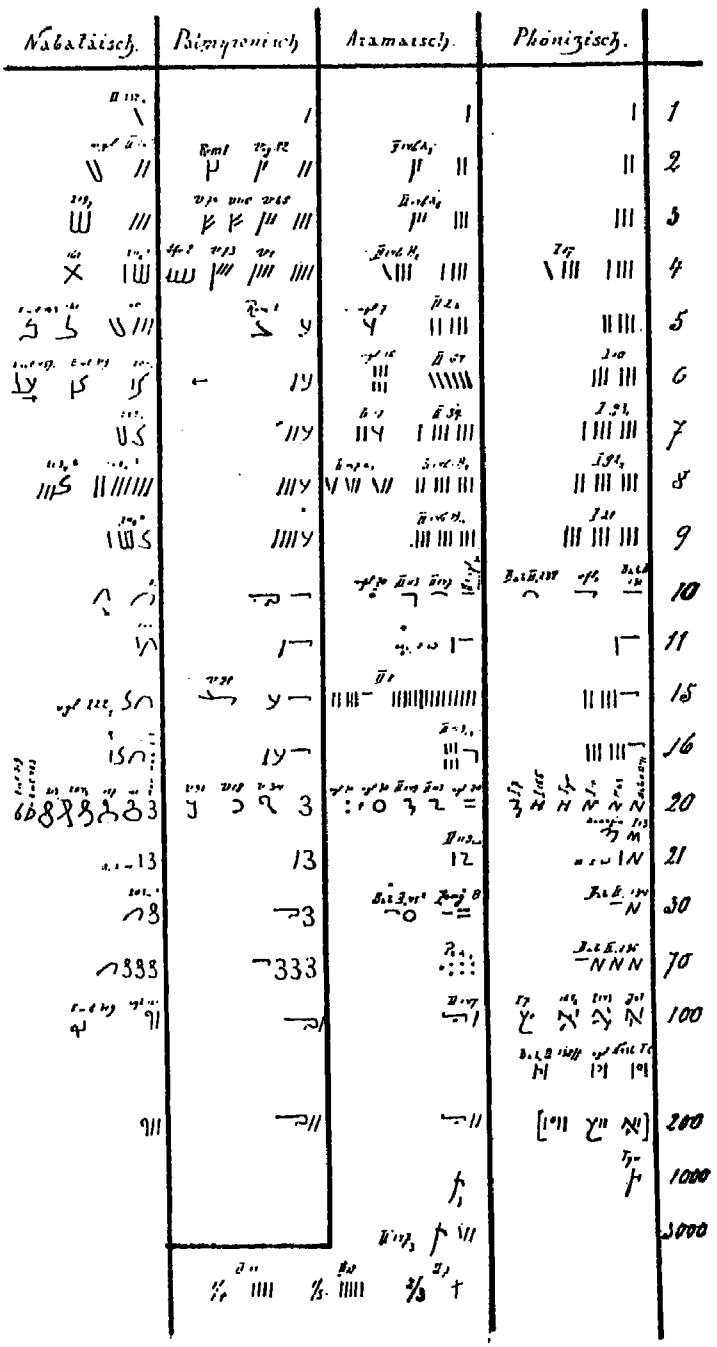

ولما كانوا محتاجين الى تدوين الأرقام اضطروا الى اقتباس طريقة النبط وأهل تدمر في كتابة الأعداد بالأرقام .

وتجد في الجدول المقابل كيفية تدوين الأرقام في الفينيقية والآرامية،والتدمرية ، والنبطية . وهي تختلف اختلافاً بيناً عن صور الأرقام التي نستخدمهـــا اليوم في عربيتنا . ونلاحظ أن من بين الترقيم في المسند ، وبين الترقيم في هذه الأبجديات تشابه كبير الى حد الرقم (٤) ، ثم يختلف ، فقد أخذ العرب الجنوبيون الحرف الأول من لفظة (خمسة) ، وجعلوه رمزاً الى العدد (٥) ، بينما اتبع الباقون طريقة التخطيط بالرقم (١) الى العدد (٩) في الفينيقية ، ثم بـــدلوا الطريقة . وسلكت هذا المسلك الأبجدية الآرامية ، أما الابجدية التدمرية والابجدية النبطية ، فقد اتبعتا سبيلاً آخر ، فيه اختلاف في بعض الأعداد ، ولكن بينهما تجانساً بوجـه عام . مما يدل على أنهما أخذا الترقيم من منبع واحد .

الفصل الثالث والعشرون بعد المئة

الكتابة والتدوين

لا خلاف في أن التدوين كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، بدليل ما تحدثنا عنه من وجود الألوف من النصوص الجاهلية التي عثر عليها في العربية الجنوبية وفي العربية الغربية وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب . كتبت بلهجات عربية متنوعة ، تختلف عن عربية القرآن الكريم ، اختلافاً متبايناً ، أقربها الى عربيتنا الكتابة التي وسمت بـ (نص النمارة) أو كتابة النمارة ، التي هي شاهد قبر (امرىء القيس) ، المتوفى سنة (٣٢٨) للميلاد ، والكتابات الأخرى التي كتبت بعده[1] .

ولا خلاف بين العلماء في أنهم لم يتمكنوا حتى الآن من العثور على أي نص جاهلي مكتوب بهذه اللهجة التي نزل بها القرآن ، والتي ضبط بها الشعر الجاهلي، لا من الجاهلية البعيدة عن الإسلام ، ولا من الجاهلية القريبة منه ، مع أنهم تمكنوا من العثور على كتابات جاهلية مدونة بلهجة عربية أخرى ، تعود الى عهد لا يبعد كثيراً عن الإسلام ، مثل النص المعروف بنص (حران) المدوّن سنة (٥٦٨ م) .

وإذا صح أن الكتابة المعروفة بـ (أم الجمال) الثانية ، هي كتابة جاهلية

---

١ جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام (١/١٨٩ وما بعدها) .

أصيلة ، تكون أول نص يمكن أن نعتبره بحق وحقيقة من النصوص المدونة بلغة القرآن والشعر الجاهلي . ويرجع العلماء الذين درسوه تأريخه الى أواخر القرن السادس للميلاد . وقد جاء فيه :

١ ــ الله غفرا لاليه
٢ ــ بن عبيده كاتب
٣ ــ الخليدا على بنى
٤ ــ عمرى كتبه عنه من
٥ ــ يقروه[1]

ولكن عبارة واسلوب تدوين الكتابة ، يوحيان للمرء ، أنها من الكتابات المدوّنة في الإسلام . وأنا أشك في كونها من مدونات أواخر القرن السادس للميلاد، حتى إذا ذهبنا أن صاحبها كان نصرانياً ، وأن لفظة (غفرا) من الألفاظ الدينية التي كان يستعملها النصارى ، فلا غرابة من ورودها في نص جاهلي ، لأنها كتابة نصرانية . وحجتي أن أسلوبها يفصح عن اسلوب الكتابات الإسلامية القديمة التي دوّنت في صدر الاسلام . وقد تكون في القراءة بعض الهفوات والشطحات، على كلّ فإن الزمن بين العهدين غير بعيد ، ثم ان استعمال (التاء القصيرة) في (عبيدة) الاسم الوارد في السطر الثاني من النص لم يكن معروفاً في هذا العهد ولا في صدر الاسلام ، لذلك أرى أنها من الكتابات الاسلامية . وفيها هفوات .

وبناءً على ما تقدم نقول إننا لم نتمكن من الحصول على نص جاهلي مدوّن بلغة عربية قرآنية ، لا شك في أصالته ، ولا شبهة في كونه جاهلياً . وأن أقدم ما عثر عليه من كتابات بهذه العربية ، هي كتابات دوّنت في الاسلام . في رأسها الكتابات التي عثر عليها مدوّنة على جبل (سلع) قرب المدينة ، يرى (الدكتور حميد الله) أنها ترجع الى السنة الخامسة للهجرة[2] .

ثم الكتابة التي كتبت على شاهد قبر رجل اسمه (عبدالله بن خير) ، أو (عبدالله بن جبر) الحجازي أو الحجري، المحفوظة في دار الآثار العربية بالقاهرة

---

١ ريجيس بلاشير ، تأريخ الادب العربي (الشكل رقم ٥ مقابل الصفحة ٧٣) .
٢ H. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah, in Islamic Culture, Vol. 13, No. 4, 1939, p. 427.

ويعود عهدها الى (جمادى الآخرة) من سنة احدى وثلاثين[1] .

ولا خلاف بين الباحثين في أن كل ما وصل الينا من نصوص جاهلية إنما هو بلغة النثر ، إذ لم يعثر حتى الآن على نص مكتوب شعراً . ونظراً الى وجود التدوين عند أصحاب هذه النصوص ، ونظراً لأن الشعر ، شعور ، لا يختص بإنسان دون إنسان ، وبعرب دون عرب،فأنا لا استبعد احتمال ، تدوين الجاهليين الشعر أيضاً ، مثل تدوينهم لخواطرهم وأمورهم نثراً . دوّنوه بلهجاتهم التي كتبوا بها . وهي بالنسبة لهم لهجاتهم الفصيحة المرضية . أما سبب عدم وصول شيء مدوّن منه الينا ، فقد يعود حسب رأيي ، الى أن تدوين الشعر والنثر يكون في العادة على مواد قابلة للتلف ، مثل الجلود والخشب والعظام وما شاكل ذلك ، وهي لا تستطيع مقاومة الزمن ، لا سيما إذا طمرت تحت الأتربة ، ثم هي معرضة لالتهام النار لها عند حدوث حريق ، أو للتلف إن أصابها الماء ، أضف الى ذلك أنهم كانوا يغسلون الجلد المكتوب ، للكتابة عليه مرة أخرى ، لغلاء الجلود ، وهو ما حدث عند غير الجاهليين أيضاً . ونجد في المؤلفات الاسلامية أمثلة كثيرة على غسل الصحف المكتوبة للكتابة عليها من جديد . ورسائل النبي وكتبه وأوامره الى عماله ورسله على القبائل ، فقد فقدت وضاعت مع ما لها من أهمية في نظر المسلمين ، وقل مثل ذلك عن كتب الخلفاء ، فلا نستغرب إذن ضياع ما كان مدوّناً من شعر جاهلي،فقد نص مثلاً على ان الشاعر (عدي ابن زيد) العبادي ، وكان كاتباً مجوداً بالعربية وبالفارسية حاذقاً باللغتين قارئاً لكتب العرب والفرس ، كان يدوّن شعره وهو في سجن النعمان ويرسل به الى الملك ، يتوسل اليه فيه أن يرحم به ، وأن يعيد اليه حريته ، وكان الشعر يصل الى الملك ، فلما طال سجنه صار يكتب الى أخيه أبي بشعر[2] ، لم تبق من أصوله المكتوبة أية بقية ، وقد ضاعت أصول شعره المكتوب المرسل الى النعمان كذلك، حتى أننا لا نجد أحداً من رواة شعره يروى أنه رجع اليها فنقل منها ، مما يبعث على الظن أنها فقدت منذ عهد بعيد عن بداية عهد التدوين .

ويدفعنا موضوع التدوين الى البحث عن تدوين الأدب والعلم عند الجاهليين ،

---

١ ولفنسون ، السامية (٢٠٢) .

٢ الطبري (١٩٧/٢ وما بعدها) ، (ذكر خبر ذي قار) .

وعما إذا كان للجاهليين أدب منثور وعلم مدوّن ؟ لقد ذهب بعض الباحثين الى وجود هـذا الأدب عند أهل الجاهلية ، وتوقف بعض آخر ، فلم يبد رأياً في الموضوع ، وتوسط قوم ، فقالوا باحتمال وجود تدوين أو شيء منه عندهم ، إلا أنهم أحجموا عن الحكم على درجة تقدمه واتساعه في ذلك العهد . لعدم وجود أدله ملموسة يمكن اتخاذها سنداً لابداء رأي واضح علمي في هذا الموضوع .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أنه لو كانت هنالك مدوّنات في الأدب ، لما خفي ذكرها وطغى اسمها حتى من ذاكرة أهل الأخبار ، ومن أحاديث الرواة . إنه لو كان أهل الجاهلية قد زاولوا التأليف وتدوين العلم ، لما اقتصر علم أهـل الأخبار في الأدب عـلى ذكر قطع من الحكم ، يشك في صحتها ، وعلى إيراد الشعر رواية وعلى رواية بعض القصص والأمثال ، وسردهم كل شيء يتعلق بأمر الجاهلية رواية . وانه لو كان لديهم تأليف منظم ، لسار عـلى هديهم من جاء بعدهم في الاسلام ، ولسلكوا مسلكهم في التدوين : تدوين الكلام المنثور وتدوين الكلام الموزون المقفى ، وحيث أن أحداً لم يذكر اسم مدوّن من مدوّنات أهـل الجاهلية ، وحيث أن المسلمين لم يشرعوا بالتدوين إلا بعد حين ، فلا يمكن لأحد النص بكل تأكيد على وجود تدوين عند الجاهليين[1] .

ولم نعثر على خبر في كتب أهل الأخبار يفيد أن أحداً من الرواة والعلماء أخذ نص كلام حكيم من حكماء الجاهلية ، أو خبر أو شعر من صحف جاهليـة ، أو من كتب ورثوها من ذلك العهد . هذا (قس بن ساعدة) الايادي ، مع ما قيل عنه من أنه كان كاتباً قارئاً للكتب ، واقفاً على كتب أهـل الكتاب ، خطيباً عاقلاً حكيماً ، وان العرب كانت تعظمه وضربت به شعراؤها الأمثال ، وأنه كان خطيب العرب قاطبة ، نجدهم يختلفون في خطابه المعروف ، ويروونه بمختلف الروايات ، حتى ذكر أن الرسول كان قد سمعه ، وسمع خطابـه ، فلما جاء ذكره ، وأراد أن يتذكر خطابه ، وجد بين الصحابة اختلافاً في تلاوته ، لأنه لم يكن مدوّناً ، ولو كان مدوّناً لم يختلف فيه[2] .

---

١ هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام (٢٩٤ وما بعدها) ، (دار العـلم للملايين) .

٢ الاصابة (٣/٢٦٤) ، (رقم ٧٣٤٢) .

وليس في الأخبار عن الجاهلية خبر يفيد أن السدنة أو غيرهم من الساهرين على الأصنام والأوثان وبيوتها ، ألفوا كتباً في الوثنية وفي أحكامها وقواعدها . أما اليهود والنصارى ، فقد كان لهم علماء يشرحون للناس في معابدهم أحكام دينهم ، ويعلمونهم الكتابة والقراءة وما في كتبهم المقدسة من أوامر ونواه . فكان « أبو الشعثاء ، وهو رجل ذو قدر في اليهود ، رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة »[1] . وهو من يهود بني ماسكة . وكان آخرون بينهم يعلمونهم أحكام دينهم في بيت المدارس .

وفي لغة الجاهليين مفردات تستعمل في القراءة والكتابة ، مثل : قلم،وقرطاس، ودواة ، ومداد ، ولوح ، وصحف ، وكتاب ، ومجلة ، وغير ذلك لا يشك في استعمال الجاهليين لها ، لورودها في القرآن الكريم . وورودُها فيه ، دليل على استعمالهم لها . وورد بعضها أيضاً في الحديث النبوي وفي الشعر الجاهلي . ويفيدنا حصر هذه الألفاظ وضبطها في تكوين رأي علمي صحيح سديد في الكتابة والقراءة عند الجاهليين ، والمؤثرات الخارجية التي أثرت في العرب في هذا الباب ، وفي تكوين رأي قاطع في الجهة التي أمدت العرب كثيراً أو قليلاً بعلمهم في قلمهم العربي الشمالي الذي يكتب به الى هذا اليوم .

وأعتقد ان من واجب علماء العربية في هذا اليوم ، العمل على حصر ألفاظ العلوم والحضارة والثقافة التي ثبت لديهم استعمال الجاهليين لها ، وتعيين تأريخ استعمالها وأصولها التي وردت منها إن كانت أعجمية دخيلة ، والاستشهاد بالأماكن التي وردت فيها ، ففي هذا العمل العلمي ، مساعدة كبيرة للباحثين على تشعب علومهم وموضوعاتهم في الوقوف على تطور الفكر العربي قبل الإسلام . ولا أقصد الإحاطة بالمفردات الواردة في الشعر الجاهلي أو القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو معجمات اللغة وغيرها من الموارد الاسلامية وحدها ، بل لا بد من اضافة المفردات الواردة في الكتابات الجاهلية التي عثر والتي سيعثر عليها الى تلك المادة لأنها مادة العصر الجاهلي وجرثومة اللغة ، وبدونها لا تسعنا الاحاطة بلغة أهل الجاهلية وبتطور فكرهم أبداً .

ومن يراجع الموارد العربية وعلى رأسها المعجمات ، يدرك الصعوبات التي يلاقيها

---

١ الاغاني (١٥/١٦) .

المرء في الحصول على مادة ما،لعدم وجود الفهرسة للألفاظ والمواد في معظم هذه الموارد ، فعلى المراجع قراءة صفحات وأجزاء أحياناً للحصول على شيء زهيد . ولهذا زهد معظم المؤلفين في مراجعة ما هو مطبوع مع أهميته ودسم مادته ، لأن الصبر قاتل ، والاكثار من المراجعة عمل شاق مرهق ، والحياة تستلزم السرعة والانتاج بالجملة . وقد ماتت هِمم الماضين ، وحلت محلها عجلة المستعجلين الذين يريدون الانتاج السريع الخفيف الجالب للاسم والمال .

وبعض الألفاظ الخاصة بالكتابة والقراءة ، هي ألفاظ معربة ، وإن وردت عند الجاهليين واستعملت قبل الاسلام بزمن طويل ، عرّب بعضها عن اليونانية ، وعرّب بعض آخر عن الفارسية أو السريانية أو القبطية ، وذلك بحسب الجهة التي ورد منها المعرب ووجد سبيله الى العربية ، ويمكن التعرف عليه بمقابلة اللفظ العربي مع اللفظ المقابل له عند الأمم المذكورة ، وبضبط الزمن الذي استعمل فيه والظروف المحيطة به ، للتأكد من أصله ، فقد يكون عربياً أصيلاً انتقل من العرب الى تلك الأقوام ، وقد يكون العكس ، نتمكن من الحصول على دراسة علمية قيمة في باب المعربات والتبادل الفكري بين الجاهليين والأعاجم .

والقلم ، هو من أدوات الكتابة المذكورة عند الجاهليين . وقد ذكر في القرآن الكريم . أقسم به في سورة (ن والقلم) ، وعظم وفخم شأنه في سورة العلق[1] . يكتب به على الورق والرق والجلود والقراطيس والصحف ومواد الكتابة الأخرى، وكان يتخذ من القصب في الغالب ، فتقطع القصبة قطعاً يساعد على مسكه باليد، ثم يبرى أحد رأسيها ، ويشق في وسطه شقاً لطيفاً خفيفاً يسمح بدخول الحبر فيه، فإذا أريدت الكتابة به ، غمس في الحبر ، ثم كتب به . ويعرف هذا القلم بقلم القصب ، تمييزاً له عن الأقلام المستعملة من مواد أخرى .

ولفظة (القلم) من الألفاظ المعربة عن أصل يوناني ، فهو (قلاموس) في اليونانية ، ومعناها القصب ، لأن اليونان اتخذوا قلمهم منه[2] .

---

١ سورة العلق ، الاية ٤ ، سورة القلم ، الاية ١ ، لقمان ، الاية ٢٧ ، المفردات (ص ٤٢٢) ، شر) القاموس (٩/ ٣١) ، صبح الاعشى (٢/ ٤٣٤ وما بعدها) .

٢ الأب رفائيل نخلة اليسوعي (ص ٣٦٦) ، فرائد اللغة (ص ٢٩٣) ، Ency. II, p. 675.

وينبت القصب في مواضع من جزيرة العرب حيث تتوافر المياه . وقد أشار (بلينيوس) Pliny ، في تأريخه الى قصب Kalamus عربي ، وقصب ينمو في الهند ، وذكر أنهم يستعملونه في عمل الأنسجة .

وهناك نوع من القصب قوي متين ، يطول فيستعمل في أغراض متعددة ، يقال له (قنا) ، ومنه (القنى) و (القناة) التي يستعملها المحاربون ، وتعرف بـ (قنة) في العبرانية . وكانوا يستوردونه من (صور)[1] .

وقد وردت لفظة (القلم) و (قلم) في شعر عدد من الشعراء الجاهليين في شعر لبيد وعديّ بن زيد العبادي والمرقش وأمية بن أبي الصلت وغيرهم ممن وقفوا على الكتابة وكانت لهم صلات بالحضارة وبأصحاب الديانات . وذكر أن الخط يكون بالقلم[2] .

ويعرف القلم بـ (المِزْبَر) كذلك ، من أصل زبر بمعنى كتب . وقد ذكر في الحديث النبوي[3] . ويعرف بـ (المِرقَمْ) أيضاً[4]، إذ هو أداة للرقم ، أي الكتابة .

ويقطّ القلم بمقطة[5] ، وتستعمل السكين في بريه أيضاً . ويعتنى بذلك حتى يكون القلم جيداً سهلاً في الكتابة[6] . ويقال للسكين : المدية على بعض لهجات العرب[7] . والقلم قبل أن تبريه : أنبوبة ، فإذا بريته ، فهو قلم . وما يسقط منه

---

١ Smith, Dictionary of the Bible, I, p. 241.

٢ قال عدي :
ما تبين العين من آياتها غير نؤى مثل خط بالقلم
الاغاني (١١٩/٢) ، سمط اللآلي (٨٧٦) .
وورد في شعر لأمية بن أبي الصلت :
قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعا والخط والقلم
سيرة ابن هشام (٤٨/١) ، بلوغ الارب (٣٦٩/٣) ، المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (١٢٧/٦) ، النقائض (١٠٦) ، شرح المعلقات ، للتبريزي (١٢٨) .

٣ صبح الاعشى (٤٣٤/٢) ، المفردات (ص ٢١٠) ، الفائق (٥٢٢/١) ، تاج العروس (٢٣١/٣) ، (زبر) .

٤ بلوغ الارب (٣٧٢/٣) ، تاج العروس (٣١٦/٨) ، (رقم) .

٥ شرح القاموس (٢٠٧/٥) .

٦ السمعاني ، أدب الاملاء والاستملاء (ص ١٦١) .

٧ صبح الاعشى (٤٥٥/٢ وما بعدها) .

عند البري: البُراية . والمِقطّ : ما يقط عليه . والقط : القطع عرضاً ، والقدّ : أن يقطع الشيء طولاً [1] .

وهناك أنواع أخرى من الأقلام غير قلم القصب ، صنعت من الحديد . وقد استعمل العبرانيون وغيرهم أقلاماً من حديد ذات رؤوس من الماس ، ليكتب بها على صفائح من الحجر أو من المعدن ، كما استعملوا القلم الحديد أو القلم الرصاص وأقلاماً من معادن أخرى للكتابة بها على صفائح من الخشب مغطاة بشمع . ولهذا القلم رأسان : رأس محدد للكتابة ، ورأس مفلطح لمحو الغلطات وتسوية سطح الشمع ثانية ، كما استعملت الفرشاة لرسم الحروف [2] . واستعمل أيضاً ريش الطيور . وقد عرف القلم المصنوع من الحديد بـ (عيت) ET عند العبرانيين [3] .

وذكر ان (زيد بن ثابت) دخل على رسول الله وهو يملي في بعض حوائجه، فقال : « ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي به » [4] .

وقد استعملوا السكين والآلات الحادة في الكتابة على الخشب أو الحجر ، كما استخدموا الفحم وكل ما يترك أثراً على شيء ، مادة للكتابة . وذلك حين يعنّ لهم خاطر أو حين يريدون ابلاغ رسالة أو تقييد أمر هام ، مثل وقوع اعتداء على شخص ، فيكتب ما وقع له ، وهو لا زال متمكناً من الكتابة ، على ما قد يكون عنده ، حتى يعلم بمصيره من قد يمر به ميتاً [5] . وقد حفر (قيسبة بن كلثوم السكوني) على رحل (أبي الطمحان القيني) رسالة ، دوّنها بسكين [6] . ودوّن أحدهم ، وهو يحتضر ، خبر قتله على راحلة قاتله ، بعد أن غافله ، ذكر فيها اسم قاتله [7] . وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل ، توسل فيها كاتبوها بمختلف الوسائل لايصال رسائلهم الى من يريدون وصولها لهم . وقد وصلت بعضها وجاءت بالنتائج التي كان يريدها أصحابها منها .

---

١ بلوغ الارب (٣/٣٧٠ وما بعدها) .
٢ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٢٣) ، HASTINGS, p. 981.
٣ Hastings, p. 981.
٤ عيون الاخبار (١/٤٢) .
٥ ابن سعد ، الطبقات (٣/٣ ص ١٥١) ، المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .
٦ الاغاني (١١/١٣١) .
٧ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) .

وأما المادة التي يكتب بها ، فهي عديدة ، أهمهـــا : الحبر ، ويعرف أيضاً بالمداد[1] . ويصنع من مواد متعددة تترك أثراً في المادة التي يكتب عليهـــا . من ذلك الزاج وسخام المصابيح ، يمزج مع مادة لزجة مثل صمغ العفص أو صمغ آخر ، فيكتب به . ولما كان الحبر أسود ، قيل له (ديو) في العبرانية ، وقد عرف بهذا المعنى أي (سواد) في اليونانية كذلك[2] .وعرف بـ Atramentum في اللاتينية ، وهي في المعنى نفسه[3] .

وقيل للمداد (نِقس) ، وقد وردت اللفظة في بيت شعر للشاعر (حميد بن ثور) حيث قيل إنه قال :

لمن الديار بجـــانب الحبس كخط ذي الحاجات بالنقس[4]

وأشير الى (المداد) في شعر لـ (عبدالله بن عنمة) ، حيث يقول :

فلم يبق إلا دمنـــة ومنازلٌ كما رُدّ في خط الدواة مدادها[5]

وقد ذكر (المداد) في القرآن : « قـــل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر ، قبل أن تنفد كلمات ربـي »[6] ، « يقول عزّ ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات ربـي لنفد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات ربـي)[7] ، فالمـــداد إذن من الألفاظ التي كانت مستعملة قبل الإسلام .

وقد صُنع الحبر من مواد مختلفة ، صنعه العبرانيون من سخام المصابيح ، أما المصريون فصنعوه من مـــواد متعددة ، فصار اتقن من المداد العبراني ، ولذلك حافظ على بريقه ولونه ، كما أنـــه لا يمحى بسهولة ، بينما كان الحبر العبراني

---

١ شرح القاموس (٢/٤٩٨) ، (٣/١١٧) ، المفردات (ص ١٠٤) .
٢ بلوغ الارب (٣/٣٧٢) ، Smith, A Dict., III, p. 1802.
٣ Hastings, A Dictionary, II, p. 472.
٤ مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، للدكتور ناصرالدين الاسد (ص ١٠٠).
٥ المفضليات (٧٤٣) .
٦ الكهف ، الآية ١٠٩ .
٧ تفسير الطبري (١٦/٣١) ، صبح الاعشى (٢/٤٧١) .

قابلاً للغسل بكل سهولة[1] . ولا نجد بين العلماء اتفاقاً في أصل معنى (الحبر)، مما يدل على أن اللفظة[2] من المعربات . أما المداد ، فذكر علماء اللغة ، أنه ما مددت به السراج من زيت ونحوه ، ثم خص بالحبر . والظاهر أنها أخذت من سخام الزيت الذي يحترق في السراج ، وأنها تعني (سواد) ، على نحو ما نجده في لفظة Melan اللاتينية ، التي تعني السواد ، سواد السراج ، وخصصت بالحبر[3] .

وليست لدينا أخبار عن كيفية صنع الحبر عند الجاهليين ، ولم يصل الينا نص جاهلي مدون بالحبر نتمكن بتحليل مادته من الوقوف على تكوينه . ولكننا نستطيع أن نقول إن حبر الجاهليين لم يكن يختلف عن أنواع الحبر المستعملة عند الشعوب الأخرى في ذلك العهد وأبسطها الحبر المصنوع من الفحم المسحوق ، مضافاً اليه الماء وقليل من الصمغ في بعض الأحيان . والحبر المصنوع من بعض المواد المستخرجة من زيوت بعض الأشجار وعصاراتها ، أو من مسحوق عظام الحيوانات المحروقة أو من بعض الأوراق المؤكسدة بالحديد وببعض المعادن . ويراد بالحبر ، الحبر الأسود في الغالب ، غير ان القدماء كانوا يستعملون أصباغاً مثل الأحمر والأخضر ، في تدوين الشروح والملاحظات والأمور المهمة التي تلفت النظر ، كما استعملت في التصوير وفي رسم بعض الرسوم التوضيحية ، كما يظهر ذلك من الأوراق القديمة التي عثر عليها في مصر وفي اليونان وغير ذلك من الأماكن . وقد ورد في كتب الحديث النبوي وموارد اسلامية أخرى ، ان الجاهليين كانوا يستعملون الصور والنقوش . ويريدون بالنقش تلوين الشيء بلونين أو عدة ألوان . ويقولون له : النمنمة كذلك[4] . وكان منهم مصورون يصورون الانسان والحيوان والأشجار وغير ذلك . وقد نهى الرسول عن تصوير كل ما هو ذو روح . وهذا التحريم هو دليل شيوع التصوير واستعمال الصور عند الجاهليين .

ويحفظ الحبر في أداة ، يقال لها (الدواة) و (المحبرة)[5] ، يحملها الكاتب

---

١ Hastings, p. 383.

٢ تاج العروس (٢/٤٩٨) ، (مدد) .

٣ Hastings, p. 383.

٤ شرح القاموس (٤/٣٥٨ وما بعدها)

٥ تاج العروس (١٠/١٣٣) ، تفسير ابن عباس (٤٥١) .

٦ تاج العروس (٣/١١٧) .

معه ، فيعلقها بحزامه ، أو يضعها تحت ثيابه ، ويكون لها غطاء يمنع الحبر أن ينساب منها ، ويكون بها تجويف تخزن فيه الأقلام والمقطة . وقد تكون المحبرة كأساً صغيرة ذات غطاء يخزن الحبر فيها . وقد عرفت لذلك بـ (كست هسفر) (كاست هاسيفر) ، أي (كأس الكتاب) في العبرانية[1] . وقد بقي الكتّاب وطلاب العلم والعلماء يستعملون تلك المحابر القديمة الى عهد قريب ، إذ حلت محلها الأقلام الحديثة المحملة بالحبر ، وما زال بعض رجال الدين ومن يعنون بجمال الخط وتحسينه يستعملون أقلام القصب والحبر القديم على الطريقة القديمة المذكورة.

وقد عرفت المحبرة الكبيرة التي يحفظ فيها الحبر والأقلام والمقطة ومواد الكتابة الأخرى بـ (قلمارين) ، (قلماريون) (ق ل م ر ي ن) في (المشنا) أي المقلمة في العربية ، تمييزاً لها عن أداة أخرى عرفت بـ (ترنتوق) ، وهي مقلمة توضع فيها الأقلام والمبراة . وهناك لفظة أخرى ، هي (لبلرين) وتقابل Libelari في اللاتينية يطلقها المتأدبون على المقلمة[2] .

وقد أشير الى الدوي ، أي المحابر في بيت شعر ينسب لأبي ذؤيب :

عرفت الديار كخط الدوي ي حبّره الكاتبُ الحميري[3]

وذكر أن من أسماء المحبرة (ن) وأن (ن والقلم) بمعنى الدواة والقلم[4] .

وقد كان من عادة الكتّاب ترميل الكتابة لتجف ، وكانوا يضعون الرمل في إناء خاص ثم يذرون منه شيئاً على الكتابة .

وأما المواد التي يكتب عليها ، فعديدة ، تتوقف على ظروف المكان ومقدرة أهله المالية ، منها الحجر والخشب ومختلف أنواع المعادن والطين وورق الشجر والجلود والقراطيس واكتاف الإبل واللخاف والعسب والقضم وغير ذلك[5] . والى الحجر المكتوب ، يعود الفضل الأكبر في حصولنا على معارفنا عن عرب اليمن

---

١ Smith, A Diction., I, p. 1802.

٢ Smith, A Dictio., III, p. 1789.

٣ اللسان (١٤/٢٧٩) .

٤ اللسان (١٣/٤٢٧) ، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، للفيروز آبادي (٤٥١) .

٥ الفهرست (ص ٣١ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٥) ، الفائق (٢/١٥٠) .

قبل الإسلام ، وعرب بلاد الشأم وأعالي الحجاز . فلولاه لكان علمنا بهم نزراً يسيراً .

والعسب ، جريد النخل ، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص . ولوفرته في الحجاز استعمله كتاب الوحي وحفظة القرآن في تدوين الوحي عليه . وقد رجع اليه زيد بن ثابت في جملة ما رجع اليه من مواد يوم كُلِّف جمع القرآن الكريم[1]. وقد ورد (عسيب يماني) في شعر لامرىء القيس ، هو قوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبورٍ في عسيب يماني[2]

وقد ورد عن (زيد بن ثابت) ، ان (أبا بكر) لما أمره بجمع القرآن ، أخذ يتتبعه من (الرقاع والعسب واللخاف) ، واللخاف : حجارة بيض. وورد في حديث (الزهري) : « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن في العسب والقضيم والكرانيف »[3] .

وذكر (لبيد) العسب في شعره حيث ورد :

متعود لحنٌ يعيد بكفه قلماً على عسب ذبلن وبان[4]

والجريد من مادة التدوين عند أهل الحجاز . والجريدة السعفة ، بلغة أهل الحجاز ، وفي الحديث : كتب القرآن في جرائد ، جمع جريدة[5] .

واستعمل (الكرناف) (الكرانيف) و (الكرب) مادة للكتابة كذلك . وقد ورد أن كتبة القرآن استعملوا الكرانيف مادة لتدوين الوحي[6] . والكرانيف والكرب ، أصول السعف الغلاظ العراض التي تلاصق الجذع ، وتكون على هيأة الأكتاف[7] . قال الطبري قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، « ولم يكن

---

١ صبح الاعشى (٢/٤٧٥) ، تاج العروس (١/٣٨١) ، (عسب) .
٢ ديوان امرىء القيس (١٢٠) ، تاج العروس (٥/١٢٩) .
٣ الفائق (٢/١٥٠) .
٤ الامالي (١/٥) .
٥ النسبان (٣/١١٨ وما بعدها) ، (جرد) .
٦ تفسير الطبري (١/٦٣) ، الفائق (٢/١٥٠) .
٧ تفسير الطبري (١/٦٣) .

القرآن جمع ، وإنما كان في الكرانيف والعسب »[1] .

واستعمل الجاهليون كتف الحيوان أيضاً ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان للكتابة عليه ، وقد كتب عليه كتبة الوحي . وفي الحديث : ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده.أو ائتوني باللوح والدواة والكتف[2]. ولما كانت العظام مادة مبذولة ميسورة في استطاعة الكاتب الحصول عليها بغير ثمن ، وهي صالحة للكتابة بكل سهولة على شكلها الطبيعي أو بعد صقل وتشذيب قليلين ، لذلك استعملها الكتاب بكثرة . فكانت مادة مهمة استعملها كتبة الوحي في تدوين القرآن . وقد ذكر (ابن النديم) أن في جملة العظام التي كتب عليها العرب : أكتاف الإبل[3] .

وكانوا إذا كتبوا في الأكتاف حفظوا ما كتبوه في جرة أو في صندوق حتى يحفظ ، ويكون في الامكان الرجوع اليه . وقد كانت الأكتاف في جملة المواد المكتوبة التي استنسخ (زيد بن ثابت) منها ما دوّن من القرآن .

واستعملوا الجلود مادة من مواد الكتابة : الجلد المدبوغ والجلد الغير المدبوغ . وقد كانوا يدبغون الجلد أحياناً ويصقلونه ويرققونه حتى يكون صالحاً مناسباً للكتابة. وقد يدبغونه ويصبغونه،وقد ذكر علماء اللغة أنواعاً من أنواع الجلود التي استعملوها في كتابتهم،منها :

القضم ، جمع قضيم ، الجلد الأبيض يكتب فيه . وقيل الصحيفة البيضاء ، أو أي أديم كان . وقد أشير اليه في شعر للنابغة :

كأن مجرّ الرامسات ذيولها عليه قضيم نمقته الصوانع[4]

وأشير الى (القضيم) و (القضيمة) في شعر (زهير بن أبي سلمى)[5] ، وفي شعر (امرىء القيس)[6] .

---

١ تفسير الطبري (٦٣/١) .
٢ تاج العروس (٢٢٩/٦) ، الطبري (١٩٣/٣) (حوادث السنة الحادية عشرة) .
٣ الفهرست (ص ٣١) .
٤ تاج العروس (٢٩/٩) ، (قضم) ، الفائق (١٥٠/٢) .
٥ ديوان زهير (٢٣١) .
٦ ديوانه (ص ٨٦) .

ويظهر من تفسير العلماء للكلمة ، ان (القضيم) الصحف البيضاء المستعملة من الجلد . وذلك بأن تقطع وتصقل حتى تكون صالحة للكتابة . وقد ورد ان كتبة الوحي استعملوا القضم في جملة ما استعملوه من مواد الكتابة[1] .

وأما الأدم ، وهي الجلود المدبوغة ، فقد كانت مثل القضم من مواد الكتابة الثمينة . وقد استعان بها كتبة الوحي في تدوين القرآن[2] . كما كانت مادة لتدوين المراسلات والعهود والمواثيق[3] . وقد أشير الى (الأديم) في شعر للمرقش الأكبر[4]. وذكر ان بعضه كان أديماً أحمر ، أي مدبوغ بمادة حمراء ، ومن أنواعه (الأديم الخولاني) . والظاهر انه كان من أوسع مواد الكتابة استعمالاً في أيام الجاهلية وصدر الاسلام،لوجوده عندهم ، ولرخص ثمنه بالنسبة الى الورق المستورد من مصر أو من بلاد الشأم[5] . وقد جاء في بعض الأخبار ان بعض مكاتبات الرسول كانت في الأدم[6] .

وكان الدباغون يدبغون الأهب ويصلحونها بصقلها ، فإذا دبغ الإهاب صار أديماً . وقد ذكر ان أهل مكة كانوا يشترون قطع الأديم،ويكتبون عليه عهودهم ومواثيقهم وكتبهم . ولما توفي (سعيد بن العاص) جاء فتى من قريش يذكر حقاً له في كراع من أديم بعشرين ألف درهم على (سعيد) ، بخط مولى لسعيد كان يقوم له على بعض نفقاته ، وبشهادة (سعيد) على نفسه بخطه . فأعطي حقه على ما كان مدوناً في قطعة الأديم[7] .

وذكر بعض علماء اللغة أن القرطاس : الكاغد ، يتخذ من بردي يكون بمصر. وذكر بعض آخر أن القرطاس الصحيفة من أي شيء كانت ، يكتب فيهـا ،

---

١ الفائق (٢/١٥٠) .
٢ تفسير الطبري (١/٥٩) ، السجستاني ، كتاب المصاحف (٢٣ وما بعدها) .
٣ نسب قريش ، لنزبيري (١٧٧ وما بعدها) .
٤ الدار وحـش والرسـوم كما رقـش فـي ظهـر الأديم قـلم
المرزباني ، معجم (٢٠١) ، الاغاني (٦/١٢٧) . وورد : الدارقفر) ، عوضا عن (الدار وحش) ، المفضليات (ص ١١١) (بقلم السندوبي) (القاهرة ١٩٢٦ م) ، البيان والتبيين (٣٧٥) .
٥ تقييد العلم (٢٥٢/٧٢) ، مسند أحمد (٤/١٤١) ، الطبقات (٧/٥٤) ، نسب قريش (١٧٧ وما بعدها) ، المصاحف (٢٣ وما بعدها) .
٦ صبح الاعشى (٢/٤٧٥) .
٧ نسب قريش (١٧٧ وما بعدها) .

والجمع قراطيس[1] . وقد وردت لفظة (قرطاس) و (قراطيس) في القرآن الكريم[2]. وورود اللفظة في القرآن الكريم دليل على وقوف العرب عليها. وهي من الألفاظ التي دخلت الى العربية من مصر أو من بلاد الشأم ، حيث استورد أهل مكة والعربية الغربية مختلف التجارة منها ، ومنها القراطيس ، ويعرف القرطاس في اليونانية بـ Khartis [3] .

ويظهر أن أهل بلاد الشأم كانوا قد استعملوا اللفظة اليونانية ، فلما نقل الجاهليون القرطاس منهم وتعلموه عنهم ، استعملوا المصطلح اليوناني بشيء من التحريف والتحوير ليناسب النطق العربي . وقد نص بعض علماء اللغة على أن اللفظة من الألفاظ المعربة [4] .

وتقابل لفظة (قرطاس) لفظة Papyri في اللغة الانكليزية . وقد كان القدماء في مصر وفي حوض البحر المتوسط يكتبون على القراطيس . وهي على صورة لفّات تلف كالأسطوانة تحفظ في غلاف حذر تلفها وتمزقها . وأسفار اليهود هي على هذه الصورة[5] . ولا زالت معابدهم تستعمل توراتهم المكتوبة على هيئة (سفر) أي مكتوبة على هيأة صفحات متصلة بعضها ببعض على شكل اسطوانة ، يسحب أحد طرفيها الذي يوصل باسطوانة أخرى ، ثم يقرأ من السفر .

وذكر علماء اللغة أن (الرقاع) ، هي القرطاس[6] .

ووردت لفظة (رق) في القرآن الكريم : « والطور وكتاب مسطور في رق منشور »[7] . وقد فسّر العلماء الرق بأنه ما يكتب فيه شبه الكاغد ، أو جلد رقيق

---

١ المفردات (ص ٤٠٩) ، تاج العروس (٤/٢١٥) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٤) ، الجواليقي (ص ٢٧٦) ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) ، ابن خلدون ، مقدمة (٤٧٠ وما بعدها) . Ency., II, p. 1036.

٢ (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم) ، الانعام ، الاية ٧ ، (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) ، الانعام ، الاية ٩ ، صبح الاعشى (٢/٤٨٥) .

٣ غرائب اللغة (ص ٢٦٤) ، فرائد اللغة (ص ٢٧٧) .

٤ الجواليقي (٢٧٦) ، الخفاجي ، شفاء الغليل (ص ١٥٩) .

٥ Hastings, p. 676, 978.

٦ تاج العروس (٥/٣٦٠) .

٧ سورة الطور ، الاية ٢ وما بعدها .

يكتب فيه ، أو الصحيفة البيضاء[1] . وقد اشتهرت جملة مواضع في الحجاز وفي اليمن بترقيق الجلد ودباغته ، ليصلح للعمل ، وفي جملته الرق المستعمل في الكتابة. ويعرف الرق بـ (رقو) Raqo و (رق) Raq في الإرمية . وتؤدي اللفظة في هذه اللغة المعنى نفسه المفهوم منها في عربيتنا ، ولهذا ذهب بعض العلماء الى ان اللفظة من أصل إرمي[2] . ومن أجود أنواع الرق ، الرق المعمول من جلد الغزال. وذكر ان الصحابة أجمعوا على كتابة القرآن في الرق ، لتيسره عندهم ، ولطول بقاء الكتابة فيه[3] .

وقد كان الكتّاب يستعملون الرق في المراسلات وفي السجلات وفي الكتب الدينية . فقد استعمل الفرس جلود البقر المدبوغة لكتابة كتبهم الدينية عليها ، واستعمل العبرانيون جلود الغنم والمعز والغزال لكتابة التوراة والتلمود عليها . وقد اشترطوا في الجلود أن تكون من جلود الحيوانات الطاهرة . استعملوها صحائف منفصلة ، واستعملوها صفائح على هيأة الكتب ، كما استعملوها مدورة ملفوفة قطعة واحدة يتصل كل رأس منها بقضيب ، فتكون لفتين متصلتين ، وذلك بربط قطع الجلود بعضها ببعض وتثبيتها لتكون صحيفة واحدة طويلة مستطيلة ، يقال لها (مجلوت) (م ج ل و ت) ، أي المجلة ، من أصل (جلل) ، بمعنى لف وأدار[4] .

وفي الشعر الجاهلي إشارات الى استعمالهم (الرق) في كتاباتهم . وقد أشار بعضهم الى سطور الرق ، وكيف رقشها كاتبها ونمق الكتابة مسطرها . وكيف خط مملي الكتاب ما أريد إملاؤه في الرق . وقد عبر عن الخطاط الذي خط السطور على الرق بالمرقش وبالكاتب[5] . ومن أنواع الرق الجيد، الرق المصنوع بـ (خولان) والذي عرف بـ (الأديم الخولاني)[6] .

---

١ المفردات (ص ٢٠٠) ، شرح القاموس (٣٥٨/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٤/٢) بلوغ الارب (٣٧٨/٣) .

٢ برصوم (ص ٧٣) ، غرائب اللغة (ص ١٨٣) .

٣ صبح الاعشى (٤٧٥/٢) .

٤ Smith, A Dictio., III, p. 1802.

٥ ديوان الهذليين (٧٠/٣) ، الآمدي ، المؤتلف والمختلف (٢٧) ، ديوان طرفة (٦٨) ، ديوان حاتم الطائي (٢٣) .

٦ تقييد العلم (٧٢) .

ونجد الشاعر المخضرم (معقل بن خويلد) الهذلي ، يشير الى (مملي كتاب) يملي على كاتب ، يخط على رق ، وذلك بقوله :

فإني كما قال ممـــلي الكتـــا ب في الرق إذ خطه الكـــاتب
يرى الشاهد الحـــاضر المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائب[1]

ومعقل من سادات قومه ، ومن شعرائهم المعروفين ، وكان أبوه رفيق (عبد المطلب) الى (أبرهة)[2] .

وأما (القتب) ، فالإكاف الصغير الذي على قدر سنام البعير[3] . ويصنع من الخشب . وقد كتب الناس على (القتب) . وقد استخدم (الرحل) مادة للكتابة عليها ، عند الحاجة والضرورة[4] .

وقد استعملت الألواح مادة للكتابة ، ومن هذه الألواح ما صنع من الحجر ، بنشر الحجر وصقله ، ومنها ما صنع من الخشب ، ومنه من لوح الكتـــف أي العظم الأملس منه . واللوح كل صفيحـــة عريضة خشباً أو عظماً[5] . وأشير في القرآن الكريم الى اللوح ، فورد : « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ »[6] . وورد « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة »[7] وغير ذلك . فيظهر من ذلك أن الألواح كانت تكتب فيحفظ بها ما يراد حفظه من آراء وأفكار .

وقد كان بعض الصحابة والتابعين يستعملون الألواح لتقييد ما يريدون حفظه وتقييده من أقوال الرسول ومن سيرته أو غير ذلك . فذكر أن (ابن عباس) كان يأتي (أبا رافع) ويسأله : ما صنع رسول الله يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها . وأن مجـــاهداً كان يسأل (ابن عباس) عن تفسير القرآن

---

١ ديوان الهذليين (٣/٧٠) .
٢ الاصابة (٣/٤٢٥) ، (رقم ٨١٣٧) .
٣ تاج العروس (١/٤٣٠ وما بعدها) ، (قتب) ، السجستاني ، المصاحف (٢٠) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (٣/٢ ص ١٥١) ، تقييد العلم (١٠٢) .
٥ المفردات (ص ٤٧٢) ، تاج العروس (٢/٢١٨) ، صبح الاعشى (٢/٤٧٢ وما بعدها) ، شمس العلوم (١/٣٤) .
٦ البروج ، الاية ٢١ وما بعدها .
٨ البروج ، الاية ٢١ وما بعدها .

ومعه ألواحه ، يكتب فيها ما يمليه عليه[1] . وعرف اللوح بـ (السبورجه) ، وهي لفظة فارسية الأصل[2] .

وقد ورد في حديث زيـد بن ثابت عن جمع القرآن أنه جمعه من الرقاع واللِّخاف والعُسُب . وقصد باللخاف حجـارةً بيضاً رقاقاً ، واحدها لخفة[3] . كان يكتب عليها أهل مكة .

والحجارة هي المورد الرئيسي الذي استخرجنا منه علمنا بتأريخ العرب الجنوبيين وبتاريخ أعالي الحجاز وأماكن أخرى من جزيرة العرب. ويضاف الى ذلك الصخور الصغيرة والحصى الكبيرة، فقد نقش عليها الجاهليون أوامرهم وأحكامهم وخواطرهم ورسائلهم وذكرى نزولهم في مكان ، فالفضل يعود الى هذه الكتابات في حصولنا على أخبار الجاهليين المذكورين .

وقد كتبوا على الخزف ، وبقي الناس يكتبون على الحجـارة والخزف الى الاسلام . فقد كان (أبو الطيب) اللغوي ، وهو (عبـد الواحد بن علي) ، يعلق عن (أبـي العباس) ثعلب على خزف ، ثم يجلس فيحفظ ما دوّنه عليه[4] .

ويقال لما يكتب في الحجارة وينقش عليها (الوحي) . والوحي الكتابة والخط . وبهذا المعنى ورد في شعر شعراء جاهليين واسلاميين ، مثـل شعر (لبيد) ، حيث قال :

فدافع الريّان عُرّي رسمها خلقاً كما ضمن الوحي سلامها[5]

وشعر (زهير) حيث يقول :

لمن الديار غشيتها بالقدفد كالوحي في حجر المسيل المخلد[6]

---

١ تفسير الطبري (١/٣١) ، البغدادي ، الخطيب ، تقييد العلم ، (تحقيق يوسف العش) ، (دمشق ١٩٤٩) (ص ٩١ وما بعدها) .
٢ تقييد العلم (٧٢) .
٣ تاج العروس (٦/٢٤٤) ، الفهرست (٣١) .
٤ رسالة الغفران (٦٣) .
٥ اللسان (١٥/٣٧٩) (صادر) ، البرقوقي (ص ١٤) .
٦ ديوان زهير (١٢٦ ، ١٥٠) .

وأما الورق ، فأريد به جلود رقاق يكتب فيها ، ومنها ورق المصحف[1] . ويظهر انهم أطلقوا اللفظة على القطع الرقيقة من الجلود أو من المواد الأخرى التي كانوا يكتبون عليها ، تشبيهاً بورق الشجر . ولذلك فإنها لا تعني نوعاً معيناً من الورق . كما يجوز ان يكون المراد من الورق المستورد من بلاد الشأم أو من مصر ، أو المصنوع من صقل الكتان ونسيج القطن وغير ذلك .

ولقلة وجود القصب الصالح لصنع الورق في جزيرة العرب ، لا نستطيع أن نذهب الى وجود صناعة ورق من هذه المادة في هذه البلاد ، بل كانوا يستوردونه من مصر مصدر الورق المصنوع من القصب ، والمعروف بـ (البابيروس) .

والصحيفة المبسوط من الشيء ، والتي يكتب فيها ، والكتاب ، وجمعها صحائف وصحف ، ومنها « إن هذا لفي الصُّحُف الأولى : صحف ابراهيم وموسى »[2] ، و « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة »[3] . وقد أشير الى الصحيفة في كتب السيرة حين اتفقت قريش على مقاطعة بني هاشم ، وكتبت بذلك صحيفة ، كتبها (بغيض بن عامر بن هاشم) ، أو (منصور بن عبد شرحبيل) المعروف بأبي الروم على بعض الروايات[4] . والمصحف ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين . والتصحيف قراءة المصحف وروايته على غير ما هو لاشتباه حروفه[5] .

وقد قيل للقرآن : المصحف ، وإنما سُمي المصحف مصحفاً لأنه أصحف أي جُعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين[6] . ونقرأ في الأخبار أن بعضاً من الصحابة والتابعين كانوا يملكون صحيفة أو صحفاً دوّنوا فيها حديث الرسول أو أمراً من مور الشعر وأخبار العرب وأمثال ذلك . فكان (عبدالله بن عمرو بن العاص) قد كتب حديث الرسول في صحيفة ؛ وقد أذن الرسول له أن يكتب حديثه فيها[7] .

---

١ تاج العروس (٨٦/٧) ، المغرب (٢٤٦/٢) ، صبح الاعشى (٤٧٦/٢) .
٢ سورة الأعلى ، الاية ١٨ وما بعدها .
٣ سورة البينة ، الاية ٢ وما بعدها .
٤ نسب قريش (ص ٢٥٤ وما بعدها) ، ابن هشام (٣٧٥/١ وما بعدها) .
٥ المفردات (ص ٢٧٦) ، المغرب (ص ٢٩٨) ، تاج العروس (١٦١/٦) ، صبح الاعشى (٤٧٤/٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣٧١/٣) .
٦ اللسان (١٨٦/٩) وما بعدها .
٧ تذكرة الحفاظ (٥/١) .

وقد أشير الى الصحيفة في شعر (المتلمس)[1] ، ويظهر من الشعر الذي ذكرت اللفظة فيه ، أنه قصد بها رسالة ، أي كتاباً أمر ملك الحيرة (عمرو بن هند) بتدوينه ، وأعطاه اليه ، ليحمله الى عامله على البحرين على نحو ما ورد في خبره. كما أشير الى الصحيفة في شعر شعراء آخرين[2] .

ويقال للصحيفة طرس ، ويجمع على طروس[3] . ويقال إن الطرس الصحيفة المكتوبة[4] ، وقيل: الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد فيه الكتابة . والتطريس: فعلك به . وطرّس الباب سوّده ، والطِلس : كتاب لم ينعم محوه ، فيصير طرساً . والتطريس اعادة الكتابة على المكتوب الممحو[5] .

ورأى بعض العلماء أن الصحف ما كان من جلود[6] . وذهب بعض آخر ، الى أنها من جلد أو قرطاس . وأن القرطاس والصحيفة ، هما في معنى واحد ، وهو الكاغد[7] .

وذكرت (الصحيفة) في شعر للقيط بن يعمر الإيادي ، هو قوله :

سلام في الصحيفة من لقيط الى من بالجزيرة من إياد

وذلك في قصيدته التي كتبها اليهم ، يخبرهم فيها بمسير (كسرى) عليهم ، ويحذرهم من قدومه[8] .

---

١ أودى الذي علق الصحيفة منهما ونجا حذار حياته المتلمس
ألق الصحيفة ، لا أبا لك انه يخشى عليك من الحبا النقرس
...
ورهنتني هندا ، وعرضك في صحف تلوح كأنها خلل
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (ص ١٣٢) ، الاغاني (٢١/١٣٥) .

٢ الشعر والشعراء (١/١٥٢) ، ديوان قيس بن الخطيم (١٩) ، ديوان الهذليين (١/٦٤) ، المرزباني ، معجم (٣٠٤) ، الاصمعيات (٦٣) .

٣ صبح الاعشى (٢/٤٧٦) .

٤ فرائد اللغة (ص ٢٧٧) ، ورد في شعر للبيد :
فاجازني منه بطرس ناطق وبكل أطلس جوبه في المنكب
شرح ديوان لبيد (ص ١٥٥) .

٥ بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، الاقتضاب (٩٣) ، الفائق (٢/٨١) ، اللسان (٦/١٢١) ، تاج العروس (٤/١٧٧) (طرس) .

٦ بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، مبادىء اللغة (ص ٩٠) ، (مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ) .

٧ صبح الاعشى (٢/٤٧٤) .

٨ الشعر والشعراء (١/١٢٩) ، الاغاني (٢٠/٢٣) .

كما ذكرت في شعر لعدي بن زيد العبادي ، وصف فيـــه قصة (الزبّاء) و (جذيمة) و (قصير) ، حيث يقول :

ودست في صحيفتها اليه ليملك بُضعها ولأن تدينا[1]

وكان من عادة أهل الجاهلية تدوين أحلافهم في صحف ، توكيداً للعهد ، وتثبيتاً له . وقد أشير الى ذلك في الشعر وفي الأخبار . ورد في شعر قيس بن الخطيم :

لما بدت غُدوة جباههم حنت الينا الأرحام والصحف[2]

وأشير اليها في شعر ينسب لدرهم بن زيد الأوسي ، يخاطب الخزرج بما كان بينهم من عهود ومواثيق ، إذ يقول :

وإن مـا بيننا وبينـــكم حين يقال الأرحام والصحف[3]

ولما قاطعت قريش (بني هاشم وبني المطلب) ، كتبت بذلك كتاباً عرف بـ (صحيفة قريش) ، وختموا عليها ثلاثة خواتيم،وعلّقوها في سقف الكعبة ، وقيل : بل كانت عند أم الجلاّس مخربـة الحنظلية ، خالة أبـي جهل ، وقيـل عند هشام بن عبد العزى[4] .

وترد الصحف بمعنى الوثائق ، وكل تسجيل يراد الاحتفاظ به للرجوع اليـــه عند الحاجـــة ، فالديون تسجل في صحف وكتب ، والأمور الهامة تسجل فيها كذلك ، هذا (علباء بن أرقم بن عوف) الشاعر اليشكري ، يذكر دَيناً دوّن في صحيفة ، فيقول :

أخـــذت لدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل من جار أو ظلم[5]

---

١ الشعر والشعراء (١/١٥٢) ، الاغاني (٢/١٠١) .
٢ ديوان قيس (١٩) .
٣ مصادر الشعر الجاهلي (٦٦) .
٤ امتاع الاسماع (١/٢٥) .
٥ الاصمعيات (٦٣) ، الخزانة (٢/٣٠٤) ، (٤/٣٦٥ ، ٣٨٤) ، المرزباني ، معجم (١٦٩) ، (فراج) .

وقد ورد ذكر صحف الدين هذه في كتاب الرسول الى ثقيف، إذ جاء فيه : «وما كان لثقيف من دين في صحفهم اليوم الذي أسلموا عليه في الناس فإنه لهم »[1].

وذكر أن الناس كانوا يكتبون بالمهارق قبل القراطيس في العراق . وقد ذكر (المهرق) في شعر حسّان :

كم للمنازل من شهر وأحوال كما تقادم عهد المهرق البالي[2]

وكانوا يغسلون الصحف المكتوبة للاستفادة منها ، بكتابة شيء جديد يراد كتابته عليها ، وذلك لغلاء مادة الكتابة وصعوبة الحصول عليها ، فيطمسون معالم الكتابة السابقة بغسلها بالماء مثلاً ، فإذا جفت كتبوا عليها. وقد تسبب هذا الغسل الى وقوع خسارة كبيرة بالنسبة لتدوين العلم ، إذ غسل هذا الماء مادة علمية ثمينة كانت ستفيدنا كثيراً بالطبع لو بقيت مدونة على الصحف . فخسرنا نحن خسارة ثمينة ولا شك لا تعوض .

واستعمل الجاهليون السبورة في الكتابة . ويريدون بها جريدة من الألواح من ساج أو غيره ، يكتب عليها . فإذا استغنوا عنها محوها ، وهي معربة . وقد رواها جماعة من أهل الحديث (ستورة) . وبهذا المعنى وردت السفورة ، وهي معربة كذلك[3] .

والمهارق من الألفاظ المعربة ، يرى علماء اللغة انها من الفارسية ، وان أصلها (مهركُرده) (مهركرد) ، أي صُقلت بالخرز . وقد عرفها بعض علماء اللغة بأنها ثياب بيض أو حرير أبيض ، تسقى بالصمغ وتصقل ، ثم يكتب عليها . وقيل : هي الصحائف ، الواحد مهرق . وذكر الجاحظ ان الكتب لا يقال لها مهارق ، حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، أو ميثاق وأمان[4] .

---

١ الدكتور محمد حميدالله ، مجموعة الوثائق السياسية (١٦٠) .

٢ تاج العروس (٩٥/٧) ، (هرق) .

٣ شرح القاموس (٢٥٣/٣ ، ٢٧٠) .

٤ قال الحارث بن حلزة اليشكري :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس

المعرب (ص ٣٠٣ وما بعدها ، الحيوان (٧٠/١) (تحقيق عبدالسلام هارون) ، صبح الاعشى (٤٧٦/٢) ، المفضليات (ص ٥٣) (طبعة السندوبي) ، غرائب اللغة (ص ٢٤٦) ، شرح ديوان الحماسة (١٣٠/٤) ، شرح القصائد العشر (٢٦٨) (النطبعة المنيرية) ، المخصص (٣٤٠/٤) ، (آياتها كمهارق الحبش) ، تاج العروس (٩٥/٧ وما بعدها) ، (هرق) ، الحيوان (٧٠/١) ، اللسان (٣٦٨/١٠) ، (هرق) .

ويظهر من الشعر المنسوب للحارث بن حلزة اليشكري ، ان أصل المهارق من الفرس ولهذا عبر عنها بقوله : (كمهارق الفرس) . ولعله قصد كتباً وصحفاً دينية من ديانتهم المجوسية . وقد وردت اللفظة في شعر ينسب للأعشى[1] وفي شعر آخر ينسب للحارث بن حلزة اليشكري المذكور[2] .

قال (الجاحظ) : « والمهارق ، ليس يراد بهـا الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود ، وميثاق ، وأمان ». وقال قبل ذلك : « لولا الخطوطُ لبطلت العهود والشروط والسجلات والصُّكاك ، وكل إقطاع ، وكل انفاق ، وكل أمـان . وكل عهد وعقد ، وكل حوار وحلف ، ولتعظيم ذلك ، والثقة به والاستناد اليه ، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة ، تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان ، ولذلك قال الحارث بن حلزة ، في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدّم فيـه ، العهود والكفـلاء
حـذر الجور والتعدي ، وهـل ينقض ما في المهـارق الأهواء »[3]

وقد أشار (الحارث بن حلزة) اليشكري الى (مهارق الفرس) ، وذلك في قوله :

لمن الديار عفون بالحبس آياتهـا كمهارق الفرس[4]

ونوع آخر من (المهارق) عمل من الكرابيس ، أي من الثياب المصنوعة من الكرباس وهو القطن الأبيض ، وذلك بسقي الكرباس ، بصمغ أو بإطلائه بشيء آخر يسد المسامات ، ثم يصقله بالخرز[5] . فهو إذن من النوع الجيد الغالي بالنسبة

---

١ ربـي كربـم لا يـكدر نعمـة واذا يناشد بالمهـارق أنشـدا
ديوان الاعشى (٢٢٩) (القاهرة ١٩٥٠ م) ، أدب الكتـاب (١٠٦) ، (واذا تنوشد) ، اللسان (٣٦٨/١٠) ، (هرق) .

٢ حـذر الجـور والتعـدي وهل ينقض ما في المهارق الاهواء ؟
شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٦٧) ، المفضليات (٢٥) ، شرح المعلقات، للتبريزي (٢٦٨ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٦٩/١ وما بعدها) .

٤ المفضليات (١٣٢) .

٥ شرح المعلقات (٢٠٠ وما بعدها ، ٢٦٨ وما بعدها) .

الى مواد الكتابة ، ولذلك كانوا يستعملونه في الأمور الكتابية الجليلة .

وقد أشير في شعر (الأسود بن يعفر) الى سطور يهوديين في مهرقيهما مجيدين في الكتابة ، هما من أهل (تيماء) أو من (أهل مدين)[1] . ولم يشر الى نوع القلم الذي كتبا به ، وأغلب الظن أنه قلم عبراني .

وقد استعمل الجاهليون (الصكوك) في تعاملهم . وذكر علماء اللغة أن (الصك) الذي يكتب للعُهدة ، وكانت الأرزاق تسمى صكاكاً لأنها كانت تخرج مكتوبة . ومنه الحديث في النهي عن شراء الصكاك ، وذلك أن الأمراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم وأعطياتهم كتباً ، فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها معجلاً ، ويعطون المشتري الصك ليمضي ويقبضه ، فنهوا عن ذلك لأنه بيع ما لم يقبض . وذكروا أن اللفظة من الألفاظ المعربة ، أصلها فارسي[2] . واستعملت الصكوك في الدين . فورد (صك دين)[3] .

وقد أمدتنا جزيرة العرب بحجارة كثيرة مكتوبة،ولكنها لم تمدنا باللبن المكتوب أو الطين المكتوب المشوي بالنار إلا في النادر . مع أن الكتابة على الطين أسهل من الكتابة على الحجر . ولعل وجود الحجر بكثرة في العربية الغربية والجنوبية ومقاومة الحجر للبلى والتلف هما اللذان دفعا أهل هذه البلاد على تفضيل الحجر في الكتابة على الطين . ولا يستبعد عثور الآثاريين والمنقبين في المستقبل على كتابات جاهلية مسجلة على الطين ولا سيما في المناطق الماحلة أو التي يقل فيها وجود الحجر، هي الآن مطمورة في باطن الأرض .

وأعطوا للصحف أسماء اذا كانت قد كتبت في أغراض خاصة . فإذا كانت الصحيفة اعطاء أرض لشخص ، كإقطاعه أرضاً ، يعطى الشخص صحيفة مدونة بذلك ، تثبت له تسجيل الأرض المقطعة باسمه يقال لها (الوصر) و (الاصر) . وقد ذكر علماء اللغة ان الاصر : العهد والعقد . وقيل العهد الثقيل[4] . وان

---

١ سطور يهوديين في مهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين
مصادر الشعر الجاهلي (٨٢) .

٢ اللسان (٤٥٧/١٠) ، (صكك) ، مفاتيح العلوم (ص ٣٨) .

٣ مجالس ثعلب (٢٧) .

٤ تاج العروس (١٤/٣) ، (أصر) .

(الوصر) الصك الذي تكتب فيه السجلات . والأصل اصر ، سمي به لأن الأصر العهد ويسمى كتاب الشروط كتاب العهد والوثائق،ويطلق غالباً على كتاب الشراء. قال عدي بن زيد :

فأيكم لم ينله عرف نائله دثراً سواما وفي الأرياف أوصارا[1]

أما اذا كانت الصحيفة صحيفة جوائز ، كان يعطي الملك جوائـــز لأصحابه وأتباعه ، قيل للصحف التي يدون قدر الجائزة أو نوعها عليها القطوط والمفرد : القط . وقد ذكرها الأعشى في شعره :

ولا الملك النعـــمان يوم لقيته بإمته يعطـــي القطوط ويأفق[2]

وورد ذكرها في شعر المتلمس ، إذ قال :

وألقيتها بالثنى من جنب كافر كذلك ألقى كل قط مضلل[3]

وقد عرفت (القط) انها الصك بالجائزة ، وهي الصحيفة للانسان بصلة يوصل بها . وقيل القط الصحيفة المكتوبة وكتاب المحاسبة . قيل : سميت قطوط لأنها كانت تخرج مكتوبة في رقاع وصكاك مقطوعة[4] .

وقد كانت الحاجة تدفع الكتّاب الى تدوين ما يريدون تقييـده وكتابته عـــلى ملابسهم وعلى راحة أيديهم ، بل على نعالهم أحياناً . روي عن (سعيد بن جبير) انه قال : « كان ابن عباس يملي علي في الصحيفة حتى أملأها وأكتب في نعلي حتى أملأها »[5] . وقد كانوا يكتبون على المودج أو على أي شيء يجدونه أمامهم، مثل الرحل ، لندرة الورق عندهم ولحاجتهم الى تسجيل ما يسمعونه ، أو ابلاغ قومهم بسر أو برسالة ، فيغافل المرسل من يعرف أنه قاصد الجهـــة التي يريدها

---

١ تاج العروس (٦٠٢/٣) ، (الوصر) .
٢ تاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) .
٣ البطليوسي ، الإقتضاب (٩٣) ، مصادر الشعر (٧٠ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٢٠٩/٥) ، (قطط) .
٥ تقييد العلم (١٠٢) .

فيحفي بسكينه على الراحلة ما يريد تبليغه من سر[1] . وورد عن (سعيد بن جبير) قوله « كنت أكتب عند ابن عباس في صحيفتي حتى أملأها ، ثم أكتب في ظهر نعلي ، ثم أكتب في كفي » . وروى انهم كانوا يكتبون على أكفهم بالقصب عند البراء ، وان (الزهري) ربما كتب الحديث في ظهر نعله مخافة ان يفوته[2] .

ولفظة : (كتب) التي نستعملها اليوم ، ومن أصلها اشتقت لفظة (كتابة) و (كتاب) وكاتب وأمثالها ، هي من الألفاظ العربية الشمالية المعروفة المتداولة عند الجاهليين . وقد وردت لفظة (كتاب) بمعان متعددة ، منها هذا المعنى المعروف ، ومنها الصحيفة مع المكتوب فيها . وقد قصد بها التوراة في مواضع من القرآن الكريم . وأريد بـ (أهل الكتاب) اليهود والنصارى ، أهل التوراة والانجيل[3] .

وقد استعملت اللحيانية لفظة (كتب) أيضاً ، فوردت في عدد من الكتابات . وعبرت عن (الكتابة) و (الخط) بلفظة (هكتب)[4] . والهاء أداة للتعريف عندهم ، ويجوز انهم كانوا ينطقون بها على هذه الصورة : (هكتاب) ، أو (هاكتاب) ، أي : (الكتاب) و (الكتابة) .

ومتى فكر الإنسان في الكتابة تذكر (القراءة) . فالكتابة التدوين ، والقراءة قراءة الشيء المدوّن . ولهذا يقال : القراءة والكتابة ، كما يقال : قارىء كاتب، أي يحسن ويجيد الحالتين . فقد كان البعض يقرأون ولا يكتبون . روي أن (عائشة) كانت تقرأ المصحف ، ولا تكتب ، وأن (أم سلمة) كانت مثلها تقرأ ولا تكتب[5] .

ونجد لفظة (كتاب) في شعر عدد من الشعراء الجاهليين . وقد استعمل (عدي ابن زيد العبادي) (كتاب الله) في شعره[6] ، ولما كان هذا الشاعر نصرانياً ،

---

١ المفضليات (٤٥٩ وما بعدها) ، الطبقات (٢/٣ ص ١٥١) ، تقييد العلم (١٠٢)، المصاحف (٢٠) .

٢ تقييد العلم ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ .

٣ المفردات (ص ٤٣٤ وما بعدها) .

٤ راجع النصين ٤٨ و ٤٩ من كتاب : Lihyanisch, S. 99.

٥ فتوح البلدان (٤٥٨) ، (أمر الخط) .

٦ وناشدتنا بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله ترتفع
شعراء النصرانية (ص ٤٧٢) .

يكون قصد بـ (كتاب الله) الإنجيل ولعله قصد التوراة والإنجيل معاً . وجاءت جملة : (آيات الكتاب) في شعر (تميم بن أبـي بن مقبل العامري)[1] . أمـا زهير ، فقد استعمل لفظة (كتاب) أيضاً في معنى الشيء الـذي يكتب ويدوّن عليه ليحفظ لوقت الحساب[2] .

وتؤدي لفظة (كتاب) معنى رسالة . فقد كانوا يطلقون على الرسالة لفظـة (كتاب) ، والجمع (كتب) . ومن ذلك ما ورد في خبر (كتب رسول الله الى الملوك)[3] و (خبر كتاب مسيلمة الى رسول الله والجواب عنه)[4] .

ولفظة (دفتر) ، في معنى جماعـة الصحف المضمومة ، وهي الكراريس[5] . وفي قول عمرة : « ولو انطبق عليكم الدفتر » ، يعني ولو أن تكتبوا آخر الناس[6]. ولا أظن أن اللفظة قد دخلت العربية في أيام عمر ، بل لا بـد وأن تكون من الألفاظ المستعملة في الجاهلية . وذكر أن الدفتر جريدة الحساب والكراسة[7] .

والكراسة الجزء من الصحيفة والكتاب . يقال : « هذا الكتاب عدة كراريس » ، و (كرّاس أسفار)[8] . وترد اللفظة في لغة بني إرم ، بمعنى (كتيب) وجزء من كتاب يحتوي في الغالب ثماني ورقات[9] .

وكانوا يسجلون عقودهم وأخبارهم في كتب ، أي صحف ، من ذلك ما ورد في قصة النعمان مع (الحارث بن ظالم) ، فقد ورد انه كتب اليه كتاباً وكان يومئذ بمكة يؤمنه إن عاد اليه ، فلما جاء الى (النعمان) ، وقال له : أنعم صباحاً أبيت اللعن ، انتهره الملك بقوله : لا أنعم الله صباحك . فقال الحارث : هذا كتابك ! قال النعمان : كتابـي والله ما أنكره أنا كتبته[10] . وكان (عبد الرحمن ابن عوف) ، قد كاتب (أمية بن خلف) في أن يحفظه في صاغيته بمكـة ،

---

١ جمهرة أشعار العرب (٣١٨) .
٢ يؤخر فيوضع في كتاب فيدخـر ليوم الحساب أو يعجـل فينقم
ديوان زهير (١٨) .
٣ تاريخ الطبري (٢/٦٤٤ وما بعدها) .
٤ الطبري (٣/١٤٦ وما بعدها) .
٥ اللسان (٤/٢٨١) ، (دفتر) .
٦ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .
٧ تاج العروس (٣/٢٠٩) ، (دفتر) .
٨ تاج العروس (٤/٢٣٢) ، (كرس) .
٩ غرائب اللغة (٢٠٣) .
١٠ الاغاني (١١/١٢٠) .

وأن يحفظه في صاغيته بالمدينة ، وكتبا هذه المكاتبة في كتاب[1] .

وترد لفظة (كتاب) بمعنى اعلان واحقاق حق ، كالذي ورد في خبر (رؤيا) (عاتكة بنت عبد المطلب) ، عن مصير معركة (بدر) ، وقول قريش للعباس : « يا بني عبد المطلب ! أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! قد زعمت عاتكة في رؤياها انه قال : انفروا من ثلاث ، فستربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً انكم أكذب أهل بيت في العرب »[2] .

ويعبر عن الكتابة بالخط ، وتعني لفظة خطّ ، كتب . في القرآن الكريم : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك »[3] . وقد عبر عنها بالقلم كذلك ، فقيل : القلم العربي ، والقلم الحميري . ويراد بالقلم الحميري المسند ، ويقولون له الخط المسند كذلك . وقد بقي ناس من أهل اليمن يكتبون به في الإسلام[4] . وقد وردت لفظة (هخطط) ، أي الخط والرسم ، في النصوص الصفوية[5] . وهذا يدل على أن هذه اللفظة هي من الألفاظ التي كان يستعملها العرب الشماليون . والهاء في (هخطط) أداة التعريف (ال) في عربيتنا .

وتعبر كلمة (سطر) عن معنى خط وكتب . و (السطر) الخط والكتابة . ووردت لفظة (يسطرون) في القرآن الكريم في سورة (ن) بمعنى يكتبون[6] . ووردت لفظة (سطر) في نص (أبرهة) بهذا المعنى أيضاً . كما نجدها في نصوص عربية جنوبية أخرى ، مما يدل على ورودها في اللهجات العربية الجنوبية كذلك . وتقابلها لفظة (سرتو) Serto و (سورتو) Sourto من الفعل (سرت) Srat في الإرمية . ومن هنا ذهب بعض الباحثين في الإرمية الى أن (سطر) العربية هي

---

١ الزمخشري ، الفائق (٢/٢٦) .

٢ ابن هشام (٢/٦٢) ، (حاشية على الروض) .

٣ سورة العنكبوت ، الاية ٤٨ ، المفردات (ص ١٥٠) .

٤ تاج العروس (٢/٣٨٢) ، (سند) .

٥ CIH, Pars Quinta, I, p. 27, NU : 141, Dunand, 1249a, p. 385, NU : 3943, J. Ryckmans', Inscriptions Safaitiques, Louvain, 1951, p. 3, Littmann, Safa., p. 80, 82.

٦ سورة القلم ، الرقم ٦٨ ، الاية ١ وما بعدها .

(كلمة سريانية الأصل)[1] . وهو رأي يمثل وجهة نظر طائفة من الباحثين ترجع أصول أكثر المصطلحات الحضارية والثقافية الواردة في العربية الى أصل سرياني . وفيه تسرع وبعد عن العلم .

والسطر ، الصف من الشيء . والتسطير ، كتابة بسطور ، أي الخط والكتابة[2] . وقد كان معظم الجاهليين يجعلون كتابتهم سطوراً سطراً فوق سطر ، ليكون من الممكن تتبع الكتابة إلا بعض الكتابات الصفوية والثمودية واللحيانيـــة التي اتخذت أشكالاً مختلفة ، تارة على هيأة هلال ، وتارة أخرى على شكل دائرة ، وحيناً على شكل غير منسق ولا منظم ، إذ كان أصحابها رعاة في الغـــالب متنقلين ، فلم تكن كتابتهم متقنة ، كما أنهم لم يكونوا يملكون ورقاً وقرطاساً ، فكتبوا على أية حجارة وجدوها ، فاختلف شكل الخط لذلك .

والتسطير التخطيط . أي تدوين السطور وتخطيطها على شكـل خطوط . ومن المجاز خططت عليه ذنوبه ، أي سطرت[3] . ووردت لفظة (اسطرن) (الأسطر) بمعنى الوثيقة والسطور في كتابات المسند[4] .

ونجد في شعر للشاعر (الشماخ) ، وصفاً للخط ، كتبه حبر بتيماء من أسطر ، عرض فيها وأثبج . إذ يقول :

أتعرف رسماً دارساً قد تغيرا بذروة أقوى بعد ليلى وأقفرا
كما خط عبرانيـــة بيمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا

« والتعريض أن يثبج الكاتب ولا يبين الحروف ولا يقوم الخط »[5] .

وترد لفظة : (النقش) بمعنى الكتابـة والتدوين والتخطيط . ورد : رجّع النقش ، والوشم ، والكتابة : ردد خطوطها ، وترجيعها أن يعاد عليهـا السواد مرة بعد أخرى . ومنه رجع الواشمة . قال لبيد :

---

١ برصوم (ص ٨٣) ، الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، غرائب اللغة العربية (بيروت ١٩٠٧) (ص ١٨٧) ، Smith, A Dictio. III, p. 1789.
٢ تاج العروس (٣/٢٩٦ وما بعدها) ، (سطر) .
٣ تاج العروس (٥/١٣١) ، (خط) .
٤ Le Muséon, 1953, 1-2, p. 114.
٥ تاج العروس (٥/٥٠) ، (عرض) .

أو رجع واشمة أسف تؤورها كففا ، تعرض فوقهن وشامها

وقول زهير :

مراجيع وشم في نواشر معصم[1] .

وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (زَبَر) . و (الزبر) الكتابة . ويذكر علماء اللغة انها تعبر عن معنى النقش في الحجارة كذلك . وأما (المِزبر) ، فهو (القلم). كما ذكرت ذلك قبل قليل . وقد ورد في حديث وفاة الرسول انه دعا بدواة ومزبر ، أي قلم[2] . وذكر ان الزبور الكتاب[3] . وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم . فلفظة (زبر) بالفتح اذن فعل ماضٍ بمعنى كتب ، وفي هذا المعنى أيضاً لفظة (ذَمَرَ) . فنقول (ذمرتُ الكتابَ) ، أي زبرته وكتبته[4] . وقصد بـ (الزبور) في القرآن الكريم ، المزامير ، أي (مزامير داوود) . وتقابل لفظة (زمره) (زمراه) في العبرانية[5] .

ويظهر من البيت المنسوب الى لبيد :

فنعاف صارة فالقنان كأنها زبر يرجعها وليد يمان[6]

ومن البيت المنسوب الى (أبي ذؤيب) :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميري[7]

ان أهل اليمن كانوا قد اشتهروا بالكتابة والقراءة بين الجاهليين وان ولدان أهل اليمن كانوا يرجعون أي يقرأون ويكررون ما هو مزبور أمامهم لحفظه . وأن (الكاتب الحميري) ، أي كاتب أهل اليمن كان معروفاً مشهوراً ، يحمل

---

١ اللسان (٨/١١٥) ، (رجع) .
٢ تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) .
٣ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
٤ الاشتقاق (ص ٣٠) .
٥ A Dictionary of Islam, p. 698.
٦ ديوان لبيد (١٣٨) .
٧ ديوان الهذليين (١/٦٤) .

الدواة ويكتب بها على مادة الكتابة . « قال أعرابي حميري : أنا أعرف تزبرتي أي كتابتي[1] .

وأشير الى (خط زبور) في شعر امرىء القيس :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبورٍ في مصاحف رهبان[2]

وذكر علماء اللغة أن (الزبور) الكتاب ، وفي هذا المعنى ورد قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

وذكروا أن الزبور قد غلب على كتاب (داوود) ، أي (المزامير) ، وكل كتاب زبور . وقيل : هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية[3] .

واستعمل (الهمداني) جملة : (زبر حمير القديمة ومساندها الدهرية) ، وقال إن (أبا نصر) الحنبصي ، كان قد قرأها وكان بحاثة عالماً بها . وقد فرّق بين (الزبر) وبين (المساند)[4] ، مما يدل على أنه قصد بالزبر شيئاً آخر يختلف عن المساند ، ربما أراد بالزبر صحفاً أو مجموعة صحف ، أو كتاب ، أما المساند ، فالكتابات المدوّنة على الحجر .

ومن المصطلحات المعبرة عن معنى كتب ونقش وختم لفظة (رقم) . و(كتاب مرقوم) ، بمعنى مكتوب ، وأما المرقم فالقلم ، لأنه يرقم به[5] . وذكر بعض علماء اللغة أن الرقم : الخط الغليظ ، وقيل : تعجيم الكتاب . وقد ورد في القرآن الكريم : (كتاب مرقوم)[6] . وذكر أن : (الرقيم) ،الكتاب . والكتابة والختم[7] .

---

١ الامالي ، للقالي (٢/١٧٢) .
٢ ديوان امرىء القيس (١٢٥) .
٣ تاج العروس (٣/٢٣١) ، (زبر) ، راجع معلقة لبيد .
٤ الاكليل (١/١٣) .
٥ تاج العروس (٨/٣١٥ وما بعدها) ، (رقم) ، التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون (١/٦٥٢) .
٦ سورة المطففين ، الآية ٩ ، المفردات (٢٠١) .
٧ بلوغ الأرب (٣/٣٧١) ، اللسان (١٢/٢٤٨ وما بعدها) .

« وفي الحديث أنه كان يسوي الصفوف حتى يدعها مثل القدح أو الرقيم ، أي مثل السهم أو سطر الكتابة » . وليس بين الرقوم والخطوط فرق[1] .

يقول علماء العربيـــة : « ورقم الكتاب : أعجمه وبيّنه ، أي نقطه وبين حروفه . وكتـــاب مرقوم : قد بُيّنت حروفه بعلاماتها من التنقيط »[2] . وإن الإعجام التنقيط بالسواد ، مثل التاء عليها نقطتـــان[3] . وأن التنقيط بمعنى وضع النقط عـــلى الحروف ، أي إعجامها[4] . ويحملنا قولهم هذا على الذهاب الى أن الاعجام كان معروفاً بين الجاهليين .

وفي هذا المعنى ، أي الرقم والترقيم والرقيم ترد لفظة (الترقين) ، و(الرقن) ، و (المرقون) ، و (الرقين) . و (ترقين الكتاب : المقاربة بين السطور . وقيل نقط الخط واعجامه ليتبين ، وأيضاً تحسين الكتاب وتزيينه)[5] . « والترقين تسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم أنها بيضت كيلا يقع فيه حساب)[6] .

وقد وردت لفظة (المنمق) وجملة (الكتاب المنمق) في شعر ينسب لسلامة ابن جندل ، هو :

لمن طللٌ مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصُّليب فمطرق[7]

وذكر علماء اللغة ان معنى (نمق) كتَب . فيقال : نمق الكتاب ينمقه ، أي كتبه وحسّنه وزيّنه بالكتابة وجوده[8] . وفي هذا المعنى نبق ، فيقال : نبق الكتاب ونمقه اذا سطره[9] . أما لفظة ، دبج ، فتعني النقش والتزيين[10] .

---

١ اللسان (٢/٥٥٦) ، الحيوان (١/٧٠) .
٢ تاج العروس (٨/٣١٥) ، (رقم) .
٣ تاج العروس (٨/٣٩٠) ، (عجم) .
٤ تاج العروس (٥/٢٣٤) ، (نقط) .
٥ تاج العروس (٩/٢١٨) ، (رقن) .
٦ المصدر نفسه .
٧ الاصمعيات (١٤٦) ، (دار المعارف) .
٨ قال النابغه :
كأن مجر الرامسات ذيولهـــا عليـــه قضيم نمقتـــه الصوانع
تاج العروس (٧/٨١) ، (نمق) .
٩ تاج العروس (٧/٧٤) ، (نبق) .
١٠ تاج العروس (٢/٣٧) ، (دبج) .

وذكر علماء العربية ان (الرقش) الخط الحسن ، وان الرقش والترقيش : الكتابة والتنقيط ، وان (رقش) ، بمعنى نقط الخطوط والكتاب . وأن الترقيش: التسطير في الصحف[1] . ويظهر ان للكلمة علاقة بتنميق الخط وتحسينه وتجويده ، وان الخط المرقش ، هو الخط المنمنم المزوّق المنقط المعتنى به . قالوا : ومن هنا سمي الشاعر (المرقش) مرقشاً . وهو المرقش الأكبر عم (المرقش الأصغر) . ويدل هذا التفسير لمعنى (الترقيش) على ان التنقيط كان معروفاً عند الجاهليين . ورووا له قوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم[2]

وقد وردت لفظة (رقش) في شعر ينسب للأخنس بن شهاب التغلبي ، هو :

لابنة حطّان بن عوف منازل كما رقش العنوان في الرق كاتب[3]

كما وردت في شعر لطرفة ، هو :

كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشمه[4]

و (اللمق) الكتابة في لغة (بني عقيـــل) ، وسائر (قيس) يقولون : اللمق : المحو . وقال بعضهم : « لمقه بعدما نمقه ، أي محاه بعدما كتبه » . فهو ضد . يقال لمقه اذا كتبه ولمقه اذا محاه[5] .

و (النبق) الكتابة ، مثل النمق . ونبق الكتاب ونمقه اذا سطره[6] .

و (القرمطة) في الخط دقة الكتابة وتداني الحروف والسطور، وقرمط الكاتب إذا قارب بين كتابته . وكان الامام (علي) ، يقول للكاتب : « فرج ما بين السطور وقرب بين الحروف »[7] .

---

١ اللسان (٦/٣٠٥) ، تاج العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) .
٢ الاصمعيات (٢٣٧) ، (دار المعارف) ، تاج العروس (٤/٣١٤) ، (رقش) .
٣ الخزانة (٣/١٦٥) .
٤ الامالي ، لنقالي (٢/٢٤٦) .
٥ تاج العروس (٧/٦٣) ، (لمق) .
٦ تاج العروس (٧/٧٤) ، (نبق) .
٧ تاج العروس (٥/٢٠٤) ، (قرمط) .

و (النمنمة) ، خطوط متقاربة قصار ، وكتاب منمنم ، منقش ، ومرقش ومزخرف ، أي به زخرفـــة . ولكل وشي نمنمة . فيظهر من ذلك أن بعض صحف وكتب أهل الجاهلية كانت منمنمة ذات رقوش ونقوش ووشي . وقـــد نعت (الجاحظ) الخط المسند بـ (المنمنم)[1] .

ويعبر عن الكتابة بلفظة (النقر) على سبيل المجاز.وقد ورد (نقر في الحجر) بمعنى كتب[2] ، وذلك لأن الحجر المكتوب ، هو حجر منقور ، ظهرت الكتابة عليه بطريقة النقر . وكل ما ورد الينا من الكتابات الجاهلية قد كتب على الحجر أو الخشب بالنقر والحفر .

والمشق السرعة في الكتابة . وقيل مشق الخط يمشقـــه مشقاً : مدّه . فالمشق الخط الممدود الذي كتب بسرعة وبعجلة . ولذلك عبّر عن القـــلم السريع الجري في القرطاس بـ (قلم مشاق)[3] . وورد أن أهل الأنبار كـانوا يكتبون بالمشق . وهو خط فيه خفة[4] .

ويعبر عن الكتابة الفاسدة المكتوبـــة بخط رديء فاسد بـ (كتابة مخربشة) وبـ (كتاب مخربش)[5] . وبهذا المعنى أيضاً (الخرمشة) . فالخربشة والخرمشة في معنى واحد[6] .

وقد كانوا يستنسخون الكتب والصحف والأسطر كما نفعل. فقد ورد ان منهم من استنسخ كتباً في الجاهلية والاسلام ، أي ينقلون الكتابة نقلاً بنصها وحروفها حرفاً حرفاً حتى تكون عند الناقل نسخة كاملة تامة للكتابة التي نقل عنها. والكاتب ناسخ ومنتسخ . والاستنساخ اكتتاب كتاب عن كتاب حرفاً حرفاً . وفي هذا المعنى ورد في القرآن : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ، أي نستنسخ ما تكتب الحفظة[7].

---

١ اللسان (١٢/٥٩٢ وما بعدهـا) ، (نم) ، تاج العـروس (٩/٨٥) ، (نم) ، الحيوان (١/٧١) .

٢ تاج العروس (٣/٥٨٠) ، (نقر) .

٣ اللسان (١٠/٣٤٤ وما بعدها) ، (مشق) ، تاج العروس (٧/٧٠) ، (دمشق) .

٤ الاقتضاب (٨٩) ، المصاحف ، للسجستاني (١٣٤) .

٥ اللسان (٦/٢٩٥) ، تاج العروس (٤/٣٠٤ وما بعدها) ، (خربش) ، (خرمش) .

٦ اللسان (٦/٢٩٥) .

٧ الجاثية ، الآية ٢٩ ، تفسير القرطبي (١٦/١٧٥) ، (قال ابن عباس : هل يكون النسخ الا من كتاب) ، تاج العروس (٢/٢٨٢) ، (نسخ) .

وترد لفظة (الترقين) ، بمعنى ترقين الكتاب وهو تزيينه ، وقيل (رقّن الكتاب) قارب بين سطوره ، والترقين في كتاب الحسبانات . والمرقن : الكاتب[1] . وقال بعضهم : « الترقين خط يخط في التأريخ أو العريضة اذا خلا باب من السطر ، لكي يكون الترتيب محفوظاً به . وهو بمنزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجمل ، واشتقاقه من (رقان) وهو بالنبطية الفارغ »[2] . وقيل الترقين : نقط الخط وإعجامه ليتبين ، وتسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم انها بيضت كيلا يقع فيه حساب[3] .

ولفظة (قرأ) من الألفاظ الجاهلية المعروفة . وهي أصل لمعانٍ عديدة ذوات صلة بالقراءة . وتعبر جملة (قارأه مقارأة وقِراء) عن معنى دراسة . ومن الأصل المتقدم قارىء وقرّاء وقراءة[4] . ولفظة (اقرأ) ، هي أول لفظة نزل بها الوحي ، وأول كلمة من القرآن . كما ذكر ذلك أكثر المفسرين وأصحاب كتب السير والاخبار[5] . كما وردت لفظة (قارىء) في حديث أول نزول الوحي على الرسول . وفي تفسير سورة (اقرأ) . وأما (المقارىء) فبمعنى الذي قرأ الكتب[6] .

وتؤدي لفظة (تلا) معنى قرأ ، والتلاوة القراءة[7] . وترد لفظة مبروز بمعنى منشور ، استشهد على ذلك بشعر للبيد ، هو :

الناطق المبروز والمختوم[8] .

ومن أصل (درس) المدرس ودارس ومدارس ومدراس،وهي تقابل (درش) في العبرانية والسريانية . وقد ذكر علماء اللغة أن المِدْراس الموضع الذي يدرس فيه كتاب الله ، ومنه مدراس اليهود،وأن المدارسة والدارسة القِراءة ، وأن المدراس

---

١ اللسان (١٣/١٨٥) ، (صادر) ، (رقن) .
٢ مفاتيح العلوم (٣٩) .
٣ تاج العروس (٩/٢١٨) ، (رقن) .
٤ تاج العروس (١/١٠١) ، (قرأ) .
٥ راجع تفسير سورة : اقرأ باسم ربك .
٦ تاج العروس (٤/١٥٠) ، (درس) .
٧ تاج العروس (١٠/٥٢ وما بعدها) ، المفردات (ص ٧٤) .
٨ شمس العلوم (١/١٤٦) .

صاحب دراسة اليهود ، كما ذكروا أن الآية : « وليقولوا دارست » في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، معناها « قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وتعني دارس النبي اليهود . وقيل: دارست ذاكرتهم[1] . و (المِدْراس) ، من (مدراش) في العبرانية ، وتعني المدارسة بالمعنى العام . وخصصت بالشروح والتفاسير التي وضعها الأحبار على الأسفار[2] . وتؤدي لفظة (درس) و (درش) الدراسة العميقة للفهم والتعلم ، فهي أعمق غوراً من معنى قرأ . وقد كان العبرانيون يعبرون بها عن دراسة الشريعة والتوراة .

وقد كان (عمرو) من (بني ماسكة) ، وهو المعروف بـ (أبي الشعثاء) قد رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة . وكان ذا قدر فيهم[3] .

وقد أشار علماء اللغة الى كتب كانت عند الجاهليين ذكروا أنها عرفت عندهم بالرواسيم جمع روسم[4] ، ولم يذكروا محتوياتها ومضامينها . و (الراشوم) في السريانية لوح منقوش تختم به البيادر من (رشمو) Rouchmo بمعنى العلامة . والآلة (رشمه) Rshme كما أن (رشم) Rshme معناها رسم ، ومنها الراسم والمرسوم المستعملتان في النصرانية في رسم الأسقف[5] . ولا أستبعد أن يكون مراد تلك الكتب كتباً دينية مستعملة عند النصارى الجاهليين .

وعرفت لفظة (الوضائع) عند الجاهليين ، فذكر علماء اللغة أن الوضيعة كتاب فيه الحكمة . وقد ورد في الحديث: إنه نبي وإن اسمه وصورته في الوضائع[6].

وقد ذكر علماء اللغة أن (السفر) الكتاب الذي يسفر عن الحقائق . وقيل الكتاب الكبير ، والجزء من أجزاء التوراة . وأما (السَفَرة) فبمعنى الكتبة ، وسفر الكتب كتبها . وقد ذكر علماء اللغة أن السفر ، يقابلها (سافرا) بالنبطية[7].

---

١ تاج العروس (٤/١٥٠) (درس) ، أساس البلاغة (١/٢٦٨) ، برصوم (ص ٦١) .
٢ A Religious Ency. III, p. 1504.
٣ الاغاني (١٦/١٥) .
٤ تاج العروس (٨/٣١٢) .
٥ برصوم (ص ٧٣ وما بعدها) ، غرائب اللغة (ص ١٨٣) .
٦ تاج العروس (٥/٥٤٥) ، اللسان (٨/٣٩٩) ، (صادر) ، (وضع) .
٧ تاج العروس (٣/٢٧١) ، (سفر) .

وقصد بـ (أسفار) الواردة في القرآن الكريم ، التوراة . وبـ (سفرة) كتبة[1] . وقد قال السيوطي : إن الأسفار الكتب ، والكتاب بالنبطية يسمى سفراً[2] .

وقد وردت لفظة (هسفر) أي (السفر) في اللهجة الصفوية بمعنى الكتابة . فورد في أحد النصوص (وعور لذ يعور هسفر)[3] ، ومعناها (وعورٌ للذي يُعَوِّرُ الكتابة) ، وبعبارة أوضح (وعور للذي يوذي هذه الكتابة) . والعور في اللهجة الصفوية بمعنى عوارة أي أذية وأذى . ولا بد أن يكون مدلول (سفر) عندهم كمدلول كتب في عربيتنا . وقد وردت لفظة (سفر) بمعنى كتابة وخط في نصوص أخرى ، إذ ورد فيه : « ووجد سفر دده »[4] ، أي «ووجد كتابة أبيه » . و «ووجد خط أبيه » .

وترد اللفظة في العبرانيـــة أيضاً . فلفظة (س ف ر) (سافور) تعني يخط ويكتب ومن هـــذا الأصل (سيفير) Sepher ويراد بها كتاب . كتاب يلف فيكون عـــلى هيأة شيء ملفّف ، أو أوراق تجمع بعضها الى بعض وتربط[5] . ومن العبرانية أخذ السريان لفظة (سفرو) Sefro بمعنى سِفْر . ومن هـذا الأصل (سفر) Sfar بمعنى درس وكتب وتفقـــه وتعلم . وأمـــا Sofro فبمعنى الكُتّاب ، أي المسجلون والفقهاء والأساتذة ورؤساء ، والجمع (سوفرة) Sofre . وأما Sofroutho فهي الكتابة ، أي حرفة الكاتب والفقه والعـــلم والحذاقة[6] . وعرف علماء اليهود حملـــة الشريعة بـ (سوفيريم) Sopherim ، لأنهم يكتبون الشريعة[7] .

---

١ المفردات (ص ٢٣٣) .

٢ المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية ، دمشق ١٣٤٨ (ص ١١) .

٣ CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 13, NUM : 58, p. 23, NUM : 105, Dunand, 1229.

٤ CIS, Pars Quinta, Tome, I, p. 19, NUM : 93, p. 19, NUM : 93, p. 1, NUM : 94, 95, Littmann, Saf. p. 27.

٥ Hastings p. 981.

٦ برصوم (ص ٨٤ وما بعدها) غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

٧ Smith, A Dictio., III, p. 1162.

و (السفسير) الكتاب ، و (السفاسرة) أصحاب الأسفار ، وهي الكتب . وبه فسر قول (أبي طالب) عم النبي :

فإني والسوابح كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود[1]

وقد وردت في القرآن الكريم لفظة (السجل)[2] ، وذهب بعض المفسرين الى انها بمعنى الصحيفة والكتاب[3] . وذهب بعض آخر الى انها حجر يكتب فيه ، أو كل ما يكتب فيه[4] . ولكنهم لم يذكروا شكل السجل وهيأته . وقد جعلها بعض العلماء من الألفاظ المعربة . ورجع السيوطي أصلها الى الحبشية ، فقال انها عندهم بمعنى الرجل[5] . وذهب بعض آخر الى انها من أصل فارسي[6] . ولا تزال اللفظة حية مستعملة في الدوائر ، وتطلق على الأضابير والأوراق المحفوظة بين دفتين في دوائر الحكومات والشركات والأعمال الأخرى ، كما تؤدي لفظة (مسجـــل) و (يسجل) معنى مكتوب ويكتب . فلفظة سجّـل اذن بمعنى كتب ودوّن . واللفظة من الألفاظ المعربة عن اللاتينية ، محرفة من Sigillum بمعنى ختم ، أي ختم العقود والوثائق وأمثال ذلك[7] . ولا علاقة لها بالحبشية أو الفارسية . وقد تعني عند العرب كتاب العهد[8] . وذكر بعضهم ان (السجيل) ، اسم كاتب للنبي[9] .

وروي ان السجل : الكتاب يكتب للرسول أو المخبّر أو الرحّال أو غيرهم باطلاق نفقته حيث بلـــغ فيقيمها له كل عامل يجتاز به . والسجل أيضاً المحضر يعقده القاضي بفصل القضاء[10] . وهذه المعاني ، هي من المعاني المتأخرة التي عرفت وشاعت في الاسلام . والظاهر ان أهل مكة لم يكونوا على علم تام بمعنى اللفظة ،

---

١ تاج العروس (٣/٢٧٢) ، (سفر) .
٢ الانبياء ، الآية ١٠٤ .
٣ الطبرسي (٧/٦٦) ، الاتقان (١/٢٣٦) ، تفسير الطبري (١٧/٧٨) .
٤ المفردات (ص ٢٢٣) ، الاب هنريكوس لامنس اليسوعي ، فرائد اللغة في الفروق المطبعية الكاثوليكية (بيروت ١٨٨٩) (ص ١٢٠) مادة ٤٦٢ .
٥ المتوكلي (ص ٥) ، الاتقان (١/٢٣٦) .
٦ الاتقان (١/٢٣٦) .
٧ غرائب (ص ٢٧٨) ، فرائد اللغة في الفروق (ص ١٣٠) ، Ency., IV, p. 403.
٨ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
٩ تاج العروس (٧/٣٧٠) ، (سجل) .
١٠ مفاتيح العلوم (٣٨ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١١/٣٤٧) ، سورة الانبياء (١٠٤) .

لذلك اختلفوا في تفسيرها اختلافاً يرد في كتب التفسير في تفسير معنى (السجل) .

ولا أستبعد استعمال الجاهليين للكتب التي تلف لفاً ، وذلك لسهولة المحافظة عليها ونقلها ، كالذي كان يفعله العبرانيون ولا يزالون يفعلونه في كتبهم المقدسة. ولا أستبعد أن يكون السجل المذكور في القرآن الكريم على هذا الشكل إذ يطوى ويلف لفاً ، وتوضع الكتب داخل غلاف للمحافظة عليها ، وقد زيّن أهل الكتاب أغلفة كتبهم المقدسة مبالغة في احترامها وتقديسها وتعظيمها . واذا أرادوا فتحها، أخذوها باحترام وتبجيل وقبلوها ، ثم تلوا منها على المتعبدين ما شاؤوا .

واذا ثبت ان لفظة (مصحف) ، هي من الألفاظ الجاهلية ، فإن ذلك يدل على ان المصاحف ، أي الكتب المؤلفة من صحائف منضدة ومجلدة بين دفتين ، كانت معروفة عند الجاهليين . وأنا لا شك لديّ في وجودها بهذا المعنى في أيام الرسول . غير اننا نلاحظ ان المسلمين خصصوا (المصحف) بالقرآن الكريم . و (المصاحف) بالقرائين جمع قرآن . وحين يقولون (خطوط المصاحف)[1]، فإنهم يقصدون كتابة القرائين .

ولفظة (القرآن) ، و (قرأان) ، نفسها تدل على وقوف الجاهليين على المعنى المفهوم من اللفظة ، وهو القراءة . ولا بد أن يكون منهم من سمع من اليهود لفظة (مقرا) التي تعني القراءة و (قرآن) ، أي تلاوة الكتاب المقدس وقد كانوا يتداولونها فيما بينهم ، ومنهم يهود اليمن والحجاز .

وترد لفظة (الفهرس) في العربية ، وهي من الألفاظ المعربة . ذكر بعضهم انها الكتاب الذي تجمع فيه الكتب[2] . وعرفت كلمة (الفهرست) ، بـ (ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الديوان ، وقد يكون لسائر الأشياء)[3] . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية ، بمعنى جدول ، ومواد كتاب أو نحوه[4] . ولكننا لا نستطيع اثبات انها من الألفاظ التي عرفت بهذا المعنى عند الجاهليين .

وذكر ان (الديوان) ، مجتمع الصحف ، وانها لفظة فارسية معربة . وفي

---

١ الفهرست (ص ١٥) ، تاج العروس (٦/١٦١) ، (تصحف) .
٢ اللسان (٦/١٦٧) ، (فهرس) (صادر) ، تاج العروس (٤/٢١١) ، (فهرس) .
٣ مفاتيح العلوم (٣٩) .
٤ غرائب اللغة (٢٤٠) .

الحديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ » . وقيل الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء . وأول من دوّن الدواوين عمر . وذكر بعض العلماء ان الديوان الدفتر ثم قيل لكل كتاب . وقد يخص بشعر شاعر معين وبمجموع الشعر[1] .

و (التأريخ) و (الإراجة) : شيء من كتب أصحاب الدواوين ، و(الأوارجة) من كتب أصحاب الدواوين في الخراج ونحوه[2] . وقيل : التأريخ لفظة فارسية ، معناها النظام ، لأن التاريخ يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج الى علم جملها ، لأن التأريخ يعمل للعقد شبيهاً بالأوراج ، فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفاً ليسهل عقده بالحساب . وهكذا يعمل التأريخ[3] .

والدفتر جماعة الصحف المضمومة ، وواحد الدفاتر[4] . وهي من الألفاظ المعربة عن الفارسية . ومعناها في الفارسية كتاب وسجل وحساب . ومن هذا الأصل لفظة (دفتر خانة) ، أي البيت الذي تحفظ فيه الدفاتر والوثائق ونحوها، ولفظة (دفتردار) ، بمعنى الخازن ، وخازن الدفاتر[5] . وهما مصطلحان استعملا في الإسلام .

والكراسة واحدة الكراس والكراريس من الكتب[6] . فهي مجموعة صحف وجزء من كتاب . لأن الكراسة من الكتاب ، والكتاب مجموع كراريس[7] .

وقد ذكر علماء اللغة أن المجلة ، الصحيفة يكتب فيها شيء من الحكمة . وقال أبو عبيدة : كل كتاب عند العرب ، فهو مجلة[8] . وقد وردت هذه اللفظة في شعر للنابغة ، هو :

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب[9]

---

١ اللسان (١٣/١٦٦) ، (دون) ، تاج العروس (٩/٢٠٤) ، (دون) .
٢ اللسان (٢/٢٠٨) ، (صادر) ، (أرج) .
٣ مفاتيح العلوم (٣٧) .
٤ اللسان (٤/٢٨٩) ، (صادر) (دفتر) .
٥ غرائب اللغة (٢٢٨) .
٦ اللسان (٦/١٩٣) ، (كرس) .
٧ تاج العروس (٤/٢٣٢) ، (كرس) .
٨ شمس العلوم (الجزء الاول ـ القسم الثاني) ، (ص ٢٨١) .
٩ برصوم (ص ١٦٣) ، بلوغ الارب (٣/٣٧١) ، (ويروى محلتهم بالحاء ، أي أنهم يحجون فيحلون مواضع مقدسة) ، تاج العروس (٧/٢٦١) ، (جلل) .

وقد قال النابغة ذلك في مدح الغساسنة . ولما كان الغساسنة نصارى ، فالمراد من المجلة إذن في هذا المكان ، الكتب المقدسة . وتخصيص علماء اللغـــة المجلة بالصحيفة التي يكتب فيها الحكمـــة ، هو تفسير نشأ عن عدم فهمهم للكلمة . وذلك أنها من الألفاظ المستعملة عند أهل الكتاب بمعنى كتاب ملفوف على طريقة تلك الأيام في استعمال الكتب الملفوفة ، فظنوا أنها نوع خاص من الكتب خصص بالحكمة ، لوجود مواعظ وحكم فيهـــا ، يستعملها رجال الدين في مواعظهم ، ففسروها بهذا التفسير .

وقد أشير في كتب السير والأخبار الى (مجلة لقمان) ، وقيل : إنها حكمة لقمان . وأشير الى أمثال لقمان[1] . والمجلة هي (مكلوت) : و(مكلتو) Magaltho في العبرانية والسريانية[2] . ويراد بها كرّاس ملفوف وملف مخطوطات ، وكتاب من أصل Golo بمعنى لف[3] . وقد ذكر أن (سويد بن الصامت) كان يملك (مجلة لقمان) ، (حكمة لقمان) ، وأنه لقي الرسول يوماً ، فدعـــاه الرسول الى الإسلام فقـــال له سويد : لعل الذي معك مثل الذي معي . وكانت معـــه (مجلة لقمان) (حكمة لقمان) . فقال له الرسول : إن هـــذا الكلام حسن ، والذي معي أحسن منه وأفضل[4] .

و (سويد بن الصامت) المذكور ، رجل مثقف مهذب ، ذو علم وفهم في أيامه وبين قومه . وقد عرف عندهم بالكامل ، للخلال الحميدة التي كانت فيه . ولا يلقب بـ (الكامل) في الجاهلية إلا من كانت له صفات معينة . وصفه صاحب كتاب الأغاني ، فقال : « وكان يقال له الكامل في الجاهلية . وكان الرجل في الجاهلية اذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً سابحاً رامياً سمّوه الكامل . وكان سويد أحد الكملة »[5] .

وكان كما يذكر أهل الأخبار حكيماً كثير الحكم في شعره ، حتى قيل إن قومه انما سمّوه (الكامل) لحكمة شعره وشرفه فيهم . وقد رووا له شعراً في ذلك .

---

١ Ency., II, p. 53.
٢ برصوم (ص ١٦٣) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٧٧) .
٤ البلاذري (١/٢٣٨) ، الروض الانف (١/٢٦٥) .
٥ الاغاني (٢/١٦٤) (طبعة الساسي) .

هذا ويشك في اسلام (سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة) الأوسي ، إذ ذكر انه لما انصرف من مقابلة الرسول له ، عاد الى قومه بيثرب فقتل[1] . قتله (المجذر) في الجاهلية[2] .

وأنا لا أستبعد احتمال قدوم يوم ، قد يعثر فيه الباحثون على وثائق تبين ان عرب العراق كانوا قد وضعوا أسساً لقواعد العربية ، وكانوا أصحاب رأي في أساليب الكتابة وصوغ الكلام بنوعيه : من نثر وشعر . إذ لا يعقل في نظري أن يكون ظهور علوم العربية في العراق قبل الأمصار الاسلامية الأخرى ، طفرة من غير سابقة ولا أساس . وأن يكون تفوق الكوفة والبصرة على المدن الاسلامية الأخرى وفي ضمنها مدن جزيرة العرب في علوم العربية صدفة وفجأة ومن غير علم سابق ولا بحث في هذه الموضوعات قبل الاسلام . انني أعتقد ان علم العروض وعلم النحو وعلم الصرف وسائر علوم العربية الأخرى لم تظهر في العراق إلا لوجود أسس لهذه العلوم فيه تعود الى أيام ما قبل الاسلام ، وهذه الأسس القديمة الجاهلية هي التي صيرت العراق الموطن الأول لهذه العلوم في الاسلام . وانني لا أستطيع أن أتصور ان في مقدور انسان مهما أوتي من العلم والذكاء ، استنباط أوزان الشعر وبحوره من نقرات مطارق النحاسين أو من التأمل والتبصر ، فشخص مثل هذا ، لا بد وأن يكون قد وقف على البحور وأوزان الشعر وعلى مقدمات وبحوث في موضوع الشعر ، منها استنبط علم العروض ، وقل هذا الشيء عن علم النحو وعن سائر علوم العربية الأخرى .

وقد كان العبرانيون يكتبون التوراة على جلود البقر، ثم يلفونها لفاً على قضيب أو قضيبين تكوّن لفة واحدة أو لفتين متصلتين بعضها ببعض ، ويطلقون عليها (مجلوت) (مكلوت) . وتعني لفظة (كلل) لفّ ودوّر[3] . وقد كانت كتب ذلك العهد تكتب وتلف بهذه الطريقة ، فلا يستبعد وجود هذه المجلات ، أي الكتب الملفوفة عند الجاهليين .

وقد أورد الأخباريون نصوص رسائل نسبوها الى بعض الملوك الجاهليين وسادات القبائل ، وهي رسائل مسجعة في الغالب موجزة . وفي اثناء حديثهم عن رسائل

---

١ الاصابة (١٣٢/٢) ، (٣٨١٨) .
٢ الاصابة (٣٤٣/٣ وما بعدها) ، (رقم ٧٧٢٨) .
٣ Smith, A Diction. I, p. 1802.

الرسول الى قيصر وكسرى ذكروا ان الصحابة أشاروا على الرسول ان يتخذ خاتماً يختم به كتبه ، لأن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختوم . ويظهر من كلامهم هذا ان أهل مكة لم يكونوا يختمون رسائلهم بخاتم،وانما كانوا يكتفون بتدوين الاسم . والذي يتبين لي من ملاحظتهم هذه عن الروم انهم قصدوا بالخاتم الختمَ ، على الكتب ، اضافة الى الاسم ، وهو ما يقال له Sigillum عندهم، كما أشرت الى ذلك آنفاً . وهو يقابل ختم الدوائر في الزمن الحاضر ، وطبع شعار الدائرة على الورق ، ليكون ذلك تعبيراً عن صفة الورقة الحكومية . فالغاية من إشارة الصحابة على الرسول بختم كتابه ، هو اكسابه صفة رسمية ، ليكون ذلك متفقاً مع طريقة الروم . ولا بد أن يكون رؤساء مكة قد راعوا هذا الأسلوب في مراسلاتهم مع البيزنطيين .

وقد استعمل الخاتم في الغالب لتصديق الأوراق الشخصية والمعاملات الحكومية. فإذا أريد تصديق معاملة أو ارسال كتاب أو ختم صندوق ، ختم بالخاتم ، وعلى الخاتم شيء من الكتابة يأمر صاحب الخاتم بحفرها ، كي يظهر أثرها على الورق أو الشمع أو الطين . وكان منح الخاتم لموظف دليلاً على منحه الثقة وتعيينه في وظيفته التي اختير لها[1] .

وقد كان رجال التجارة والأعمال وأصحاب المصالح يثبتون أعمالهم وعقودهم في صحف وكتب . واذا أرادوا عقد عقد ، مثـل اتفاق على شيء أو تدوين ميثاق ، دوّنوه على صحيفة وأشهدوا على ذلك ، ليكون أوثق وأثبت للعقد. وقد عرف كتاب الشراء بالعهدة[2] . وأما كتاب العهد ، فهو ما يعهد به. وقد وردت في القرآن الكريم إشارة الى الكاتب بالعدل . أي الكاتب الذي يتولى كتابة العهود والمواثيق بين الناس .

وقد ورد في كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ : ان الرسول قال : « اذا كتب أحدكم فليترب كتابه »[3] ، أي : ان الكاتب اذا انتهى من كتابة كتابه ، فليضع التراب عليه ، ليجفف حبره .

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٠٥) ، Smith, A Diction., III, p. 1188.
٢ بلوغ الارب (٣/٣٧١) .
٣ البيـان (٣/٢٠٤) .

الفصل الرابع والعشرون بعد المئة

الدراسة والتدريس

الكتاتيب :

وفي العربية لفظة (الكتّاب) ، ويراد بها في عرف هذا اليوم المدرسة التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة . وهي من الألفاظ العربيـــة المستعملة في العهود الأولى من الاسلام . وعندي انها من الألفاظ العربية التي كانت مستعملة في الجاهلية ،وهي في معنى بيت (ها سيفر) Beth Ha-Sepher أي (بيت الكتّاب) في العبرانية . وقد كان العبرانيون يطلقونها عـــلى المدارس التي تدرس القراءة والكتابة ومبادىء المعرفة ، تمييزاً لها عن المدارس التي تعلم الديانة والعبرانية والمعارف التي لها علاقة بالديانة . ويطلقون عليها (بيت هامدراش) Beth Ha-Midrash أي (بيت المدراش) ، و (بيت ها تلمود) ، أي (بيت التلمود) في بعض الأحيان[1] .

وقد ذكر بعض أهل الأخبار أسماء جماعة ذكروا انهـم كانوا من المعلمين في الجاهلية وكانوا من أصحاب الوجاهة والمكانة ، منهم على سبيل المثال : (بشر ابن عبد الملك السكونـــي) ، أخو (أكيدر) صاحب (دومـــة الجندل) ، و (سفيان بن أمية بن عبد شمس) ، و (أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة)

---

١ Hastings, A Dictionary of Christ. and the Gospels, I, p. 222.

و(عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد) ، وقد كان يسمى (الكاتب) ،و (غيلان ابن سلمة بن معتب الثقفي) وهو مخضرم[1] ، مما يدل على وجود المدارس والتعليم عند الجاهليين .

وقد ورد ان الرسول أمر (عبدالله) واسمه الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية، بأن يعلم في الكتاب بالمدينة[2] . كما ورد ان (جفينة) ، وهو من نصارى الحيرة ، جاء المدينة فصار يعلم الكتابة بها[3] . وورد في رواية ان (علي بن أبي طالب) اختلف الى الكتّاب ، فتعلم الكتابة به وله ذؤابة وهو ابن أربع عشرة سنة[4] . وورد ان رجلاً نزل بوادي القرى ، وعلّم الخط بها[5] . وورد ان غلاماً جاء « يبكي الى أبيه ، فقال : ما شأنك ؟ قال : ضربني معلمي ، قال : الخبيث !! يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً »[6] . واذا صح هذا الخبر ، نكون قد عثرنا على كلمة (المعلم) بالمعنى المفهوم منها في الوقت الحاضر في الأيام الأولى من ظهور الاسلام .

وورد أن (عبدالله بن سعيد بن العاص بن أمية) ، كان ممن أسر يوم بدر ، فأمره الرسول أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ، ويخليه لسبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار . وكان كاتباً محسناً[7] . غير أن الموارد الأخرى ، تذكر أنه كان قدم على رسول الله مهاجراً ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : الحكم . فقال : أنت عبدالله . فغير رسول الله اسمه[8] . وتذكر أنه أمره أن يعلم الكتاب بالمدينة وكان كاتباً . وتذكر أنه قتل يوم بدر شهيداً . أي إن اسلامه كان قبل يوم بدر . ولكن أكثر الروايات تذكر أن وفاته تأخرت[9].

وذكر بعض أهل الأخبار،أن المدينة كانت متأخرة بالنسبة الى مكة في الكتابة

---

١ المحبر (ص ٤٧٥) ، الاعلاق النفيسة ، لابن رستة (٢١٦) .
٢ ابن حزم ، جمهرة (٧٣) .
٣ الطبري (٥/٤٢) ، ابن سعد ، طبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) .
٤ الفصول المختارة من العيون والمحاسن ، للشيخ المفيد ، النجف (٢/٦٦) .
٥ فتوح البلدان (٤٧٧) .
٦ امتاع الاسماع (١/١٠١) .
٧ المشرق ، السنة العاشرة (٤٧٨) .
٨ الاستيعاب (١/٣١٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ الاصابة (١/٣٤٣) ، (رقم ١٧٧٧) .

والقراءة . بـــل ذهب بعضهم الى أنه لم يكن في الأنصار من يحسن الكتابـــة[1] . وكلامهم هذا يصطدم مع ما ذكروه أنفسهم من أن (سويد بن الصامت)الأوسي ، وسعد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وغيرهم ممن أشرت اليهم في مواضع أخرى من هذا الكتاب ، كانوا من الكتّاب .

ويفهم من قول (الشمّاخ) :

كما خـــط عبرانيةٌ بيمينـــه بتيماء حبْرٌ ثم عرض أسطرا

أن هذا الشاعر كان قد زار تيماء ، وقد وقف على خط اليهود ، ورأى أحدهم وقد عرض أسطر الكتابة ودونها بيمينه[2] . وقد وصف غيره كتابة اليهود وتعلمهم الخط في مدراسهم بالمستوطنات اليهودية .

وكانوا يستعينون بصبيان الكتاب في بعض الأحيان لكتابة جملة نسخ مما يراد نشره واذاعته أو حفظه . فورد أن النجاشي الشاعر ، لما هجـا (بني النجار) من الأنصار شكوا ذلك الى حسان ، فقال قصيدة في هجائه وفي هجـاء قومه ، ثم « قال اكتبوها صكوكاً وألقوها الى صبيان المكاتب ، فـا مرّ بضع وخمسون ليلة حتى طرقت بنو عبد المدان حسّان بالنجاشي موثقاً معهم » ، وذلك للإعتذار اليه واسترضائه[3] .

وقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على أهلها في نشر الكتابـــة والعلوم بينهم إذ صارت معابدهم مدارس يتعلم فيها الناس أصول ديانتهم ومبادىء المعرفة والكتابة والقراءة لمن يرغب من الأطفال ، كما أدت حاجـــة الديانتين الى رجال دين يقومون بتثقيف الناس وتعليمهم أصول دينهم ونشر ديانتهم بين الوثنيين، أو بين أصحاب الديانات الأخرى،الى تكوين معاهد خاصة لتخريج هؤلاء الرجال، ألحقت بالمعابد ، درسوا فيها الكتب المقدسة وما وضع عليها من تفاسير وشروح، ومما يتعلق بشرحها من دراسة للغات وفلسفة وجدل وأمور أخرى لها علاقة وصلة بالديانات . وقد كان من بين هؤلاء الرجال أناس أذكياء ذوو نظر واسع ، فلم

---

١ امتاع الاسماع ، للمقريزي (١/١٠١) .
٢ ديوان الشماخ (٢٦) ، ديوان زهير (٥) .
٣ شرح ديوان حسان (ص ٢١٣ وما بعدها) (البرقوقي)

يكتفوا بحفظ ما ورد اليهم ، وبالتعصب لكل ما تلقنوه،بل تتبعوا ثقافات غيرهم وعلومهم ، ودرسوا اللغات والفلسفات الأخرى،وكوّنوا لهم آراء خاصة اعتمدت على استعمال العقل والمنطق ، فظهر النقد عندهم ، والنقد يخلق الرأي .

والبيت هو المدرسة عند الجاهليين وعند غيرهم من شعوب ذلك الزمن ، فيه يتعلم الطفل ، واليه يرد المعلم لتعليم أولاد الموسرين ما يحتاجون اليه من كتابة وعلم بأجرة تدفع اليه ، وفيه قد يتعلم الطفل الكتابة من الرقيق المجلوب الذي كان له حظ من العلم . وفيه تشرف أمه على تربيته وادارته ما دام صغيراً ، ثم يشرف عليه أبوه فيلقنه شؤون الصنعة وأمور الحياة متى تجاوز الخامسة أو السابعة من عمره.

وفي البيوت والطرقات والأزقة يلعب الأطفال ، أما الشبان،فقد كانوا يتبارون بالألعاب في الساحات العامة خارج المدن ، والقرى في الغالب . يتسابقون بركوب الخيل وبالمصارعة وبالجري وبرمي السهام . وقد يخرجون الى الصيد ولا يزال أطفال جزيرة العرب يلعبون بعض الألعاب التي كان أطفال الجاهلية وشبانهم يلعبونها قبل الاسلام .

وقد قامت المعابد بدور فعال ناشط في نشر القراءة والكتابة . واذا كنا نجهل اليوم موقف معابد الوثنيين من تعليم القراءة والكتابة بها ، فإننا لا نستطيع أن ننكر موقف (الكنيس) و (المدراش) (المدارس) عند اليهود ، و (الكنائس) عند النصارى من تنشيط التعليم وتهيئة الأطفال لتعلم القراءة والكتابة ، لخدمة الدين، أو للأغراض التثقيفية والشؤون الخاصة بالحيـــاة . وقد قام (المدراش) وقامت الكنيسة بدور فعال في تعلـــيم الناس أمور دينهـم وشرح ما ورد في التوراة وفي الانجيل الى المؤمنين بهما . فقد كان أحبار يهود (يثرب) وقرى (وادي القرى) يجلسون في المعابد ليفسروا للناس أحكام شريعة يهود .

والمدراس ، لفظة عبرانية الأصل ، هي (مدرش) Midrash ، وتعني بحث وشرح نص[1] . وقد أطلقت على المكان الذي تدرس فيه التوراة . فصار بمثابـــة المدرسة ، يقصده اليهود للتفقه فيه والتعلم ، وقـد قصده الجاهليون أيضاً ليسمعوا ما عند يهود . كما قصده المسلمون . وقد كانت لليهود جملة بيوت عبادة يجلس فيهـــا أحبارهم للافتاء ولشرح الكتب المقدسة لتلامذتهم وللنـاس . فكانت بيوت عبادة ومدارس للتعليم .

---

١ Hastings, p. 149.

وقد كان الجاهليون يسألون اليهود عن تواريخ الماضين وقصص الأولين والأنبياء والمرسلين . وعن بعض المشكلات الدينية مثل الحياة بعد الموت وأمثال ذلك ممـا تعرضت له اليهودية . وقد لجأ اليهم أهل مكة الوثنيون يسألونهم عن أشياء عويصة لليهود علم بها ، ليمتحنوا بها الرسول[1] .

وقد ورد في الأخبار أن « بعض اليهود قد علم كتاب العربية . وكان يعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون »[2].

وقياساً على مـا نعرفه من تخصيص الكنائس مواضع خاصة ملحقة بالكنائس لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، فإننا نستطيع أن نقول إن الكنـائس التي كانت في جزيرة العرب في نجران مثلاً أو في صنعاء أو في عدن أو في قطر ، لم تكن مستثناة من هذه العادة . وإن كنا لا نملك دليلاً نستند اليه في إثبات قيام الكنائس في جزيرة العرب بتعليم الأطفال القراءة والكتابة .

أما بالنسبة لكنائس العرب في العراق، فإن لدينا شواهد بينة تثبت قيام الكنائس بتعليم الأطفال القراءة والكتابة ومبادىء الدين . وتثبت وجود مكان خاص خصص بالأطفال ليتعلموا فيه . فقد جاء في أخبار (عين التمر) أن خالد بن الوليد لما دخل حصن عين التمر وغنم ما فيه وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم[3] . وذكر أن تلك البيعة كانت في النقيرة من أطراف عين التمر[4] .

وورد في الأخبار أن من أهل الحيرة من كان يتعلم العربية ، يقرأ بها ويكتب ويتفقه ويتأدب ، كالذي حدث لزيد والد (عدي بن زيد العبادي) ، ولابنه (عدي) ، وأن منهم من كان يتعلم الفارسية ، إذ فيها جماعـة من الفرس ، ومنهم من يتعلم الإرمية ، لغة (بني إرم) ، ومنهم من تعلم العربيـة والفارسية وأجاد بها كتابة ونطقاً ، وتولى الكتابة بهما عند الفرس مثل (عدي بن زيـد

---

١ ابن هشام (١/٢٧٤) .
٢ فتوح البلدان (٤٧٩) ، المعارف (١٩٢) ، الطبري (٣/٣٧٧) ، (دار المعارف) ، البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢/١٠١) ، المجدل لعمرو بن متى (٣١ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٧١) .
٣ الطبري (٣/٣٧٧) (دار المعارف بمصر) .
٤ البلدان (٤/٨٠٧ وما بعدها) .

العبادي) وابنـه (زيد بن عدي) وغيرهما من آل (زيد) والعباديين نصارى الحيرة [1]

ولما فتح خالد (الأنبار) : « رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ، ثم لم تزل عنها ، فقال : ممن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : تعلمنا الخط من إياد ، وأنشده قول الشاعر :

قـومي إيادٌ لو أنهم أممٌ أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحـة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم »[2]

وهو شعر نسب قوله الى الشاعر (أمية بن أبي الصلت) ، ذكر أنه مدح به بني إياد[3] . ومعنى هـذا ، أن (بني إياد) كانوا قد عُرفوا بالكتابة في العراق ، ولهـذا وضعوا هذه القصة في كيفية نشوء الكتابة العربية ، وإياد من القبائل العربية القديمة التي نزحت من البحرين الى العراق .

وقد كان العرب في الأنبار ، والحيرة ، وعين التمر والمواضع الأخرى يحتمون بأبنية محصنة ، يقيم بها ساداتهم ، وتكون مواضع دفاعهم أيام الخطر ، يقولون لها (القصور) . وقد كانت الحيرة مؤلفة من جملة (قصور) ، ولا يزال عرب الفرات يطلقون لفظـة (القصر) على المواضع الحصينة المقامة في البادية ، لصد غارات المهاجمين ، مثل (قصر الأخيضر) ، و (قصر العين) ، في ناحية (عين التمر) . وتحتمي الكنائس وبيوت الناس بهذه القصور ، ولما فتح (خالد ابن الوليد) (عين التمر) ، بعث الى (كنيسة اليهود ، فأخذ منهم عشرين غلاماً وصار الى الأنبار »[4] ، وهو خطأ ، لأن الذي نجده في الموارد الأخرى ، ان (خالد بن الوليد) ، لما فتح حصن (عين التمر) وجـد في كنيسة جماعة يتعلمون سباهم ، فكان من ذلك السبي : (حمران بن أبان بن خالد) التمري،

---

١ الاغاني (٢/١٠١) .
٢ الطبري (٣/٣٧٥) ، (حديث الانبار) .
٣ ابن هشام ، سيرة (١/٤٨) .
٤ اليعقوبي (٢/١٢٣) ، (النجف ١٩٦٤) .

و (سيرين) أبو (محمد بن سيرين) المشهور بتفسير الأحلام ، و (أبو عمرة) جدّ (عبد الأعلى) الشاعر ، و (يسار) جدّ (محمد بن اسحاق) صاحب (السيرة) ، و (نصير) أبو (موسى بن نصير)[1] ، وذكر (الطبري) أن (خالد بن الوليد) وجد « في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل ، عليهم باب مغلق ، فكسره عنهم ، وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رهن ، فقسمهم في أهل البلاد[2] . وقد كان كل هؤلاء من الكتّاب القارئين للانجيل الدارسين لعلوم الدين ، فأسلموا وبرز أبناؤهم في المجتمع الاسلامي .

وفي خبر (وفد نجران) الذي قدم على الرسول ، إفادة بوجود مواضع لتعليم أمور الدين ، وتثقيف الناس بما يلزم من ثقافة ، فقد ورد أن أسقف نجران كان حبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدارسهم (صاحب مدراسهم)[3] ، أي الموضع الذي يتدارسون فيه ، والغالب أن يكون ذلك المكان في الكنيسة على الطريقة المتبعة في ذلك العهد ، كما صار المسجد موضعاً للتعليم .

وقد كان يهود الحجاز والمواضع الأخرى من جزيرة العرب يلحقون بكنيسهم كتّاباً يعلمون به أطفالهم أصول القراءة والكتابة ، كما كان أحبارهم يتخذون به مجلساً لتعليم اليهود أمور دينهم وللافتاء بينهم في أمور الشرع ، وفضّ ما قد يقع بينهم من خلاف . وكذلك كان شأن نصارى العرب اتخذوا من كنائسهم مواضع للتدريس ولتعليم القراءة والكتابة كالذي رأيناه بين نصارى العراق . ولا استبعد احتمال اتخاذهم مدارس في قرى البحرين ، التي كانت بها جاليات نصرانية كبيرة وكذلك في اليمامة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وأصول الدين .

مواد الدراسة :

لم نعثر على أي نص جاهلي فيه شيء عن التدريس وعن مواد الدراسة عند الجاهليين لنستنبط منه مادة عن الدراسة عند عرب الجاهلية ، غير أننا اذا ما

---

١ البلاذري ، فتوح (٢٤٨) .
٢ الطبري (٣/٣٧٧) .
٣ طبقات ابن سعد (١/٣٥٧) (طبعة صادر) .

أخذنا بما جاء في الموارد النصرانية الشرقية عن التربية والتعليم عند نصارى العراق وعن مواد المعرفة التي كانوا يعلمونها للتلاميذ ولطلاب المدارس العالية ، فإننا نستطيع أن نقول إن مدارس الأنبار والحيرة والقرى العربية الأخرى، لا بد وان تكون قد سارت وفقاً لمنهج أهل العراق في تعليم أبنائهم في ذلك الوقت . من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وإجادة الخط وشيء من الحساب والأمثال والحكم ومبادىء الدين . وهي المواد الرئيسية التي كانت تعلم في الكتاتيب في بلاد الشرق الأوسط في ذلك الوقت ، والتي لا تزال تدرس في الكتاتيب القديمة حتى اليوم .

والعادة في الكتاتيب حتى الآن في تعليم الخط للأطفال ، أن يخط المعلم أو (خليفته) أو من يقوم مقامه من التلامذة المتقدمين ، سطراً من الحكم والأمثال أو من الكتب السماوية ، لينقش التلميذ سطوراً مثلها على لوح يحاول الاجادة جهد امكانه في كتابتها لتقوية يده على الخط . وقد كان العبرانيون يعلمون الآية : « رأس الحكمة مخافة الرب » ، « رأس الحكمة معرفة الله » ، « مخافة الرب رأس الحكمة »[1] ، في أول ما كانوا يعلمونه لتلامذتهم[2] . ويعلمونهم أمثال ذلك من الحكم والأمثال الواردة في التوراة . ولا يستبعد أن تكون هذه الأمثال والحكم في مقدمة ما كان يدرسه المعلمون اليهود في مستوطناتهم في بلاد العرب بتيماء ووادي القرى وقرى المدينة .

وورد ان نصارى العراق ، درسوا في مدارسهم لغة بني إرم ، لغة الثقافة والعلم آنذاك ، درّسوا مفردات اللغة وقواعدها وأصولها ، وعلّموا معها مبادىء العربية وقواعدها وآدابها في الأرضين التي كانت غالبية سكانها من العرب[3] . ونجد في الموارد النصرانية اشارات تشير الى تدريس العربية في الأنبار وفي الحيرة . ولا يعقل أن يكون المراد من العربية ، الكتابة والقراءة بها فقط ، بل لا بد وأن يُعلم معها شيء من أصول الكتابة من كيفية قط القلم ورسم الحروف ، وأنواع الخطوط ، ثم الأمثال والحكم ، وقواعد اللغة وآدابها ، أي منهج المدارس المقرر في الشرق الأدنى في ذلك العهد . وقد كان رجال الدين يسيرون عليه ويتبعونه في مدارسهم . وكان لهم علم بقواعد وبلغة بني إرم .

---

١ سفر الامثال ، الاصحاح الاول ، الآية ٧ .
٢ Hastings, p. 204.
٣ تاريخ كلدو وآثور (٢/٧) .

أما عن تعليم الأطفال في جزيرة العرب ، فلا نستطيع التحدث عنه بصورة جازمة لعدم ورود شيء عن ذلك في الكتابات الجاهلية أو في روايات أهل الأخبار. ويمكن أن نقول باحتمال تعليم الأطفال في المواضع التي وجدت النصرانية اليها سبيلاً ، مثل مدينة (نجران) وبعض مواضع من سواحل الخليج ، على النمط الذي كان متبعاً عند نصارى العراق وبلاد الشأم من تعليم مبادىء القراءة والكتابة وتحسين الخط ومبادىء أمور الدين . ثم المعارف العالية مثل اللغة والعلوم اللاهوتية والطب وما شاكل ذلك ، للمتفوقين من الطلاب من أصحاب المواهب والقابليات، وذلك لأن الكنيسة كانت تتبع نظاماً واحداً في التعليم ، ولأن الذين كانوا يبشرون بالنصرانية بين العرب ، كانوا من أهل العراق في الغالب ، وقد درّسوا عرب العراق وعرب مواضع أخرى في جزيرة العرب ، وقد درسوهم على طريقة تدريس الكنيسة الشرقية ، فيحتمل لذلك أن يكون التدريس على نمط واحد في مدارس الكنيسة ، ولا أستبعد احتمال تدريس السريانية لهؤلاء الطلاب ، باعتبار انها لغة الدين وتساعد في فهم الأناجيل والكتب النصرانية والعلوم .

وقد ورد أن : عمر بن الخطاب ، كان يقول في تربية الأولاد وتثقيفهم : « علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ، وروّوهم ما يجمل من الشعر »[1] . وذكر أنه كتب الى الأمصار: « أما بعد ، فعلموا أولادكم العومَ والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحَسُنَ من الشعر »[2] ، وأن الرسول دعا لمعاوية ، فقال : « اللهم علمه الكتاب والحساب »[3] . ويظهر أن هذا التوجيه في تربية النشء كان معمولاً به عند الجاهليين .

ويظهر أن الحث على تعلم السباحة ، إنما ظهر في الاسلام ، بعد الفتوح ، وذلك بعد أن اتصل العرب بالأنهار الواسعة العميقة وبالبحار ، فأجبرهم الواقع على تعلم العوم . ونجد (الحجاج) يقول لمعلم ولده : « علّم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يصيبون من يَكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم »[4] .

---

١ المبرد ، الكامل (١/١٥٥) .
٢ البيان (٢/١٨٠) ، (٢/١١٦) ، (القاهرة ١٩٣٢ م) .
٣ البيان (٢/ ١١٦) ، (١٩٣٢ م) .
٤ البيان (٢/١٧٩) .

وقد كان (عمر) يتهيب البحر ، فأوصى قواد جيشه بالتأني في ركوب البحر، خشية غرق المسلمين .

والمثل والشعر من أهم المواد التي كان يعتني بها الجاهليون . وكان أهل الكتاب يعتنون بالمثل وبما ورد في الكتب المقـدسة من حكم ، وبالشعر كذلك في تعليم أطفالهم في الكتاتيب .

وذكر (الهمداني) ، أن (عمر بن الخطاب) ، قـال : « تعلّموا من النجوم مـا تهتدون به ، ومن الأنساب ما تعارفون به وتواصلون عليه ، ومن الأشعار ما تكون حِكَماً ، وتدلكم على مكارم الأخلاق »[1] .

ويقوم بالتعليم معلمون . امتهنوا التعليم واتخذوه حرفة لهم . ومنهم من اتخذه حرفة رئيسية له ، إذ كان يمارس حرفاً أخرى ، ليتمكن بذلك من إعاشة نفسه. ولما كان التعليم الابتدائي الذي يقوم على تعليم الخط والقراءة والكتابة وبعض المبادىء الأخرى شيئاً بسيطاً لا يحتاج الى علم وكبير ومعرفة ، لذلك لم يشترط في متعاطيه أن يكون من أصحاب العلم ، بل قام به من وجد في نفسه قابليـة تعليم الأطفال من رجال الدين ومن غيرهم ، على نحو ما نجده في المدارس القديمـة التي تقوم بتعليم الأطفال القراءة والكتابة لهذا اليوم .

ولم يرد في الكتابات الجاهلية شيء يتعلق بأسماء المعلمين الجاهليين . لذلك لا نستطيع أن نذكر اسم معلم من معلمي الجاهلية بالاستناد اليها . أما أهل الأخبار ، فقـد تعرض نفر منهم لذكر بعض المعلمين الذين عاشوا قبل الإسلام ، والـذين أدرك بعض منهم الإسلام . فذكر (محمد بن حبيب) في الفصل الذي سماه : (أشراف المعلمين وفقهاؤهم) ، اسم (بشر بن عبد الملك السكوني) أخـو (أكيدر ابن عبد الملك) صاحب (دومة الجندل) ، فذكر أنه كان في جملة المعلمين[2]. واليه ينسب أهل الأخبار نشر الكتابـة بمكة على نحو ما بينت ذلك في موضوع تأريخ الخط .

وأشار (ابن حبيب) الى (أبي قيس بن عبد مناف بن زهرة) ، وهو جاهلي ، على انه من أشراف المعلمين . كما أشار الى (عمرو بن زرارة بن عدس

---

١ الاكليل (١/٦ وما بعدها) .
٢ المحبر (٤٧٥) .

ابن زيد) ، وهو جاهلي كذلك في جملة من أشار اليهم من المعلمين . وذكر انه كان يسمى (الكاتب) . وأشار أيضاً الى (غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي) ، وهو من المخضرمين . على انه كان من أشراف المعلمين[1] . وهو من الشعراء الحكماء ، إذ كان أحد حكام (قيس) في الجاهلية . وكان أحد وجوه ثقيف، وقيل انه أحد من نزل فيه : « على رجل من القريتين عظيم » ، وانه كان صاحب تجارة،وقد سافر في قوم من تجار ثقيف وقريش وعلى رأسهم (أبو سفيان) الى العراق ، للتجارة ، فوصلوا الى (كسرى) فتكلم معه باسم التجار ، فأعجب به ، واشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها وبعث معه من بنى له اطماً بالطائف ، فكان أول اطم بني بها . وذكر ان كسرى لما كلمه ووقف على حكمته قال له: « هذا كلام الحكماء ، وأنت من قوم جفاة لا حكمة فيهم فما غذاؤك ؟ قال : خبز البر ، قال : هذا العقل من البر لا من اللبن والتمر »[2] . في حديث يقصه أهل الأخبار وكأنهم كانوا شهود عيان .

ولا بد وأن يكون في ثقيف قوم كانوا مهرة في الكتابة ، لهم خط حسن وإملاء صحيح ، وذلك فيما اذا أخذنا بصحة الأخبار الواردة عن تدوين القرآن وجمعه من قولهم إن الخليفة (عمر) أو (عثمان) ، قال : « اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف » ، إذ لا يعقل النص على أن يكون الكاتب من ثقيف من غير سبب ، اللهم اذا اعتبرنا الخبر من الموضوعات التي صنعت في أيام الحجاج ، للتقرب اليه ، ولرفع شأن ثقيف ، بعد أن ظهرت أخبار في أيامه ، رجعت نسب ثقيف الى قوم ثمود ، وصيرت (أبا رغال) خائن العرب الى غير ذلك من أخبار تحدثت عنها في أثناء حديثي عن ثمود وعن قبيلة ثقيف .

وكان (جفينة) العبادي من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً ، قدم المدينة ، وأخذ يعلم بها الكتابة في أيام الخليفة (عمر) . وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص. فاتهمه (عبدالله بن عمر) بمشايعة (أبي لؤلؤة) على قتل أبيه فقتله[3] .

---

١ المحبر (٤٧٥) .

٢ الاصابة (١٨٦/٣ وما بعدها) ، (رقم ٦٩٢٦) ، الاستيعاب (١٨٦/٣ وما بعدها)، (حاشية على الاصابة) .

٣ فتوح البلدان (٤٦٠) ، (أمر الخط) ، ابن سعد ، الطبقات (٣ القسم الاول ص ٢٥٨) ، الطبري (٤٢/٥) .

وورد في كتب الحديث « عن الأسود بن يزيد بن قيس النخعي ، أنه قال : أتانا معاذ بن جبل ، رضي الله عنه باليمن معلماً وأميراً »[1] . وقد أرسل الرسول معاذاً الى اليمن ليعلمهم الفرائض وأحكام الدين . وإذا صح النص ، صار دليلاً على شيوع لفظة (معلم) في ذلك العهد .

ووردت لفظة (المعلم) في رسائل (عمر) الى عماله ، ففي رسالة له (الى أهل الكوفة) : « إني قد بعثتُ اليكم عمّار بن ياسر أميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً »[2] . وأراد بلفظة المعلم ، من يعلم الناس ويرشدهم ويفقههم في أمور الدين . وكانوا يطلقون على من يعلم الكتابة في (الكتاب) : معلم كتاب. والكتّاب والمكتب ، الموضع الذي يتعلم به .

ولست أعلم شيئاً عن مدى تقدم علم الحساب عند الجاهليين . وكل ما أستطيع أن أقوله ، هو انهم كانوا يعلّمون أولادهم مع الخط مبادىء الحساب المعروفة، وهي الجمع والطرح والضرب والتقسيم ، وذلك لحاجتهم اليها في حياتهم اليومية ، ولا سيما بالنسبة الى التجار أصحاب المصالح الكبيرة ، إذ تدفعهم الحاجة الى ضبط أعمالهم وحسابهم . وقد ذكر أهل الأخبار أن الجاهليين استعملوا حساب عقود الأصابع في حسابهم ، فوضعوا كلاً منها بإزاء عدد مخصوص ، ثم رتبوا لأوضاع الاصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً ، ووضعوا قواعد يتعرف بها حساب الألوف فما فوقها بيد واحدة . وقد أشير الى حساب اليد في الحديث ، كما استعملوا العدّ بالحصى ، وبه يحسبون المعدود[3] . والعدّ برسم خطوط ، فيدل كل خط على عدد ، ومجموع الخطوط هو المعدود .

وورد في الأخبار ان الرسول دعا لمعاوية بقوله : « اللهم علّمه الكتاب والحساب »[4] ، وقد نعت بأنه كان من الكتبة الحسبة الفصحاء[5] ، والحديث المذكور من أحاديث أهل الشأم[6] ، ولهم أحاديث أخرى في الثناء على (معاوية) ، وهي

---

١ ارشاد الساري (٩/٤٢٩) .
٢ خورشيد احمد فاروق ، حضرت عمر (١١٦) ، (رقم ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩) .
٣ بلوغ الارب (٣/٣٧٩ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/١١٦) .
٥ الاصابة (٣/٤١٢) (رقم ٨٠٧٠) .
٦ الاستيعاب (٣/٣٨١) (حاشية على الاصابة) .

من الأحاديث التي أوجدتها العصبية السياسية ، على نحو ما نجد من أحاديث في (عبدالله بن عباس) وفي العلويين . وقد روي الحديث المذكور في حق أشخاص آخرين . وقد وضعت أحاديث في مدح معاوية وبني أمية . وأرى أن الحديث المذكور وضع في مقابل حديث « اللهم علمه الحكمة » ، الذي روي أن الرسول قاله في (ابن عباس) ، وحديث : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » أو « اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » ، و « اللهم بارك فيه وانشر منه » ، وأحاديث أخرى ذكر أنها قيلت فيه[1] .

وأما ما نسب الى الرسول من قوله : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » فإنه حديث ضعيف ، وقد ورد أيضاً أن رجلاً قال : ما كنت أظن أن عدداً يزيد على ألف[2] ، وهو قول ينطبق على حالات فردية لأعراب ، ولا يمكن أن ينطبق بالنسبة للحضر ، ولا سيما لأهل مكة الذين كانت لهم تجارة ضخمة وقوافل تذهب الى مختلف الأنحاء ، تحمل تجارة تقدر أثمانها بعشرات الألوف ، فهل يعقل صدور مثل هذا الحديث من الرسول ؟

وقد كان الجاهليون يتراسلون بينهم ، فيكتبون كتباً الى من يريدون مراسلته. والكتاب هو صحيفة قد تكون من جلد ، أو من مادة أخرى . وقد ذكر أن الرسول كتب كتاباً الى (بني حارثة بن عمرو بن قريظ) ، فأخذوا الكتاب وغسلوه، ثم رقعوا به دلوهم[3] . ويدل هذا على أن الكتاب كان صحيفة من جلد .

والرسائل من حقول التدوين المهمة عند الجاهليين . وهي رسائل قد تكون في أمور خاصة ، كرسائل أب الى ابنه أو العكس ورسائل أصدقاء وأقارب من ذوي الأرحام ، وهي تتناول مسائل شخصية خاصة تهم المتكاتبين . وقد تتناول الأحداث التي يكون لها شأن عند الناس وخطر ، فيكتب المتكاتبون عنها ، لما فيها من أهمية ولذة بالنسبة لهم . وقد تكون الرسائل إخبارية ، كأخبار عن تجارة ومعاملة أو عن حدث وقع أو غزو أو قرب وقوع حرب أو اخبار بهجوم عدو ومقدار قوته وما شاكل ذلك من أمور ، ذات أهمية خاصة ، بالنسبة للمرسل اليهم.

---

١ الاصابة (٢/٠٠٠) .
٢ الاحكام السلطانية (١٩٢) .
٣ امتاع الاسماع (١/٤٤١) .

ونجد في كتب أهل الأخبار صور رسائل في أمور ذات طابع إخباري . منها رسائل دوّنت بعبارات واضحة صريحة ، يظهر أن أصحابها كانوا مطمئنين من عدم إمكان سقوطها في أيدٍ عدوة فتقف على ما جاء فيها ، لذلك كتبوها بعبارات مفهومة مكشوفة . ومنها ما كتبت شعراً كالذي روي من ارسال شعر كتبه (لقيط بن يعمر الإيادي) لقومه يحذرهم فيه من كسرى[1] . أو نثراً وقد كتبها أصحابها على شيء لا يلفت النظر ، كحدوج الجمال المسافرة الى جهة معينة ، لتقرأ هناك ، أو رسائل لا تلفت النظر ولكنها ذات معانٍ مفهومة عندما ترسل اليه ، وقد تحمل الرسالة لرسول لينقلها شفاهاً الى من يرادُ اخبارهم خبراً، وذلك في الأمور الهامة بالطبع ، التي لا يمكن الإفصاح عنها ، لما لها علاقة بحروب أو غزو أو وضع أسير واقع في عذاب أسر آسريه، ويريد ابلاغ أهله بذلك ليخلصوه من وضعه السيء .

ومن رسائل الإخبار : الرسائل التي كتبها المسلمون المتخفون أو المشركون الميالين للمسلمين على قريش ، يخبرون فيها الرسول وأصدقاءهم المسلمين بأمر قريش وعورتهم واستعدادهم ليكونوا على حذر منها ، والرسائل التي كتبها بعض المسلمين الذين لم يكن الاسلام قد تمكن بعد من قلوبهم ، أو كتبوها شفقة لبعض أصدقائهم من المشركين عن الاسلام والمسلمين . ومنها كتاب (حاطب بن أبي بلتعة) الى صفوان بن أمية وسهل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل . يقول فيه : إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي اليكم » . وأعطى الكتاب الى امرأة من مزينة ، وجعل لها مبلغاً من الدنانير على أن تبلغه قريشاً ، وقال : أخفيه ما استطعت ، ولا تمري على الطريق فإن عليه حرساً . فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها وسلكت على غير نقب ، فبلغ الرسول أمرها ، فأرسل من قبض على الرسالة . وتوسل حاطب الى الرسول ، بأن يعفو عنه ، لأنه كان رجلاً ليس له في القوم أصل ولا عشيرة ، فصاروا له أهلاً واعتبروة ولداً فصانعهم فعفا عنه . ونزل الوحي في شأنه في سورة الممتحنة[2] .

---

١ ابن قتيبة ، الشعر (٩٧ وما بعدها) ، الاغاني (٢٠/٢٣ وما بعدها) .

٢ الآية ١ ، امتاع الاسماع (٣٦٣) .

وفي كتب السير والتواريخ إشارات الى مخابرات أرسلهـا مسلمون الى ذوي رحمهم ، يطلبون اليهم الدخول في الاسلام ، وبأن الرسول سيعفو عنهم ويغفر لهم ما بدر منهم من إساءة اليه إن جاءوا اليه مسلمـين ، من ذلك ، ما كتبه (بجير) الى أخيه (كعب بن زهير بن أبـي سلمى) ، يطلب منه الدخول في الاسلام ، والتوبة ، وإلا فمصيره كمصير (ابن خطل) الذي كان يمعن في هجاء الرسول ، فقتل[1] . ومن ذلك كتاب (الوليد بن الوليد) الى أخيه (خالد بن الوليد) ، يدعوه الى الاسلام ، فجاء مسلماً[2] .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الجاهلية كانوا يستفتحون كتبهم بجملة : (باسمك اللهم) ، ويذكر بعضهم ان أمية بن أبـي الصلت كان هو الذي ابتدع هـذه البدعة . فشت بين الناس . وصارت سنّة لأهل مكة في تدوين رسائلهم. فجعلوها في أول كتبهم . فكانت قريش تكتب بها . وبها افتتح الرسول كتبه في بادىء أمره ، ثم أبدلت باسم الله بعد نزول سورة هود ، ثم باسم الرحمن ، بعد نزول سورة اسرائيل ، ثم بسم الله الرحمن الرحيم ، بعد نزول سورة النمل[3] .

وكان من رسم الجاهليين اذا كتبوا أن يبدأوا بأنفسهم من فـلان الى فلان . ونجد هذا الأسلوب في كتب رسول الله[4] .

وتختم الرسالة بخاتم كاتبها أو بتدوين اسمه في نهايتها . كأن يقول : (وكتب فلان) أو (كتب فلان) . وقد ورد في كتب السير ، ان الرسول حين همّ بتوجيه الكتب الى قيصر وكسرى وغيرهما ، قيل له : إن الروم لا يقرأون كتاباً غير مختوم بختم صاحب الرسالة ، فأمر بصنع خاتم له ، ختم به كتبه . وورد ان قريشاً حين ائتمرت بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، وكتبت بذلك صحيفـة ، ختمت عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة[5] .

---

١ الاصابة (٣/٢٧٩) ، (٧٤١٣) .
٢ نسب قريش (٣٢٤) .
٣ الجهشياري (١٢ وما بعدها) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (١٠٣ وما بعدها) ، أدب الكتاب ، للصولي (٣١) ، الاغاني (٣/١٢٣) ، تفسير الطبري (١٩/٥٩ ومـا بعدها) ، تفسير الطبري (١٥/١٢١ وما بعدها) .
٤ القرطبي ، الجامع (١٣/١٩٢ وما بعدها) .
٥ امتاع الاسماع (١/٢٥) .

وأشير الى الخاتم في شعر لامرىء القيس . فورد فيه :

ترى أثر القَرْح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس

والجرجس : الشمع ، وقيل هو الطين الذي يختم به ، وقيل هو الصحيفة. وبكل من ذلك فسر قول الشاعر المذكور[1] . ومن معاني (الجرجس) البعوض الصغير[2] . ويظهر ان اللفظة من المعربات ، عربت عن الإرمية . فهي تعني البعوض الصغير ، اذا قيل Gargso ، وهي تعني الصلصال والطين الذي يختم به اذا قيل Garguechto[3] .

ويذكر بعض أهل الأخبار ان أول من ختم رسائله (عمرو بن هند)[4] . وذكر علماء اللغة ان خاتم الملك الذي يكون في يده يسمى (الحِلق) . وأنشدوا في ذلك :

وأعطى منا الحلق أبيض ماجد رديف ملوكٍ ما تغب نوافله

كما أنشدوا بيتاً للشاعر جرير ، ذكر فيه (الحلق) : حلق المنذر بن محرق إذ قال :

ففاز بحلق المنذر بن محرق فتى منهم رخو النجاد كريم[5]

وذكر أيضاً ان الحلق خاتم من فضة بلا فص[6] . ويظهر من ذلك ان الملوك، كانوا يصطنعون خاتماً لهم ، يكون دليلاً على صدق رسائلهم وأوامرهم ، يحملونه معه ، أو يودعونه عنه كاتم أسرارهم ، وعلى ذلك جرى الأمر في الاسلام . فقد سار الخلفاء على سنّة الرسول من اتخاذه خاتماً يختم به الرسائل ، والكتب والأوامر ، وبقي الأمر كذلك عند من جاء بعده من الخلفاء .

---

١ ديوان امرؤ القيس (١٠٢) ، (سندوبي) ، الاقتضاب ، للبطليوسي (٩٧) برواية أخرى ، تاج العروس (١١٨/٤) ، (الجرجس) .
٢ تاج العروس (١١٨/٤) ، (الجرجس) .
٣ غرائب اللغة (١٧٦) .
٤ الاقتضاب ، لنبطليوسي (١٠٤) .
٥ تاج العروس (٣٢٤/٦) ، (حلق) .
٦ تاج العروس (٣٢٤/٦) ، (حلق) .

والخاتم ما يوضع على الطينة وما يختم به . والختام الطين أو الشمع أو الحبر أو أي مادة أخرى تترك أثراً يختم بها على الشيء[1] . وختم الأوراق والرسائل من العادات القديمة المستعملة عند الشعوب . ويقوم الخاتم مقام التوقيع في وقتنا الحاضر. وختم رسالة معناه المصادقة عليها وتصديقها . واستعمل الخاتم في ختم الأوراق العامة والأوراق الشخصية والعقود والمعاملات . وكان الشخص اذا أراد ارسال رسالة ختمها ، ولذلك كانوا يحملون خواتمهم معهم ، إما في جيوبهم وإما في أصابعهم وقد يضعونها في سلسلة يعلقونها حول أعناقهم[2] . .

وقد صنع الخاتم من مواد مختلفة . صنع من ذهب ومن فضة ومن معدن آخر ومن الحجر . وقد كتب على بعض الخواتم اسم صاحبه ، ونقشت أمثلة وحكم وعبارات دينية أو أسماء الآلهة على بعض الخواتم . كما حفرت على بعض منها صور ترمز الى رموز مقدسة أو صور حيوانات . وعثر على خواتم في العربية الجنوبية ، وبها فصوص من أحجار ثمينة من أحجار اليمن الشهيرة . وقد كان يستعملها الناس إذ ذاك في التوقيع على رسائلهم ومخابراتهم ومعاملاتهم . ولا زال الناس يعثرون على خواتم جاهلية في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية ، فيستعملونها لتزيين أصابعهم بها .

وبعد أن تختم الرسالة ، توضع داخل ظرف ، حتى لا يطلع عليها أحد ثم يغلق ، ثم يختم على موضع فتحه بالطين أو على المواضع التي يحتمل أن يفتح منها حتى تكون في مأمن تام . فلا يقف عليها إلا من أرسلت له . فإذا وصلته ، ووجد ان خاتمها سليم ، كسره ، ليستخرج الرسالة من ظرفها . وكانت الكتب على هيأة لفائف . وكان من عادة الشعوب القديمة أن المكتوب إذا أريد ارساله الى شخص من طبقة أدنى من طبقة الكاتب ، أي صاحب الرسالة ،أرسل المكتوب اليه منشوراً ، أما اذا كان المكتوب الى شخص مكافىء لصاحب الكتاب أو أعلى منزلة منه ، أرسل مختوماً وموضوعاً في كيس[3] .

ولحماية الأشياء من التطاول والتجاوز عليها لجأوا الى طبعها وختمها ، فختموا

---

١ تاج العروس (٢٦٦/٨) ، (ختم) ، اللسان (١٦٣/١٢) ، (ختم) .
٢ Hastings, p. 833.
٣ نحميا ، الاصحاح السادس ، الاية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٥٣/٢) .

الأكياس التي تملأ بالنقود أو بأي شيء آخر ، وختموا زق الخمرة حتى لا يتطاول عليه متطاول . قال الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها خَتَم[1]

كما ختموا الطعام بالروسم ، وهو خشبة مكتوبة بالنقر . أو لويح فيه كتاب منقور ، تختم به الأكداس[2] . وقيل له (الروشم) أيضاً في لغة السواد[3] . وكلمة (رشم) ، تعني (كتب) في الإرمية . و (راشوم) ، بمعنى لوح منقوش تختم به البيادر في لغة بني إرم ، Rouchmo ، وتعني علامة[4] .

وكان من عادتهم ختم الأمور المهمة أيضاً خشية ضياعها أو التطاول عليها أو لحفظها . فلما كتب أهل مكة فيما بينهم كتاباً يتعاقدون فيه ألا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب ولا يبايعوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يُسلموا اليهم محمداً . كتبوا بذلك صحيفة ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، وعلقوها في سقف الكعبة[5] . ويظهر انهم بعد أن كتبوا الصحيفة وضعوها في ظرف ثم سدّوه وختموا عليه ثلاثة خواتيم ، حتى لا يفتح الظرف . أو انهم طووها بعد أن كتبوها ثم ختموا عليها حتى لا تفتسح ، فلما أرادوا فتحها وجدوا انها قد تهرأت وتلفت من فعل لعب الأرضة بها . ويجوز انهم ختموا عليها ثلاثة خواتيم ، بخواتيم الكتبة الثلاثة الذين نسبت كتابتها الى كل واحد منهم ، بحسب اختلاف الروايات . وهم : منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ، أو النضر بن الحارث ، أو بغيض بن عامر بن هاشم .

الكاتب :

والكاتب في اصطلاحنا هو الذي خصص نفسه بالكتابة ، أو من يقوم بعمل

---

١ مصادر الشعر الجاهلي (٧٦) .
٢ تاج العروس (٣١٢/٨) ، (رسم) .
٣ تاج العروس (٣١٣/٨) ، (رشم) .
٤ غرائب اللغة (١٨٣) .
٥ امتاع الاسماع (٢٥/١) .

كتابي،أو من اشتهر وعرف بحذقه في فن الكتابة . وذكر علماء اللغة أن الكاتبين، هم الكتبة وحرفتهم الكتابة . وذكروا أن الكاتب في أيام الجاهلية : العالم . «وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي . أراد عالماً سُمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة »[1] . والواقع أن نسبة العلم للكتاب ، لم تكن نظرة أهل الجاهلية وحدهم بالنسبة الى كتّابهم ، بل كانت وجهة نظر شعوب العالم كلها الى الكتبة في ذلك العهد . لأن أكثر كتاب تلك الأيام كانوا من أبناء العوائل المتمكنة ومن أبناء طبقة رجال الدين ، وكانوا يتعلمون الى جانب الكتابة في الغالب علم اللسان ، كالعربية بالنسبة الى العرب والإرمية بالنسبة الى بني إرم،وشيئاً من الأدب من منظوم ومنثور وحساب وأمثال وحكم ، لذلك يخرج المتعلم ، وقد تثقف بثقافة تجعله فوق مستوى أقرانه، فيكون بعلمه هذا أعلم من غيره وأدرك منهم بشؤون الحياة . ومن هنا صار أعلم من بقية الناس . ونظر اليه نظرة تقدير وتبجيل .

ومن هنا نجد أن الأحناف ، وهم الدعاة الى الاصلاح والى رفع مستوى الحياة في الجاهلية ، كانوا كلهم من الكتّاب بالعربية . وقد نسب إليهم أنهم كانوا يكتبون ويقرأون بالعبرانية أو بالسريانية أو باللغتين أيضاً ، كما عرف عن بعض الخطباء والشعراء أنهم كانوا يقرؤون ويكتبون،ومنهم من كان له اطلاع على الثقافات واللغات الأعجمية حتى بان ذلك على كلامه المنظوم أو المنثور ، وخير مثال على هؤلاء : عدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت والأعشى ولبيد .

وقد عرفت حرفة احتراف الكتابة بين الجاهليين أيضاً ، كالذي كان من أمر (زيد) والد (عدي بن زيد العبادي) مع الفرس ، وكالذي كان من أمر ابنه عدي نفسه مع الفرس أيضاً ، ثم ما كان من أمر ابن عدي معهم. وكالذي كان من أمر (لقيط بن يعمر الإيادي) ، وغيرهم . وقد رأينا ان الناس أطلقوا على (حنظلة بن الربيع) ، كاتب الرسول (الكاتب) ، حتى عرف بـ (حنظلة الكاتب) ، لأنه كان قد قضى معظم وقته في الكتابة للرسول ، فكان يكتب له اذا غاب كاتب من كتّابه عنه . فهؤلاء اذن ، هم كتّاب ، صارت الكتابة حرفتهم ، ولا بد وأن نتصور انهم كانوا قد أتقنوا حرفتهم لطول مرانهم بها

---

١ تاج العروس (١/٤٤٥) ، (كتب) .

وخبروها على خير وجه . ومن المؤسف ، اننا لا نملك نماذج من رسائلهم ولا من خطوطهم في هذا اليوم . كما لا نملك من خطوط غيرهم شيئاً ، وسبب ذلك هو ندرة مواد الكتابة وغلائها بالنسبة لذلك الوقت ، فكانوا يغسلون الصحيفة المكتوبة ويمحون ما كتب عليها ، ليكتبوا عليها من جديد ، ثم عدم ادراك الناس إذ ذاك لأهمية وقيمة الوثائق ، حتى بالنسبة الى الوثائق المهمة كرسائل الرسول وأوامره وأحاديثه وأمثال ذلك ، فضاعت الأصول بسبب هذا الإهمال ،وهي أصول سريعة التلف ، لأنها كتبت على الجلود وعلى مواد تبلى بسرعة ، وتحتاج الى عناية وحرص كي تحافظ على حياتها مدة طويلة .

وقد سار الكتاب الجاهليون على الجادة التي سلكها الكتاب الآخرون الكاتبون بالأقلام السامية من عدم وضع علامات للحروف المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء ، بحيث أنهم كانوا اذا كتبوها ، لم يضعوا عليها نقاطاً لتمييز حرف منها عن حرف مشابه له أو بعلامة أخرى فارقة ، تفرق هذا الحرف عن الحرف الآخر . كما ساروا على الجادة التي سار عليها غيرهم من عدم وضع علامات خاصة بالحركات . فكتبوا ما كتبوا من غير إعجام ولا حركات . تاركين أمر القراءة الصحيحة وفهم المكتوب الى علم القارىء وفهمه وذكائه وحذقه باللغة وبالمهنة . ولعلهم فعلوا ذلك محاكاة لغيرهم مثل الكتبة النبط والآراميين والعبرانيين ، الذين تمسكوا بهذا الأسلوب ، على اعتبار أنه سنة قديمة ورثت عن الآباء ، وقد كتبت بها الكتب المقدسة . أو لأن القارىء يجب أن يكون عالماً بفنه بارعاً به ، فلا يكتب له بما يشعره أن مستواه في فهم المكتوب ، هو مثل مستوى سائر الكتبة ، ممن تعلموا القراءة والكتابة وكفى . فكتبوا من غير اعجام ولا حركات . وقد جعلوا ذلك خاصة في مخاطبة ذوي المكانة والحكم ، أما إذا كان الانسان المكتوب اليه من سواد الكتاب القرّاء ، فكانوا يبيحون لأنفسهم حرية إعجام الكتابة وتحريكها . ومن هنا أيضاً ، ظهرت نماذج من الخطوط ،خصصت بكتاب العامة .

وكانوا يميزون بين الخطوط ،ويرجحون الخط القوي السوي على الخط الضعيف . والخط الجيد هو الخط الذي يجود فيه . ولا يستبعد أن تكون لهم مدارس في كيفية تدوين الخط . فقد أطلقوا على خط أهل الأنبار المشق . وقد عرفوا هذا الخط ، بأنه فيه خفة . ولا يعقل بالضبط أن يكون هذا الخط خطاً رديئاً ولهذا سمي مشقاً ، بل هو طريقة خاصة من طرق رسوم الخطوط التي امتازت بمدّ

الحروف وبخفتها في الكتابة أي سهولتها ، ولا تزال هذه الطريقة المعروفة بـ (خط المشق) معروفة . وهي تستعمل عند الخطاطين في كتابة بعض الأمور التي يناسبها هذا الخط . ذكر أن الخليفـــة (عمر) ذكره فقال : « شرّ الكتابة المشق وشر القراءة الهـــذرمة »[1] . لما في الاثنين من السرعة والتسرع . فالهذرمة السرعة . وذكر أيضاً أن (ابن سيرين) كره كتابة المصاحف بالمشق[2] .

والنوع الثاني الذي نعرفه من أنواع الخطوط ، هو الجزم . وهـو خط أهل الحيرة . وهو خط المصاحف[3] .

ويجب أن نضيف الى هذين القلمين قلم أهل مكة ، الذي دعاه (ابن النديم) بـ (الخط المكي) ، ثم الخط المدني . وقد ذكر ان ما بعدهما الخط البصري ثم الكوفي . وهما خطان اسلاميان ، وان كنت لا أستبعد من كونهما قد أخـــذا من خط عرب العراق في الجاهلية ، ولعلها قد طعما بشيء من قلم أهل مكة أو المدينة. وقد وصف (ابن النديم) بعض خصائص القـــلم المكي والقلم المدني ، فقال : « فأما المكي والمدني ، ففي ألفاته تعويج الى يمنة اليد وأعلى الأصابع وفي شكله انضجاع يسير[4] . ويمكن استخـراج بعض خواص رسم خطوط أهـل الحجاز في القرن الأول للهجرة من الكتابات التي عثر عليها بعض الباحثين في مواضع متعددة من الحجاز ، والتي قد يعثر عليها في المستقبل .

والصفة التي يذكرها (ابن النديم) عن ألفات أهل مكة وأهل المدينة ، تدل على ان أهل المدينتين قد أخـــذوا خطهم من أهل العراق والنبط ، لأن الصورة المذكورة هي صورة كتابة الألف في الخط الشمالي ، ولم يعدل الألف،بحيث صير مستقيماً إلا في الاسلام.

وأنا لا استبعد احتمال تدريس مبادىء اللغات وبينهـــا مبادىء اللغة العربية في الحيرة وفي الأنبار وفي مواضع حضرية أخرى ؛ فليس يعقـــل اقتصار التعليم في هذه المواضع على تعليم الخط والقراءة ثم لا يتجاوزهما الى مراحـل أخرى ومراقي أرفع . خاصة وأن السريانيين كانوا قد اقتبسوا من اليونان اجرومية النحو وأصول

---

١ الصولي ، أدب الكتاب (٥٦) .
٢ تاج العروس (١٠١/٩) ، (هذرم) ، المصاحف ، للسجستاني (١٣٤) .
٣ الاقتضاب ، للبطليوسي (٨٩) .
٤ الفهرست (١٤) .

الشعر وفلسفة قواعـــد اللغات بترجماتهم الكتب اليونانية الى اللغة السريانية . وأن جماعة من النصارى العرب كانوا يزورون القسطنطينية وبلاد الشأم ويقرأون الكتب الدينية من آرامية ويونانية للتعلم والتثقف ، وهؤلاء هم الذين تولوا تثقيف أبنائهم العرب وتعليمهم . وأناس من هذا الطراز لا بد وأن يكونوا قد تأثروا بما تعلموه من اليونان ومن السريانية فطبقوه على العربية ، ووضعوا القواعد لصيانـــة الألسنة ولتقويمهـــا ، وسلكوا سبلاً في البيان ترتفع فوق مستوى تفكير السواد والسوقة بدرجات . وترجموا الموضوعات الدينية ولا سيما الكتب الدينية الى الناس لتفقيههم بأمور دينهم .

ورجل مثل (عدي بن زيد العبادي) ، ولّي ديوان الرسائل والانشاء عند كسرى وهو ديوان مهم ، لم يكن الفرس يسلمون أمره إلا لرجل أديب حاذق، لا يعقل أن يكون مجرد قارىء خطاط ناقش للحروف ، لا بد وأن يكون صاحب فن وحذق له أسلوب في تنميق الكلام والتحبير ، قوي البيان ، يكتب وفق قواعد اللغة وأصولها . درس القواعد والأدب وأساليب العرب والعجم في التعبير والبيان، فصار من ثم كاتباً بالعربية وبالفارسية كما يذكر أهل الأخبار .

الفصل الخامس والعشرون بعد المئة

الكتاب والعلماء

والعلم المعرفة . ورجل عالم وعليم ، صاحب معرفة ، وأصحاب المعرفة والعلم هم العلماء . ويقال في جمع عالم : علاّم ، كجهّال في جاهل . قال يزيد بن الحكم :

ومسترق القصائد والمضاهي سواء عند علام الرجال[1]

وذكر علماء اللغة ان (الناخع) العالم ، وقيل هو المبين للأمور ، وقيل هو الذي قتل الأمر علماً . قال شقران السلاماني :

إن الـذي ربضتما أمره سراً وقد بين للناخع
لكالـتي يحسبها أهلهـا عذراءبكراً وهي في التاسع[2]

والعلاّمة ، والعلاّم ، والتعلمة ، والتعلامة : العالم جدّاً ، وذلك للمبالغة في سعة علم العالم . وذكر علماء اللغة ان « العلامة والعلام : النسابة »[3] ، ويظهـر انهم انما قالوا ذلك ، بسبب ان النسب كان عند الجاهليين من أهم علومهم التي

---

١ تاج العروس (٨/٤٠٥) ، (علم) .
٢ تاج العروس (٥/٥٢٠) .
٣ تاج العروس (٨/٤٠٦) ، (علم) .

برعوا وتخصصوا بها ، حتى صار النسب مرادفاً للعلم عندهم . وفي القرآن : « انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[1] ، و (علماء بني اسرائيل)[2] ، وألفاظ كثيرة لها صلة بالتعلم والعلم ، وفي ورودها فيه دلالة على وقوف الجاهليين على العلم والتعلم وعلى وجود العلماء عندهم .

وترد لفظة (الكاتب) بمعنى العالم . « قال الله تعالى : أم عندهمُ الغيب ، فهم يكتبون »[3] ، « وفي كتابه الى أهل اليمن : قد بعثت اليكم كاتباً من أصحابي ، أراد عالماً ، سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة » ، والكاتب عندهم العالم . والاكتاب الإملاء . تقول : اكتبني هذه القصيدة ، أي املاها عليّ[4] ، و (الكاتب) عند الشعوب الأخرى ، بمعنى العالم كذلك ، وقد كانت للكتاب منزلة كبيرة في مجتمعهم ، إذ كانوا يعدون من الطبقات العالية الممتازة . وذلك لأن الكاتب لا يكون كاتباً إذ ذاك ، ولا ينال العلم ، إلا إذا كان من الطبقة العالية المتمكنة ومن أسرة عرفت بالعلم . والعلم إذ ذاك محصور في العوائل ، وفي رجال الدين وفي الطبقة التي تتولى الكتابة في قصور الملوك .

ونجد في القرآن لفظة : (كتب) و (كَتَبْتَ) و (كَتَبْتَ) و (كَتَبْنا) ، و (كتبناها) ، و (فسأكتبها) ، و (تكتبوه) ، و (نكتب) ، و (يكتب) ، و (يكتبون) و (أكتب) ، و (فاكتبها) ، و (فاكتبوه) ، و (كُتِبَ) و (ستكتب) ، و (اكتتبها) ، و (فكاتبوهم) ، و (كاتب) ، و (كاتباً) و (كاتبون) ، و (كاتبين) ، و (الكتاب) ، و (كتاباً) ، و (كتابك) ، و (بكتابهم) ، و (كتابنا) ، و (كتابه) ، و (كتابها) ، و (كتابي) ، و (كتابيه) ، و (كُتُبٌ) ، و (كُتُبِهِ) ، و (مكتوباً) . وفي ورود هذه الألفاظ فيه معبرة عن معان مختلفة لها صلة بالكتابة وبالعلم ، دلالة على أن الجاهليين كانوا على علم ، وأنهم كانوا يكتبون في أغراض مختلفة من أغراض الحياة ، وأنهم لم يكونوا على نحو ما يقص عنهم أهل الأخبار من الجهل والأمية .

---

١ فاطر ، الاية ٢٨ ، تفسير الطبري (٨٦/٢٢) ، تفسير الالوسي (١٧٦/٢٢) .

٢ الشعراء ، الاية ١٩٧ .

٣ الطور ، الاية ٤١ ، القلم ، الاية ٤٧ .

٤ تاج العروس (٤٤٥/١) ، (كتب) .

وذكر علماء اللغة ان (الشهر) وجمعها (شهور) بمعنى العالم ، واستشهدوا على هذا المعنى ببيت شعر ينسب الى أبي طالب ، هو :

فإني والضوابح كل يوم وما يتلو السفاسرة الشهود[1]

قال الصاغاني : هكذا أنشده الأزهري لأبي طالب ، ولم أجده في شعره[2] . ولكن الرواة يروونه على هذا النحو :

فإني والسوابح كل يوم وما تتلو السفاسرة الشهود[3]

والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب ، والشهود أنسب في تفسير الشعر من الشهور ، لأننا لا نعلم ان أحداً قال إن الشهر : العالم ، وأرى ان تصحيفاً قد وقع في البيت حوّل حرف (الدال) (راء) ، ففسرت لفظة الشهور بالعلماء ، لعدم تصادم هذا التفسير مع المعنى ، وفي العربية مئات الأمثلة على مثل هذا التصحيف .

وترد لفظة (الفقه) بمعنى العلم بالشيء والفهم له . ويظهر ان الجاهليين كانوا يستعملون لفظة (فقه) ومشتقاتها في معان لها صلة بالعلم . ودليل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من قوله « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين »[4] ، ومن ورود (تفقهون) ، و (تفقه) ، و (يفقهوا) ، و (يفقهون) ، و (يفقهوه) في مواضع منه . وورد في كتب اللغة والأدب والأخبار : « فقيه العرب : عالم العرب » ، و « فقهاء من العرب »[5] . وورد في الحديث : « أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون »[6] ، أي الثرثارون المدّعون العلم والفقه .

ويفهم أيضاً من روايات أهل الأخبار ، انه قد كان للجاهليين أئمة وفقهاء يقضون بينهم ، ويفتون في دينهم ، ويحافظون على دينهم . فهم عندهم سدنتهم وأمناؤهم . وقد ذكر (ابن حبيب) أسماء نفر من (تميم) تولوا الموسم والقضاء

---

١ تاج العروس (٣/٢٧٢ ، ٣٢٠) ، (سفر) ، (شهر) .
٢ تاج العروس (٣/٣٢٠) ، (شهر) .
٣ تاج العروس (٣/٣٧٢) ، (سفر) .
٤ التوبة الرقم ٩ ، الآية ١٢٢ .
٥ اللسان (١٣/٥٢٢) ، (فقه) .
٦ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الاول (ص ٢٤٢) .

بعكاظ . فكانوا يجلسون في مكان من السوق ، بين المتخاصمين وللافتاء فيما يشكل عليهم من أمر دينهم . وكان منهم من تخصص بالإجازة بالموسم . ومنهم من تخصص بالفتيا والقضاء . ومنهم من جمع بين الاثنين[1] .

وأنا لا أستطيع أن أتحدث عن كتب ومؤلفات نقول إن الجاهليين كتبوها بالعربية على نمط اليونان واللاتين والفرس والسريان في الكتابة والتأليف ، ذلك لقصور علمنا في الموضوع ، ولعدم وصول أي خبر الينا عنه حتى الآن .

نعم ، لقد أشرت الى وجود ما يسمى (مجلة لقمان) و (حكمة لقمان) والى كتب امتلكها بعض الجاهليين ، إلا أن الاخباريين لم يصفوا كيف كانت مجلة لقمان ، ولم يتطرقوا الى ما كان فيها ، كما أن الظواهر تشير الى أن تلك الكتب هي مؤلفات جيء بها من بلاد الشام والعراق واليمن ، أغلبها في موضوعات دينية وتأريخية وقصص . وأما لغتها ، فيظهر أن بعضها بعربية القرآن الكريم ، كمجلة لقمان ، وبعضها بلغة بني إرم .

أما ما قيل له (الأساطير) أو (كتب الأساطير) ، فهو كتب قصص وسمر وحكايات وتواريخ . وتدل التسمية على أنها من أصل يوناني ، هو : Historia و Storia في اللاتينية وتعني التأريخ ، عرّبت فصارت (أسطورة) وجمعت على أساطير ،واستعملها الجاهليون استعمال اليونان واللاتين ، أي أرادوا بها تواريخ الماضين وحكاياتهم وقصصهم .

وأما ما قيل له (السفاسرة) ، فالسفسير الحاذق بالشيء . والسفاسرة أصحاب الأسفار ، وهي الكتب . والكلمة من أصل (إرمي) على رأي علماء اللغة . و (سفسير) بمعنى (سمسار) في لغة (بني إرم) ، أي المساوم[2] . والظاهر ان (السفاسرة) ، من (سفر) ، و (سفر) (سيفير) بمعنى كتاب في عدد من اللغات السامية . وتقابل (سفرو) في لغة بني إرم ، بمعنى كتاب[3] . وقد كان بمكة وبغيرها رجال يتلون الكتب ويقرأون أسفار أهل الكتب من دينية وغيرها قبل الاسلام وفي الاسلام . « وفي الحديث : لا تعلموا أبكار أولادكم كتب

---

١ المحبر (أئمة العرب) ، (ص ١٨١ وما بعدها) .
٢ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .
٣ غرائب اللغة (ص ١٨٧) .

النصارى : يعني أحداثكم »[1] . وفي هذا الحديث إن صح دلالة على ان قراءة الكتب كانت منتشرة في ذلك العهد . ولا تعني جملة (كتب النصارى) الكتب الدينية بالضرورة ، إذ قد تعني كل ما كان يتداوله النصارى من كتب في ذلك العهد . وقد يكون من بينها مؤلفات في الفلسفة وفي الطب وفي فروع المعرفة الأخرى التي كان الناس يتدارسونها إذ ذاك .

وفي الآية : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل : أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . إنه كان غفوراً رحيماً »[2]، دلالة صريحة على وجود الكتب والأساطير عند الجاهليين . فلما نزل القرآن ، قال المشركون : « إن هـذا إلا افك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين ، يعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم. اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملى عليه ، يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير ، تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب، وأمليت بكرة وأصيلاً ، يقول وتملى عليه غدوة وعشياً . وقوله : قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك ما الأمر كما تقولون من أن هـذا القرآن أساطير الأولين ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، بل هو الحق أنزله الرب الذي يعلم سر من في السموات ومن في الأرض ولا يخفى عليه شيء »[3] . وزعموا ان الرسول اكتتب القرآن من (أساطير الأولين) ، وهي أحاديث سطرها المتقدمون كأخبار الأعاجم ، « فهي تقرأ عليه أو كتبت له »[4] ، وقالوا : « ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين وأحاديثهم »[5] . وكانوا يروون الأساطير وأحاديث الخلق ، وهي الخرافات من الأحاديث المفتعلة، فرمى المشركون الرسول بهذه الفرية[6] .

---

١ تاج العروس (٣/٥٧) ، (بكر) .
٢ الفرقان ، الآية ٥ .
٣ تفسير الطبري (١٨/١٣٧ وما بعدها) .
٤ تفسير النيسابوري (١٨/١٢٥ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير الالوسي (١٨/٢١٣) .
٥ تفسير الطبري (١٩/٦٠) ، تفسير الالوسي (١٩/١٠٠) .
٦ اللسان (١٠/٨٨) ، (خلق) .

وقد ذهب (شبرنكر) — وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ — الى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين ، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو : (أساطير الأولين)[1] . وقد أخذ رأيه هذا من الآية: « وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »[2] . وهذه السورة هي من السور المكية . فهي تشير الى زعم قريش في أن القرآن ، هو شيء اكتتبه الرسول ، وقد أملي عليه من الأساطير . وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه . قالوا إن هذا القرآن « إفك افتراه محمد صلى الله عليه وسلم ،هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين يعني أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم ، اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم ، من يهود ، فهي تملي عليه . يعنون بقوله : فهي تملى عليه ، فهذه الأساطير تقرأ عليه ، من قولهم أمليت عليك الكتاب وأمليت ، بكرة وأصيلاً . يقول وتملى عليه غدوة وعشياً » ، « وأعانه عليه قوم آخرون . يقول : وأعان محمداً على هذا الإفك الذي افتراه يهود »[3] . وقد رد على هذا الرأي (نولدكه) في كتابه : (تأريخ القرآن) ، وعده قولاً لا أهمية له[4] .

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والأحاديث لا نظام لها ، وهي جمع (أسطار) و (أسطير) و (أسطور)[5] . واللفظة من الألفاظ المعربة . وهي Istoriya (استوريا) في اليونانية ، و Historia في اللاتينية ، وقد أطلقت عندهم على كتب الأساطير والتأريخ . ويظهر أن الجاهليين قد أخذوها من الروم قبل الاسلام ، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه ، أي في معنى تأريخ وقصص .

ولا أستبعد وجود الكتب التأريخية باليونانية وباللاتينية في مكة ، فقد كان في مكة وفي غير مكة رقيق من الروم ، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون

---

١ Noldeke I, S. 16, Ency. of Islam vol. IV, p. 1016.

٢ الفرقان ، الآية ٥ .

٣ تفسير الطبري (١٣٧/١٨ وما بعدها) ، أسباب النزول ، للنيسابوري (١٦٠) .

٤ Noldeke, I, S. 17.

٥ تاج العروس (٢٩٧/٣) ، المفردات (٢٣١) ، البيضاوي ، تفسير (١٤٤/١) ، تفسير الطبرسي (٣٢/٧) ، (٦٦/١٤) .

بها إذا تلاقوا ، كما كانوا يحتفظون بكتبهم المقدسة،ويكتب أخرى مدوّنة بلغتهم. وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنـــه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن . وإليه الإشارة في الآية : « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي »[1]. وهي في سورة النحل ، وسورة النحل من السور المكية . « كانـــوا يزعمون أن الذي يعلم محمداً هذا القرآن عبد رومي » ، « وكان صاحب كتب ، عبد لابن الحضرمي » . « فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حـــين يدخل عليه وحين يخرج من عنده ، فقالوا : انما يعلمه »[2] .

وقد ذهب (شبرنكر) الى وجود (صحف ابراهيم) عند الجاهليين ، زعم ان الرسول قرأها وأخذ منها . وقد رد على رأيه هذا (نولدكه) ، بقـوله : لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف ، ونسبه لنفسه وادعاه ، على أنه وحي أوحى الله به اليه ، لو فرضنا ذلك ، فإن من غير المعقول عندئذ ذكر محمـــد لتلك الصحف في القرآن . لأن ذكرها فيه معناه إرشاد الناس الى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، ولهذا فلا يعقل الأخذ بكلام (شبرنكر)[3] .

وورد في كتب أهل الأخبار أن (الأحناف) كانوا يقرأون الكتب،وتبحروا في التوراة والانجيل ، ومنهم من وقف على لغة (بني إرم) وعلى العبرانيـــة . ومن هؤلاء (ورقة بن نوفل بن أسد) ، « الشاعر صاحب العلم في الجاهلية . وكان قـــد قرأ الكتب وتبحر في التوراة والانجيل ، وهو الذي لقيته خديجة في أمر النبي »[4] .

وورد في بعض الأخبار في تفسير الآية: « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هُزُواً »[5] ان هـــذه الآية إنما نزلت في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السمر والأحاديث القديمة ، ويضاهون بهـــا القرآن ، ويقولون إنها أفضل منه[6] . وفي هذا الخبر دلالة على وقوف الجاهليين

---

١ النحل ، الرقم ١٦ ، الآية ١٠٣ .
٢ تفسير الطبري (١١٩/١٤ وما بعدها) .
٣ Noldeke, I, S. 17, Sprenger, Lebens Muhammad, II, S. 367.
٤ الاشتقاق (١٠٢) .
٥ سورة لقمان ، الآية ٦ .
٦ العقد الفريد (٩/٦) .

على الكتب واستعمالهم لها ، وخاصة كتب السمر والأحاديث القديمة ، إذ لا يعقل أن يكون شراؤهم لها حادثاً طارئاً ، ظهر عندهم بنزول القرآن .

وذكر بعض المفسرين أن الآية المذكورة نزلت في حق « النضر بن الحرث وكان يتجر الى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم : رستم واسفنديار فيحدث بها قريشاً . وقيل كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به الى قينته ، فيقول اطعميه واسقيه وغنّيه ، ويقول هذا خير مما يدعوك محمد اليه من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه »[1] .

وإذا صح ما ذهب اليه بعض المفسرين من أن هذه الآية قد نزلت بحق (النضر) لأنه كان يعاند الرسول ويعارضه وقت يكون مجتمعاً بنفر من الناس يلقي عليهم مبادىء الإسلام ، فيقرأ عليهم من كتب الأعاجم ومن قصص : رستم واسفنديار فإن ذلك يدل على أنه كان يتقن الفارسية ، وأنه كان يمتلك كتب الفرس ويقرأ بها وهو بمكة ، ويترجم ما جاء فيها لمن يتجمع حوله . وأنه اشترى جملة كتب خلال تجاراته مع العراق .

فنحن اذن أمام أقدم مترجم يصل الينا خبره من مترجمي العرب قبل الإسلام بمكة . يقوم بترجمة كتب من الأعجمية الى العربية . ويكون بذلك قد سبق المسلمين بزمن طويل في ترجمة كتاب رستم واسفنديار الى العربية . غير أننا يجب أن نتحفظ ونحترز كثيراً في قولنا هذا . فنحن لا نقصد أنه ترجم كتاب رستم واسفنديار ترجمة تدوين وتحبير ، وبالتمام والكمال . فقول مثل هذا يكون قولاً جزافاً ، لا يستند الى علم أو دليل إن قلته . وإنما أقصد ترجمة شفوية على نحو ما ذكره وأورده المفسرون وأصحاب السيرة . وقد ترجم هذا الكتاب في الإسلام . ترجمه جبلة بن سالم[2] .

ولا أعتقد أن رجلاً مثل الحارث بن كَلَدة الثقفي ، أو ابنه النَّضر ، وهما من العلماء بالطب ، لم يرجعا الى مؤلفات في الطب مدوّنة بلغة من اللغات الأعجمية ، للحصول على علمهما في الطب . وكيف يمكن ذلك ، وقد درسا في مدرسة لم تكن

---

١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (٢١/٥٢) ، سيرة ابن هشام (١/٣٨٣ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٤/٥٢) .

٢ الفهرست (٤٣٨) .

مدرسة عربية ، هي مدرسة (جنديسابور) ، عرفت واشتهرت في الطب . وقد كان عماد دراستها في الطب ما ألفه اليونان ، وما نقله منهـا علماء السريان . ولا أعتقد أنهما كانا في جهل بمؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما ممن بنوا صنعة الطب، ووضعوا فيها المؤلفات. بل لا أعتقد أن رجالاً في مكة أو في يثرب أو الطائف كانوا على جهل بأسماء مشاهير حكماء اليونان ، وبينهم من كان له اتصال ببـلاد الثقافة والعلم وبالأجانب على نحو ما ذكرت ، وإن اغفل عن ذكرهم أهل الأخبار .

ويظهر من روايات أهل الأخبار — مثل رواية ابن الكلبي عن وجود دواوين فيها ما مدح به آل لخم وما قيل فيهم من شعر ومقدار ما حكم كل واحد منهم ، وروايات غيره عن تدوين الشعر قبل الاسلام — أن الجاهليين كانوا قد شرعوا في تدوين الأخبار والشعر وما لفت انتباههم قبل الاسلام ، وقد يكون ذلك قبيـل الاسلام بعهد غير بعيد ، وأن التدوين كان بهذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، أو بلهجات قريبة منها . ومعنى هذا أن هذه اللهجة كانت قد اكتسبت قـوة في هذا العهد ، حملت الناس على التدوين وعلى نظم الشعر بها . ولكن الذي رفعها وجعلها لغة للعرب أجمعين ، هو القرآن الكريم من غير شك ، فبفضله صارت هذه اللغة لغة للعرب كلهم ولغة المسلمين الدينية .

ويظهر من القرآن الكريم أن هذه اللغة كانت قد عرفت ألفاظ الحضارة والفكر في يوم نزوله ، لورودها فيه . ولورودها فيه أهمية كبيرة في إعطـاء فكرة عن مستوى أهل الحجاز العقلي في ذلك اليوم ، ففيه ألفاظ مثل العلم والعلماء والحكمة والأساطير والأمثال الخ ... وألفاظ ذات صلة بالكتابة والتدوين تحدثت عنهـا ومصطلحات أخرى ، ولا يمكن ورود مثل هذه الكلمات في لغة قوم ما ، مـا لم يكن لهم أو لجماعة منهم على الأقل ، حظ من ثقافة وتفكير وعلم .

ولا أقصد أن الجاهليين استعملوا تلك الألفاظ بمدلولها المفهوم في الزمن الحاضر، أو بالمعاني المفهومة منها عند اليونان . فلفظة (علم) مثلاً ، لا تعني علماً بالمصطلح الحديث أي في مقابل Science في الانكليزيـة ، وإنما تعني المعرفـة عامة . ولفظة (علماء) ، لا تعني المشتغلين بالعلوم خاصـة أي ما يقال لهم Scientist في الانكليزية ، وإنمـا يراد بهم العارفون أصحاب المعرفة والفهم . وقد صار للفظتين مدلولان خاصان في العصر العباسي ، ولكن هذا لا يعني أن لفظة (علم) أو (علماء) ، لم تكن تعني معنى خاصاً عند الجاهليين ، وإلا ما استعملت للتعبير

عن معان معينة في القرآن الكريم ، وما ميز القرآن الكريم والحديث النبوي العارفين بلفظة علماء ، لتمييزهم عن السواد . وبهذا المعنى وردت لفظة (عالم) وعلم عند العبرانيين[1] .

ولا أستبعد تأثر المثقفين الجاهليين ومن كان على اتصال بالعجم وباليهود والنصارى بالآراء الفلسفية والدينية وبالجدل الذي وقع بين المذاهب النصرانية في أمور عديدة. فقد خالط الجاهليون ، ولا سيما في بلاد العراق وبلاد الشأم ، أقواماً عديدة ذات ثقافات متباينـــة ، واحتكوا بها ، وأخذوا منها ، فلا يعقل ألا يتأثروا ببعض آرائهم في الكون وفي الحياة وفي سائر نواحي التفكير . وقد وردت في شعر للأعشى وفي شعر لبيـــد ، فكرتان متناقضتان عن الجبر والاختيار ، فذهب الأعشى في هذا البيت :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامـــة الرجلا

مذهب القائلين بالاختيار، أي أن الانسان مختار قادر على أفعاله . أما الأعشى فذهب مذهب الجبرية القائلين بأن الإنسان مُجبَر ، مسير ، وذلك في قوله :

إن تقوى ربنـــا خير نقل وبـــإذن الله ريثي وعَجَل
من هداه سُبُـل الخير اهتدى ناعم البال،ومن شاء أضل[2]

وقد سبق أن ذكرت في مواضع متعددة من هذا الكتاب أن اكثر من نُسب الى التوحيد ، أي من ينعتهم أهل الأخبار بالحنفاء ، كانوا يقرأون ويكتبون ، وكانت عندهم كتب أهل الكتاب ، وان أكثرهم كانوا أصحاب رأي وفكر في الخلق وفي هذا العالم. ولكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا في نصرانية،لأنهم لم يجدوا في الديانتين شيئاً يفرج ويرفه عما كان يجول في رؤوسهم من آراء ومقالات عن الخالق والكون . وقد جالس هؤلاء رجال اليهود والنصارى ، وتكلموا معهم في أمور عديدة من أمور الفكر والدين في جزيرة العرب وفي بلاد العراق وبلاد الشأم. وينسب لجندب بن عمرو بن حممة ، وهو من دوس ، أنه كان يقول في الجاهلية:

---

١ Hastings, Dict. of the Bible, p. 831.

٢ العقد الفريد (٢/٣٧٨) .

إن للخلق خالقاً لا أعلم ما هو . ثم جاء الى الرسول ، فأسلم . وقد ذكر أن ورقة بن نوفل،وهو واحد من المذكورين ، كان قد قرأ الكتب وكتب بالعبراني أو السرياني ، وإنه كتب بالسريانية (العبرانية) من الإنجيل ما شاء أن يكتب . وكان قد امتنع عن أكل ذبائح الأوثان[1] . وذكر أيضاً : أن زيد بن عمر بن نفيل ، وهو ممن كان على الحنيفية ، كان ينتقد قريشاً ، ولا يأكل ذبائحها ، لأنها ذبحت للأصنام والأوثان[2] ؛ وأن عبدالله بن عبد الملك بن عبدالله بن غفار المعروف بأبي اللحم الغفاري كان يأبى أن يأكل اللحم ، ولهذا سمي : (آبي اللحم) . وكان شريفاً شاعراً . وقد أسلم : وشهد حنيناً[3] . وكان لكل هؤلاء وقوف على كتب أهل الكتاب ، ولهم علم بأقلامهم .

وقد ذكر أهل الأخبار أن وهب بن منبه وأخاه كانا يستوردان الكتب القديمة من بلاد الشأم . ويرد مصطلح (الكتب القديمة) في كتب السير والأخبار[4] . ووهب بن منبه وأخوه من الاسلاميين ، ولكن استيرادهما للكتب ، لم يكن بدعاً واكتشافاً منهما ، بل لا بد أنه كان قديماً معروفاً عند الجاهليين .

وقد ذكر أهل الأخبار عبدعمرو بن صيفي النعمان المعروف بأبي عامر الراهب في جملة من كان يناظر أهل الكتاب،ويتتبع الرهبان ، ويألفهم ، ويكثر الشخوص الى الشأم . ومن هنا قيل له : الراهب[5] . وقد علم بذلك علم أهل الكتاب .

وورد أن أهل الكتاب ، وهم اليهود ، « كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم »[6] ، وورد جواز تفسير التوراة والإنجيل باللغة العربية[7]. وكان اليهود يجادلون رسول الله في أمور الدين ، وقد أشير الى جدالهم له في القرآن الكريم : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا

---

١ الاغاني (٣/١٤) ، (٣/١٢٠) ، (١٢/٥٢) .
٢ الاغاني (٣/١٥ وما بعدها) .
٣ الاصابة (١/١٣) ، الاستيعاب (١/١١١) (حاشية على الاصابة) .
٤ شرح القاموس (٥/٤٢١) .
٥ نسب قريش (ص ٢٨١) .
٦ ارشاد الساري (١٠/٤٦٦) .
٧ المصدر نفسه (ص ٤٦٥) .

منهم . وقولوا : آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحـد ونحن له مسلمون »[1] ، وكانوا يستعينون في جدلهم بالتوراة ، يفسرونها بالعربية للمسلمين[2] . وقد فسر بعضهم الآية : « ليقولوا دارست » ، « بقوله : قرأت على اليهود وقرأوا عليك » ، وفسرها بعضهم بذاكرتهم ، أو قرأت كتب أهل الكتاب[3] ، فنحن إذن أمام أقدم أخبار تشير الى ترجمة العهد القديم الى العربية ، ليفهمها العرب المشركون . وقد كان جدال اليهود مع النبي على أمور واردة في التوراة ، فـلا بد وأنهم كانوا يستعينون بالترجمة في هذا الجدال .

وفي أخبار أهل الأخبار هذه مواضع تثير التساؤل وتوجه الانتباه الى قضية وقوف أهل الجاهلية وصدر الإسلام عـلى كتب أهل الكتاب ، ونقلهم عنها وشرحهم لبعض ما نقلوه باللغة العربية . فقـد وقفنا تواً على ما ورد عن بعض الأحناف من وقوفهم على كتب أهل الكتاب ومن معرفتهم بالعبرانية والسريانية ، وقد وقفنا من أخبارهم على أن (عبـدالله بن عمرو بن العاص) كان قد قرأ (الكتاب الأول)[4] . وأنه كان يقرأ بالسريانية[5] ، وأنه استأذن رسول الله في أن يكتب ما سمعه منه ، فأذن له ، فدوّنه في صحيفة سماها : (الصادقة)[6] ، وروي أنه كان يقرأ الكتابين : التوراة والإنجيل[7] . وأنه « كان فاضلاً عالمـاً قرأ الكتاب واستأذن النبي في أن يكتب حديثه ، فأذن له ، فكتب عنه حديثه وحفظ عنـه ألف مثل[8] . وروي أنه كان على علم بالمثناة ، و (المثاة) (المشنا) في تفسير التوراة ، وأنه جمع كتباً حصل عليها يوم (اليرموك) ، وكان له علم بها »[9] .

وروي أن (عمر) انتسخ كتـاباً من كتب أهل الكتاب ووضعه في أديم ، وجاء به الى رسول الله ، فقال له : « ما هذا في يدك يا عمر ؟ قال : يا رسول

---

١ العنكبوت ، الآية ٤٦ .
٢ تفسير الطبري (٢١/٢ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١٥٠/٤) ، (درس) .
٤ الطبقات (٢٦٧/٤) (صادر) .
٥ الطبقات (٢٦٦/٤) (صادر) ، المعارف (٢٨٧) .
٦ الطبقات (٢٦٢/٤) (صادر) .
٧ الاصابة (٣٤٣/٢) ، (رقم ٤٨٤٧) .
٨ الاستيعاب (٣٣٩/٢) ، (حاشية على الاصابة) .
٩ تاج العروس (٦١/١٠) ، (ثنى) .

الله كتاب استنسخته لنزداد به علماً الى علمنا . فغضب رسول الله حتى احمرّت وجنتاه » . وورد أيضاً أن رجلاً من (بني عبد القيس) سكنه بالسوس، كان قد نسخ (كتاب دانيال) ، وكان يقرأه ويفسره للناس ، وذلك في أيام عمر، فنهاه عن ذلك ، وشدد عليه في وجوب محو ما كتبه[1] . وورد أن (عمر) كتب الى عامله (أبي موسى الأشعري) كتاباً نسخته : « إغسلوا دانيال بسدر وماء الريحان »[2] .

وورد أن (عمر بن الخطاب) ، قال للنبي : انا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فنهى الرسول عن ذلك[3] .

ويرد اسم (كتاب دانيال) في خبر آخر ، فقد ورد عن (عمرو بن ميمون الأودي) ، أنه كان جالساً مع قوم ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقالوا له : ما هذا الكتاب : قال كتاب دانيال[4] .

ولم يرد اسم (دانيال) في القرآن ولا في الحديث ، ولكنه معروف جداً عند المسلمين ، بأنه نبي ، ولـه قصص في أخبار الرسل والأنبياء[5] . وقد وصلتهم قصصه ممن أسلم من يهود ومن اليهود الذين عاشوا بين الجاهليين وبين المسلمين . حيث اكتسبت رؤيا (دانيال) وتنبؤاته وتفسيره لحلم (نبوخذ نصر) شهرة خاصة عند يهود ، وانتقلت منهم الى المسلمين . ويعد (دانيال) أحـد الأنبياء الأربعة الكبار ، وتولى مناصب عالية عند البابليين والميديين (الماديين) ، وقـد اشتهر بتعبير الرؤيا وبالتنبؤ عن المستقبل[6] ، والظاهر أن شهرته هذه عند أهل الكتاب ، أكسبته منزلة خاصة عند المسلمين .

وورد أن (ابن قرة) جاء بكتاب من بلاد الشأم الى (عبدالله بن مسعود)، وكان قد أعجب به ، فأمر (عبدالله بن مسعود) بطست فيه مـاء ، محا به أثر الكتابة[7] .

---

١ الخطيب البغدادي ، تقييد العلم (٥١) .
٢ كنز العمال (٦/٣١٠) ، خورشيد أحمد (١٣٢) ، القسم العربي (رقم ٢٤١) .
٣ الفائق (٣/٢١٨) .
٤ تقييد العلم (٥٦ وما بعدها) .
٥ راجع قصص الانبياء (ص ٢٣١) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٣٢ وما بعدها) .
٧ سنن الدارمي (١/١٢٣) ، تقييد العلم (٥٣) .

وذكر أن (عمر بن الخطاب) قال: « أيها الناس ، إنه قد بلغني أنه ظهرت في أيديكم كتب ، فأحبّها الى الله أعدلها وأقومها ، فلا يبقين أحدٌ عنده كتاب إلا أتاني به ، فأرى فيه رأيي . فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف ؛ فأتوه بكتبهم . فأحرقها بالنار »[1] . ويظهر أن هذه الكتب هي من كتب أهل الكتاب ، فعندنا أخبار عديدة تذكر حصول الصحابة على كتب كثيرة وقعت اليهم في الغزوات والحروب التي جرت في بلاد الشأم .

وقد ورد في شعر بعض الشعراء الجاهليين ما يفيد وقوف أصحاب ذلك الشعر على كتب أهل الكتاب . كالزبور و (خط زبور) و (مصاحف الرهبان) و (التوراة) و (المجلة) أي الانجيل وأمثال ذلك ، مما يدل على أنهم كانوا قد وقفوا على خبرها وشأنها ، وأن اليهود والنصارى وهم عرب على اليهودية والنصرانية كانوا يتداولونها فيما بينهم ، باعتبار أنها كتبهم المقدسة[2] .

وقد وجد المسلمون مصاحف لليهود في مستوطناتهم فيها التوراة وفيها كتبهم الأخرى . فذكر ان المسلمين لما فتحوا (خيبر) « وجمعت مصاحف فيها التوراة، ثم ردت على اليهود »[3] .

وأنا لا أستبعد احتمال ترجمة الكتاب المقدس بقسميه ، كلاً أو جزءاً منه الى العربية ، فقد كان اليهود — كما سبق أن قلت — يفسرون ليهود يثرب ولعربها التوراة وكتبهم الدينية بالعربية، كما كان المبشرون يفسرونه بالعربية ،وقد رأيت ان قريشاً اتهموا الرسول بأنه كان يستمع الى رجل نصراني ، ويأخذ منه . وانهم ذكروا ان الأحناف كانوا يقرأون التوراة والانجيل ، وان عرب العراق كانوا يدرسون في الكنائس والأديرة بالعربية ، فلا أستبعد احتمال وجود ترجمات عربية للكتب الدينية قبل الاسلام ، تلفت لأسباب عديدة ، منها انها لم تكن اسلامية، ولأسباب أخرى ، فلم تصل الينا لذلك .

وقد ورد في بيت شعر ينسب الى (بشر بن أبي خازم) ، ذكر كتاب كان عند بني تميم ، إذ جاء فيه :

---

١ تقييد العلم (٥٢) .
٢ خزانة الادب (٣/١١) ، ديوان السموأل (١٢) ، اللسان (١٢/١١٣) «صادر» .
٣ امتاع الاسماع (١/٣٢٣) .

وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخليل بالركض المعار[1]

ولو أخذنا بظاهر العبارة ، دل البيت على وجود كتاب عند بني تميم ، قد يكون صحيفة وقد يكون كتاباً مؤلفاً من صفحات . ولو أخذنا بالتأويل وقلنا معناه : وجدنا هذه اللفظة مكتوباً ، ان أحق الخيل بالركض المعار، انتفى وجود كتاب لديهم[2] . وقد نسب هذا البيت الى (الطرماح بن حكيم) ، وهو شاعر اسلامي . واذا صح ان هذا البيت هو من شعر الطرماح ، جاز أخذ لفظة (كتاب) بالمعنى الحقيقي ، إذ كانت الكتب معروفة في هذا الوقت .

وجاء في كتاب (إمتاع الأسماع) ، أن الرسول « كتب هذه السنة المعاقل والديات ، وكانت معلقة بسيفه »[3] . وأشار الطبري الى هذه الصحيفة بقوله : « وقيل : ان هذه السنة كتب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، المعاقل فكان معلّقاً بسيفه »[4] ، والسنة المشار اليها هي السنة الثانية من الهجرة . والخبر أشبه ما يكون بخبر (الصحيفة) المنسوبة الى (علي بن أبي طالب) ، فقد ورد في (صحيح البخاري) : « عن أبي جحيفة ، قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا ، إلاّ كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة . قال:قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر » . وورد أنها « كانت معلقة بقبضة سيفه . إمّا احتياطاً أو استحضاراً » ، وورد « فأخرج كتاباً من قراب سيفه »[5] . ويكاد يكون الخبر واحداً ، فالصحيفة صحيفة المعاقل والديات ، وموضعها في الخبرين السيف، معلقة به ، أو في قرابه.ويظهر من روايات أخرى أن فيها أحاديث عن الرسول: مثل : المدينة حرام ما بين عائر الى كذا ، فمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم،فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس

---

١ المفضليات (٩٨) ، الموشح (١٧٩) ، تاج العروس (٣/٤٣٤) ، (عير) .

٢ (فمعناه وجدنا هذه اللفظة مكتوبة) ، المرزباني ، الموشح (١٧٩) .

٣ المقريزي ، امتاع الاسماع (١/١٠٧) .

٤ الطبري (٢/٤٨٦) .

٥ ارشاد الساري (١/٢٠٣ وما بعدها) .

أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عـــدل » . وورد انه كان فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل[1] .

ولم نجد في الأخبار ما يفيد أن الصحابة كانوا على علم بصحيفة النبي ، ولو كانت للرسول صحيفة فيها أحكام المعاقل والديات ، كان الرسول قد علقها على سيفه ، دلالة على اهتمامه بها ، لما سكت عنها الصحابة ، مع ما لها من الأهمية بالنسبة لاصدار الأحكام ، ولأنها يجب أن تكون المرجع المطاع الثاني بعد القرآن. ولذلك فأنا أشك في أمر هذه الصحيفة ، وفي صحيفة الإمام كذلك المأخوذة من كلام الرسول ، ولو كانت صحيفة الإمام ، هي صحيفة الرسول نفسها، صارت اليه بعد وفاته ، لما سكتت الأخبار من الإشارة اليها وعن انتقالها الى (عليّ) لما لها من أهمية ، ولا سيما بالنسبة الى الشيعة الذين يفتشون عن هذه الأمور باعتبارها منقبة تضاف الى مناقب الامام،وحجة في اثبات إمامته واعتماد الرسول عليه وحده. ولو كانت الصحيفة صحيفة الامام ، دوّنها بنفسه ، معتمداً على حديث الرسول، وكانت عنده معلقـــة بسيفه ، حرصاً عليها ، لتكون معه وتحت متناول يده ، يراجعها متى شاء،فلا يعقل أن تكون مقتصرة على المعاقل والديات وأسنان الابل ، وهي أمور يعرفها الامام ، وهو فقيه ، ومرجع من مراجع الافتاء ، دون حاجة الى أن يكتبها في صحيفة يحرص على حملها معه معلقة بسيفه ، ثم إنها إذا كانت على هذه الأهمية بالنسبة للإمام ، لما تركها أصحابه ، فلم ينقلوها بالنص والحرف، وهي أخطر وثيقة ، مع أنهم رووا عنه أحاديث كثيرة ، حتى نسب النـــاس له خطباً وأشياء لا يصح صدورها منه . ومنها صحيفة تسمى : (الصحيفة الكاملة، أو زبور آل محمد وإنجيل أهل البيت »[2] .

ورأيي ان ما ورد من ان الخليفة (أبو بكر) كان يمتلك صحيفة فيها حديث الرسول[3] ، هو خبر غير صحيح كذلك ، ولو كانت لديه صحيفة ، لما خفي أمرها عن الصحابة ، فلم يحفظوها ولم ينقلوا عنها . وأما ما ورد من أمر صحيفة

---

١ الكافي للكليني ، (٨٥) ، الارشاد (٢٥٨) ، أبورية ، أضواء على السنة المحمديـــة (٩٤ وما بعدها) .

٢ بروكلمن (١/١٨٣) .

٣ الذهبي ، تذكرة الحفاظ (١/٥) .

(عبدالله بن عمرو بن العاص) ، المسماة بالصحيفة الصادقة ، وما كتب فيها من حديث الرسول ، ومن انه قد جمع ألف مثل من أمثال الرسول[1] ، وما ورد من صحيفة (همام بن منبه) ، المسماة بالصحيفة الصحيحة ، فقد بحث في أمر هذه الصحف العلماء[2] .

وقد عدّ (الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان) التميمي المجاشعي، في جملة علماء العرب وحكامهم . قال عنه بعض العلماء : « وكان عالم العرب في زمانه »[3] . كان عالماً بالنسب وبأخبار الناس ، ولهذا كانوا يتنافرون اليه . وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام . وقد حكم في المنافرة التي وقعت بين (جرير بن عبدالله) البجلي ، وبين (خالد بن أرطاة) الكلبي . وكان (خالد) زعيم (قضاعة) يومئذ ، فنفر (الأقرع) جريراً على خالد ، بمضر وربيعة[4] . وكان من المؤلفة قلوبهم[5] .

والنسب هو من أهم المعارف التي عرف بها أهل الجاهلية . وهو علم يرتقي الى عهد بعيد عن الاسلام من دون شك، لما له من تماس مباشر بحياتهم الاجتماعية وبنظمهم السياسية ، ولأنه الحماية بالنسبة الى الجاهلي في تلك الأيام . وأستطيع أن أدخل في علم النسب ، العلم بأنساب الخيل ، فقد عنوا بالخيل عناية كبيرة ، وحفظوا أنسابها ، ووضعوا شجرات أنساب لها . كما عنوا بأنساب الإبل ، لما لهذا النسب من صلة بالاصالة وبسعر بيعها وشرائها . ونجد في الأخبار ما يشير الى وجود أناس تخصصوا بحفظ نسبها .

والنسّاب : العالم بالنسب ، وهو النسّابة . أدخلوا الهاء للمبالغة والمدح . « وفي حديث أبي بكر ، رضي الله عنه : وكان رجلاً نسابة ، النسابة : البليغ العالم بالأنساب »[6] .

---

١ الاصابة (٢/٣٤٣) ، (رقم ٤٨٤٧) ، الاستيعاب (٢/٣٣٨ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الثامن والعشرين (١٩٥٣) .
٣ الخزانة (٣/٢٩٦) ، (بولاق) .
٤ الخزانة (٣/٢٩٦ وما بعدها) ، (بولاق) .
٥ الاصابة (١/٧٢) ، (رقم ٢٣١) .
٦ اللسان (١/٧٥٦) ، (نسب) .

والنسب : نسب القرابات . يكون بالآباء ، ويكون بالقبائل ، ويكون الى البلاد ، ويكون في الحرف والصناعة[1] .

وقد نبغ بين القبائل والقرى أناس تخصصوا بحفظ النسب ، منهم من برع في حفظ نسب قبيلته ، ومنهم من برع في حفظ أنساب جملة قبائل ، وممن اشتهر وعرف من قريش بحفظ النسب وبالعلم به ، (أبو بكر) . وكان علمه بعلم الأنساب ، ثم بأمور الناس ، ثم الشعر . قيل إنه « كان أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر » ، وقيل إنه كان أنسب العرب ، وأعلم قريش بأنسابها ، وأنسب هذه الأمة[2] . و « كانت قريش تألف منزل أبي بكر، رضي الله عنه ، لخصلتين : العلم والطعام »[3] . ولما أمر الرسول حسان بن ثابت بالردّ على شعراء قريش قال له : « إئت أبا بكر ، فإنه أعلم بأنساب القوم منك . فكان يمضي الى أبي بكر ليقفه على أنسابهم » . فلما سمعت قريش شعر (حسان) ، قالت : « إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة »[4] . ولما مرّ بالناس في معسكرهم بالجرف ، جعل ينسب القبائل[5] .

وكان (جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف) ، وهو أحد أشراف قريش وحلمائها من علماء النسب في قريش ، وكان ممن أخذ النسب من أبي بكر . وكان ممن يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب عامة[6] .

وعرف (أبو جهم بن حذيفة) القرشي العدوي بعلمه بالنسب ، وكان من المعمرين في قريش . عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام . وكان من مشيخة قريش وصحب النبي[7] . وكان أحد الأربعة الذين كانت قريش تأخذ عنهم النسب[8] .

---

١ اللسان (١/٧٥٥) ، (نسب) ، تاج العروس (١/٤٨٣) ، (نسب) .
٢ الاصابة (٢/٣٣٤) ، (رقم ٤٨١٧) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) .
٣ البيان والتبيين (٤/٧٦) .
٤ الاستيعاب (١/٣٣٥) ، (حاشية على الاصابة) .
٥ الفائق في غريب الحديث (١/١٨٤) .
٦ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢) ، (حاشية على الاصابة) ، كتاب نسب قريش (٢٠١) ، البيان والتبيين (١/٣١٨) ، تاج العروس (٦/٤٤) ، (ألف) .
٧ نسب قريش (٣٦٩) .
٨ الاصابة (٤/٣٥) ، (رقم ٢٠٧) .

ومنهم : (مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف) . وقد أخذ عنه النسب . وكان عالماً بأنصاب الحرم[1] . قال عنه (أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري) « وكان له سر وعلم ، وكان يؤخذ عنه النسب »[2] ، وقد أرسله (عمر) مع (سعيد بن يربوع) ، و (أزهر بن عبد عوف) ، و (حويطب بن عبد العزى) لتجديد أنصاب الحرم ، فجددوها ، ويقال إن (عثمان) بعثهم كذلك . وهو راوي خبر قصة استسقاء (عبد المطلب) ، وما ورد فيه من الشعر[3] .

قال (الجاحظ) : « أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار ، وعلماؤهم بالأنساب والأخبار : مخرمة بن نوفل بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة ، وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبدالله بن عوف ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبي طالب . وكان عقيل أكثرهم ذكراً لمثالب الناس، فعادوه لذلك ، وقالوا فيه وحمقوه »[4] . و (حويطب) من مسلمة الفتح ومن المؤلفة قلوبهم[5] . ومات زمان معاوية ، وهو ابن عشرين ومائة سنة . وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار[6] . وتوفي سنة (٥٤ هـ)[7] .

وروي ان غنائم الحيرة لما وصلت الحيرة وفيها سيف النعمان بن المنذر، استدعى (عمر) (جبيراً) ، فسأله عن نسب (النعمان) فقال له : انه أشلاء قنص بن معد . فأعطاه سيفه ، وذكر انه كان أنسب العرب، وعنه أخذ (سعيد بن المسيب) النسب[8] .

ومن نسابي قريش (عقيل بن أبي طالب) . ولما وضع (عمر) الديوان، استعان بعقيل ومخرمة ، وجبير في ترتيب عطاء الناس على منازلهم ، فبدأوا ببني هاشم[9] . وعقيل هو أخ (علي بن أبي طالب) ، ذكر أنه « كان عالماً بأنساب

---

١ الاصابة (٣/٣٧٠) ، (رقم ٧٨٤٢) .
٢ نسب قريش (٢٦٢) .
٣ الاصابة (٣/٣٧٠) ، نكت الهميان (٢٨٧) .
٤ البيان والتبيين (٢/٣٢٣) .
٥ البيان والتبيين (٢/٣٢٣) .
٦ نسب قريش (٤٢٥ وما بعدها) .
٧ الاصابة (١/٣٦٣) ، (رقم ١٨٨٢) .
٨ الاصابة (١/٢٢٧) ، (رقم ١٠٩١) ، الاستيعاب (١/٢٣٢ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) ، الفائق (١/٦٠٨ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٣٠٣) .
٩ ابن سعد ، المجلد الثالث ، الجزء الاول (٢١٢) .

قريش ومآثرها ومثالبها ، وكان الناس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة » ، فهو من شيوخ العلم الذين نصبوا أنفسهم لتعليم الأنساب والمآثر والمثالب . قيل «كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات: عقيل ، ومخرمة ، وحويطب، وأبو جهم . وكان عقيل يعد المساوي ، فمن كانت مساويه أكثر يقر صاحبه عليه، ومن كانت محاسنه أكثر يقره على صاحبه »[1] ، ونظراً لتكلمه مع الناس وتحدثه عن مساويهم فقد عودي وحمق[2] .

وقد صار مسجد الرسول في المدينة موضع دراسة للمسلمين ، فقد رأينا (حسان ابن ثابت) ، وهو ينشد الشعر فيه ، وهذا (عقيل) يعلم الناس الأنساب فيه ، وهناك غيرهما من كان يعلم الناس في هذا المسجد .

وممن عرف واشتهر بعلم النسب،وأخذ النسب عن الجاهليين ، دغفل السدوسي من بني شيبان ، وعميرة أبو ضمضم ، وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات ، وزيد بن الكيس النمري ، والنخار بن أوس القضاعي ، وصعصعة بن صوحان، وعبدالله بن عبد الحجر بن عبد المدان ، وعبيد بن شريه وغيرهم[3] .

وذكر عن (دغفل بن حنظلة) النسابة السدوسي الشيباني ، انه كان عالماً بالعربية والأنساب والنجوم ، وقد اغتلبه النسب . وقد أعجب به (معاوية) لما سأله أموراً كثيرة في هذه العلوم[4] . ولا بد وأن يكون قد أخذ علمه ممن أدرك الجاهلية من رجال ، وممن عاصر الرسول . وذكر انه و (زيد بن الكيس) النمري ، كانا ممن أثارا أحاديث عاد وجرهم ، ولذلك قال فيهما الشاعر :

أحاديث عن أبناء عادٍ وجرهم يثورها العضان زيد ودغفل[5]

وروي ان معاوية « قال لدغفل بن حنظلة النسابة . بمَ ضبطت ما أرى ؟

---

١ الاصابة (٤٨٧/٢) ، (رقم ٥٦٣٠) .
٢ البيان والتبيين (٣٢٤/٢) ، نكث الهميان (٢٠٠) .
٣ الاصابة (٤٦٤/١) ، (رقم ٢٣٩٩) ، البيان والتبيين (١١٨/١) ، بلوغ الارب (١٩٦/٣) ، التمدن الاسلامي (٤٠/٣ وما بعدها) ، الفهرست (١٣٧ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣٢٢/١ وما بعدها) .
٤ الاصابة (٤٦٤/١) ، (رقم ٢٣٩٩) ، الاستيعاب (٤٦٧/١) .
٥ العسكري ، جمهرة (١١٣/٢) ، (رقم ١٣٥٨) ، الميداني (٢٤/٢) .

قال : بمفاوضة العلماء . قال : وما مفاوضة العلماء ؟ قال : كنت اذا لقيت عالماً أخذت ما عنده ، وأعطيته ما عندي »[1] . وذكر ان (أبا بكر) ، سأل قوماً من (ربيعة) عن نسبهم ، وفيهم (دغفل) ، وكان غلاماً إذ ذاك ، فلما انتهى أبو بكر من استجوابهم ، سأله (دغفل) عن نسبه ، فأفحمه[2] .

وقد اشتهر (دغفل) في النسب ، حتى ضرب به المثـــل في النثر وفي الشعر بسعة علمه به ، وقد ذكره (الفرزدق) بقوله :

أوصى عشية حين فارق رهطـه عند الشهادة في الصحيفة دغفل
أن ابن ضبّة كان خـير والداً وأتم في حسب الكرام وأفضل[3]

ونجد اسمه في شعر شعراء آخرين[4] .

وكان ممن أدرك النبي ، ولم يسمع منه . واسمه (الحجر بن الحارث) الكناني؛ ودغفل لقب له[5] .

وكان (صحار) العبدي من النسابين البلغاء ، وله مع (دغفل) محاورات . وكان من المقربين الى معاوية ومن المطالبين بدم (عثمان)[6] .

و (صعصعة) بن صوحان) العبدي ، وكان مسلماً في عهـد رسول الله ولم يره . وشهد صفين مع (علي) ، وكان خطيباً فصيحاً ، له مع معاوية مواقف. « قال الشعبي : كنت أتعلم منه الخطب »[7] . وله اخوة ، منهم (سيحان بن صوحان) العبدي، كان أحد الأمراء في قتال في أهل الردة[8] ومنهم (زيد بن صوحان) وكان سيداً في قومه ، وقد شهد الجمل مع (علي)[9] .

---

١ الفائق (٢/٣٠٤) .
٢ الفائق (٣/٨٤) .
٣ النقائض (١/١٨٩) .
٤ ديوان القطامي (٣١) ، البيان والتبيين (١/٣٢٢ وما بعدها) .
٥ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) .
٦ الاصابة (١/١٧٠) ، (رقم ٤٠٤١) .
٧ الاصابة (٢/١٩٢) ، (رقم ٤١٣٠) .
٨ الاصابة (٢/١٠٢) ، (رقم ٣٦٣٠) .
٩ الاصابة (١/٥٦٥ وما بعدها) ، (رقم ٢٩٩٧) .

ومن نسابي (كلب) : (محمد بن السائب) الكلبي ، وابنه (هشام بن محمد بن السائب) ، و (شرقي بن القطامي)[1] ، و (الشرقي بن القطامي) ، اسمه (الوليد بن الحصين) ، وقد اتهم بالكذب[2] . وقد ذكر (الجاحظ) و (ابن النديم) أسماء عدد ممن عرفوا باشتغالهم بالأنساب .

وقد برز بعض النسابين في ذكر مثالب الناس ، وقد كان (عقيل بن أبي طالب) منهم ، كما ذكرت . ويذكر ان (زياد بن أبيه) كان أول من ألّف كتاباً في المثالب ، ودفعه الى ولده ، قائلاً لهم : استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم[3] . ومن طلاب المثالب وناشرها بين الناس (أبو عبيدة معمر بن المثنى) التيمي ، من تيم قريش . وكان مكروهاً فلما مات لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم منه شريف ولا غيره[4] .

وعدّ الشعر عند أهل الجاهلية علماً من علومهم ، يقوم عندهم (مقام الحكمة وكثير العلم) ، « ولم يكن لهم شيء يرجعون اليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر . فيه كانوا يختصمون وبه يتمثلون ، وبه يتفاضلون ويتقاسمون ، وبه يتناضلون ، وبه يمدحون ويعابون »[5] . وقد أوردوا أسماء أشخاص عرفوا بسعة علمهم وبتبحرهم بالشعر .

الملاحن والألغاز :

ومما أثر عن أهل الجاهلية مما يتعلق باستعمال الذكاء والفطنة واختبار العلم ، الملاحن والألغاز . واللحن عند العرب الفطنة . وقد وضع (ابن دريد) كتاباً في الملاحن ، سماه : (كتاب الملاحن)[6] . وقد كانت العرب تتعمد الملاحن وتقصدها ، إذا أرادت التورية أو (التعمية)[7] . وقد ذكر أهل الأخبار أنهم

---

١ البيان والتبيين (١/٣٢٢) .
٢ الفهرست (١٣٨) .
٣ الفهرست (١٣٧) ، (المقالة الثالثة) ، تهذيب الاسماء واللغات للنووي (١/٢٥٩) كتاب المعارف لابن قتيبة (١٧٦) ، بروكلمن (٢٥٠) .
٤ الفهرست (٨٥) .
٥ اليعقوبي (٢/٢٣٠) ، (النجف ١٩٦٤ م) .
٦ المزهر (١/٥٦٧ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه .

استعملوها استعمال (الشفرة) ، أو الرسائل السرية المعماة في نقل الأخبار ، كالذي رووه من أن طيئـاً أسرت رجلاً شاباً من العرب ، فقدم أبوه وعمه ليفدياه ، فاشتطوا عليهما في الفداء ، فأعطيا لهم به عطيّة لم يرضوها ، فقال أبوه: لا والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبلي طيء لا أزيدكم على ما أعطيتكم ، ثم انصرفا .

فقال الأب للعم : لقد ألقيتُ الى ابني كليمة ، لئن كان فيه خير لينجون. فما لبث أن نجا وأطرد قطعة من إبلهم ، فكأن أباه قال له : إلزم الفرقدين على جبلي طيء فإنهما طالعان عليها لا يبغيان عنه[1] .

ورووا قصصاً أخرى من هذا القبيل[2] ، تحلل تحايل الناس إذ ذاك في كيفية إبلاغ خبر ، أو ايصال رسالة من أسير وقع في أسر ، أو من شخص اعتدى عليه ، أو من رجل طعن ، فأراد ابلاغ قومه باسم طاعنه . فيعمد الشخص الى الكلام المعمى الدال على سذاجة ، لإيصاله الى أهله ، لعلمه بأن في وسع أهله استنباط ألغازه وحل معماه .

وأما الألغاز ، فهي لامتحان الذكاء في الغالب ، ولتمضية الوقت والتسلية . وتكون شعراً كما تكون نثراً[3] . و (الأُلغوزة) ما يعمى به من الكلام[4] .

---

١ المزهر (١/٥٦٧) .
٢ المزهر (١/٥٦٨ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٥٧٨ وما بعدها)
٤ تاج العروس (٤/٧٨) ، (اللغز) .